# الإسلام يتحدّى

وحيد الدين خان

المختار الإسلامي

إهـــــــداء2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

وحيد الدين خان

# الإسلام يتحدّى

## مدخل علمي إلى الإيمان

ترجمة
ظفر الإسلام خان

مراجعة وتقديم
دكتور عبد الصبور شاهين

الطبعة السابعة

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٧٠٧ القاهرة

This is an Arabic translation of « Ilmé jadeed ka Challenge » by the Indian muslim thinker and reformer : waheeduddin khan ( Editor, weekly Aljamiat, Delhi-6, India ) published in Urdu (1966) by Academy of Islamic Research & Publications, Nadwatul Ulamaa, Lucknow, India. It has been rendered to Arabic by Mr. Zafarul Islam Khan, revised by prof. Dr. Abdussabur Shaheen of Cairo University and published by **Al-Mokhtar Al-Islami P.O.Box 1707. CAIRO.**

هذه ترجمة كتاب

**« علم جديد كاجيلنج »**

كتبه بالأردية الأستاذ وحيد الدين خان ونشره عام ١٩٦٦ « المجمع العلمى الاسـلامى » التابع لندوة العلماء ، لكنهو ، بالهند .

وتمت الترجمة باذن من المؤلف

**الطبعة السابعة**

**١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م**

# الإسلام يتحدى

مدخل علمي إلى الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

« انما يخشى الله من عباده العلماء »

( فاطر : ٢٨ )

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم

حتى يتبين لهم انه الحق »

( فصلت : ٥٣ )

# تقديم الطبعة الأولى

## بقلم الدكتور عبد الصبور شاهين

ما أكثر ما يكتب عن الاسلام والمسلمين فى مطبوعات هذا العصر فى العربية ، وغير العربية ، وما أقل غناء أكثره .

قليل جدا من الكتابات الاسلامية هو الذى يعد اسـهاما فى معالجة مشكلات عالمنا الاسلامى ، اسهاما جادا مخلصـا من أجل عودته ، وتقدمه .

وكثيرا جدا ما نقرؤه من تلك الكتابات التقريرية ، أو الرثائية الوعظية ، التى تخطها اقلام ، ان كانت تتاجر بالدين ، فلا غرابة ، فى عالم يقوم على المتاجرة حتى بالقيم ، فاما اذا كانت معروفة بالعلم وبالذكاء ، فذلك هو داعى الحسرة والاشفاق فى انفسنا على علمائنا الأذكياء .

أيمكن أن نتصور عالم الفكر الاسلامى مجرد اقاصيص تحكى للبهر ، أو مقالات يجتهد أصحابها فى تدبيج مقدماتها وسياقاتها ، لننتهى بعـد قراءتها الى هـز الرءوس ، ولوك عبارات الثنـاء والاعجاب ؟

هذا على حين يتشاغل كتاب الفلسفات المادية برسم تطلعات العصر ، وعلاج مشكلات التطبيق على مستوى عالمى ، حتى ليحس المرء بعد مطالعة بحث من هذه البحوث بحاجته الى أن ينزوى نفسيا فى ركن من أركان اليأس والقنوط ، لأنه غائب تمـاما عن المعركة الحاضرة !! .

تلك محنة الوجدان والعقل المسلم . الذى ينشـد لدى كتابه ومفكريه مستوى من المبادرة والجد والأخلاص ، ولونا من الكتابة

المباشرة التى تعيش عصرها وافكاره وتطلعاته ، فاذا هم لا يزيدون على بضــع حكايات الأولياء ، واجترار بضعة خيــالات محلقة فى سماوات التيه ، ومجابهة الواقع الصارخ الملح بما يميعه فى وعى الجماهير ، ثم يسرح بها بعيدا بعيدا ، فى أحلام الماضى وتصوراته .

ومن البله أن نظن أن أخبار السلف هدف ثقافى ، يقصد لذاته كمتعة عقلية ، دون أن يكون من وراء ذلك مشروع انهاض ، وخطة توعية من أجل صنع الحاضر والتأثير فى الاجيــال القادمة حسب هؤلاء السلف أنهم كانوا امثلة مسهمة فى صــنع عصرهم وتوجيه معاصريهم ، ثم مضوا ، عليهم من الله رضوان ، ومن الناس سلام .

وجاء من بعدهم خلف ، اصبح بعد حين سلفا ، بعد أن مضى الى الرفيق الأعلى ، مخلفا كذلك تركة من السلوك ، ومن الكفاح ، هى جزء من تاريخ أمتنا .

وجاء جيلنا ليتوهم ، أو ليراد له ان يتوهم ، انه مجرد وارث لأجيال سابقة ، عليه أن يستغل تركتها فى خلق ملذاته ، فاذا ما جوبه بتحديات عصره لجأ الى المباهاة بتراثه ، المبــاهاة وحدها ، المتمثلة فى أكثر الكتابات المنشورة ، التى لا تمل أن تحكى وتحكى ، حكايات فى حكايات ، وتقف أحيانا مستعلية من فوق منبر ، لتمطر على الحضور وعظا فى وعظ ، دون أن تبلغ فى ظن الجماهير أن تهز وجدانا ، أو حتى تحرك قشة .

ان أخص صفات عصرنا هى أنه ينتج من الأفكار بقدر ماينتج من الأشياء ، وليس من الضرورى أن نتطلب من الافكار المنتجة أن تكون نافعة دائما كالأشياء ، فان المجتمعات التى تصدر الينــا أشياء الحضارة ترى فى الأفكار سلعة ينبغى أن تتغير كل يوم ، كما تتغير طرز الاشياء ، ولذلك يقف مثقفونا مبهورين أمــام موجات الفكر الواردة من الخارج ، ماذا يأخذون ، وماذا يدعون ؟ بل قل : ماذا يقرءون ، وماذا يترجمون ؟ .. ولا شيء أكثر من هذا .. يكفيهم

ان يستطيعوا ملاحقة الافكار ، دون أن يكون عليهم أن يواجهوها ، او ينقدوها ، فهم الى أن يصوغوا نقدا معينا لأحد الاتجاهات الجديدة نسبيا يكون الوقت قد فات ، وتقادم بمرور الزمن ما ينقدون ، وغطت عليه أفكار اخرى اشد لمعانا ، وأكثر جاذبية واشعاعا .

ومما لا شك فيه أن العالم الاسلامى هدف ثمين من أهداف ـ تصدير ـ الأفكار ، نظرا الى موقعه ، وخطورة موقفه بين الكتل المتصارعة ، او بعبارة أخرى : مراكز الانتاج ، والهدف من وراء التصدير واحد لدى كل هذه المراكز : أن يبقى هذا العالم مفتقرا اليها ، على اختلافها ، وان يحال بينه وبين أفكاره الأصيلة ، التى يمكن أن تغنيه عن الاستيراد ، وتحقق له الاكتفاء الذاتى .

ومن المعروف فى دوائر الاقتصاد أن الاحتكار اذا تحقق لمركز انتاجى فى سوق معينة فان من المتوقع أن يبدأ المنتج فى افساد السلعة ، بتقليل جودتها اعتمادا على الاحتكار المتاح له ، وطمعا فى ربح أوفر .

وسوق الأفكار اخطر اسواق المنتجات ، وأكثرها تقبلا للتزييف والافساد ، ومن ثم حفلت أسواقنا بما هو اشد فتكا من السموم ، وأعظم انتشارا من الهواء ، يتخلل كل خلية ، وينخر فى كل بناء .. أفكار ترتدى اثوابا ، أو تحمل شعارات أو ترفع مشاعل ، ليس الثوب فيها ، أو الشعار ، أو المشعل ، الا قناعا يستر الزيف الخطر .

وليس من الممكن ان نفهم موجات السيطرة الخارجية على مجتمعاتنا الا اذا لاحظنا مثلا تبعية الفتاة المسلمة فى كثير من بلاد الشرق العربى لكل ما يظهر فى أوروبا أو أمريكا من أزياء ، فما أن ترتدى الزى احدى ( المانيكان ) قصيرا بمقدار سنتيمتر واحد ،

حتى تبادر فتياتنا الى تقصير اثوابهن بمقدار شبر واحد !!

ليس المهم ملاحظة أن تقصر الفتاة أو تطول ثوبها بحكم (الموضة) الشائعة ، فاذا لم تفعل عدت متخلفة ، وانما المهم ملاحظة هذه السيطرة التى توفرت لملوك الأزياء ، وأكثرهم صهيونيون ، على فتياتنا المثقفات بخاصة ، حتى كأنهن جميعا أعضاء فى جوقة موسيقية واحدة ، وأمامهن ( مايستروا ) كلما أشار باصبعه أو بعصاه تحرك العازفون والعازفات فى اتجاه العصا ، كالقطيع .

ودلالة هذه التبعية أخطر مما قد يبدو فى ظاهر الأمر ، لأن تأثيرها يشمل كل القيم التى يقدسها المجتمع فى شخص المرأة ، قيم الحياء ، والانوثة الواعية ، والصدر غير المتعرض لذباب الاعين ، وقيم التماسك ، والالتزام فى تربيتها ، وقيم الجيل الناشىء على يديها ، وهو الذى ننشده لغد هذه الارض ، ومستقبل هذا الدين ، وبكلمة واحدة ، وبلا مغالاة : نحن هكذا محكومون من عمق مجتمعنا لملوك الازياء ، ودولة المانيكان .

ومع ذلك ، قد يقال : ان مسألة الزى أقل خطرا من غيرها ، فهى على أية حال مسألة غلاف ... أما غيرها ، كقضية المعتقدات التى تزيف للاجيال الناشئة ، وجوهرها تحطيم لدينها ..

وقضية الروح المنهزمة أمام انتصارات العلم فى غير بلاد الاسلام، الروح التى تقف متضعضعة مبهورة أمام منجزات الانسان الاوروبى أو الامريكى .

وقضية الحرية الفكرية المعدومة فى فلسفة التربية ، حتى اصبح كل هم المدارس انتاج نماذج مصبوبة فى بوتقة التبعية والتقليد .. وقضايا أخرى كثيرة ، كلها أهم من قضية المينى جيب ، أو الميكروجيب .

وبرغم ذلك لا نكاد نلمح أدنى فاصل بين هذه القضايا جميعا ،

فالمصنع المنتج واحد ، وهدف التصدير واحد ، والمستهلك واحد أيضا ، هو الانسان المسلم .

والمشكلة بالاضافة الى هذا كله ان أكثر كتابنا أصبحوا يرون فى قيام هذه الحالات شيئا مألوفا غير جدير بالمناقشة ، اما زهدا فى الدنيا ، واما يأسا من الاصلاح ، واما تعودا على المشاهدة اليومية ، كما يتعود المدمن تأثير المخدر . وكأنهم المعنيون بقول الشاعر :

ومن يهن يسهل الهوان عليه          ما لجرح بميت ايلام

وأقول : ( أكثر كتابنا ) . لأن هناك ( قلة ) نصبت اقلامها للذود عن المستقبل ، والدفاع ضد التيار المخرب ، متحملة فى ذلك عنت الفساد وسلطانه ، ومتحدية فى المجتمع مراكز استيراد الأفكار ، وعناصر اللامبالاة ، وهؤلاء القلة لا تكاد ــ والحمد لله ــ تخلو منهم أرض الاسلام ، يكتبون بكل لغة ، ويحاربون فى كل معركة ، ايمانا منهم بوحدة المقاتلين أمام الخطر الزاحف .

ومن هؤلاء القلة مؤلفنا هذا ، الذى يدخل اسمه لأول مرة حقل اللغة العربية ، بنشر ذلك الكتاب : **( الاسلام يتحدى )** ، وان كان لاسمه رنين مدو فى شبه القارة الهندية ، باعتباره ثالث اثنين ، يتولون قضية الاسلام المعاصر فى وجه الزحف الفكرى : أبو الأعلى المودودى ، وأبو الحسن الندوى ، ووحيد الدين خان .

والحق أن علماء باكستان والهند المسلمين قد اتيح لهم أن يتصلوا اتصالا مباشرا بمصادر المعرفة الحديثة ، حتى أصبحوا من أعلامها ، وهم فى هذا يضارعون أكثر علمائنا العرب اتصالا بثقافة الغرب ، مع فارق جوهرى ، فى رأينا ، وهو ان الأولين الذين نشير اليهم لم يغرقوا أنفسهم فى المعرفة الاكاديمية ، لتستولى من

بعد على عقولهم وأقلامهم ، وليصبحوا مجرد ناشرين ، أو مفسرين ، أو حتى معلقين ، على ما يقدمون من فكر الغرب وعلومه .

لقد وقف هؤلاء عمالقة فى وجه التيار ، وانغمسوا فى مشكلات الجماهير ، وحاولوا أن يقدموا لهم تصوراتهم من أجل المستقبل ، ومن أجل تحريك الثورة الفكرية فى كيان الانسان المسلم ، فهم فى الحقيقة كتاب ثوريون ، ذوو أصالة ووعى وايمان .

وليس من السهل أن نقول : انهم جميعا يمثلون طريقة واحدة فى الأداء ، برغم أن هدفهم واحد ، فان لكل منهم اداءه الخاص ، وطريقته الفذة التى عرفته بها الجماهير المسلمة .

وحسبنا أن نقرأ هذا الكتاب الجديد ، لندرك انه يمثل عقلا ، وثقافة ومنهجا ، يختلف بها مؤلفه عن جميع من عرفنا من الكتاب المعاصرين .

ولعل من المناسب أن اورد هنا ما كتبه المؤلف فى صحيفته ( الجمعيت الاسبوعية ) فى عدد ٧ من فبراير ١٩٦٩ ، موضحا الدور الذى يحاول أن يقوم به ، قال :

« ان المشكلات التى يواجهها الاسلام فى هذا العصر ، منها ما هو علمى، يوجه اليه بلغة العلم ومصطلحاته ، ولذلك كان لزاما أن نضع اجاباتنا فى مواجهة هذه الحملات المسعورة بنفس المصطلحات العقلية والعلمية التى يستخدمها المعارضون للدين . ولا زال هذا الميدان ، منذ أمد طويل مجالا لنشاطى واهتمامى ، حتى كان آخر ماكتبت : ( الاسلام يتحدى ) .

« والميدان الثانى لنشاطى هو ما نسميه بميدان بناء الأمة الاسلامية وتعميرها ، والعمل على نهضتها ، وعلينا فى هذا المجال أن نكشف العلل ، ونمحص الأسباب السياسية والاجتماعية التى

أدت الى سوء أحوال المسلمين ، ثم وضع خريطة للمستقبل ، بعد الوقوف على أسباب النكسة التى أصابتنا ، وتقوية الشعور القومى لدى المسلمين ( فى شبه القارة الهندية ) ليربط بين مختلف أنشطتهم فيجعلها مجموعة معنوية متكاملة ، وحثهم على مواصلة الجهد لتكون منهم أمة قوية جامعة فى العالم .

« وبكلمة أخرى ، نحن نصبو الى بعث الأحلام التى رآها اسلافنا خلال كفاحهم وتحقيقها ، لاعلاء شأن الأمة المسلمة ، وهى الأحلام التى لم تتحقق ، لسبب أو لآخر .

« وهذه هى المهمة الفكرية التى تضطلع بها صحيفتنا ( الجمعيت الاسبوعية ، ويمكننا أن نقول بحق : ان هذه المهمة قد أصبحت أكبر ميزة خاصة لجريدتنا فى المجال الصحفى ، فى هذا العصر ، على حين أصبحت الصحافة الاسلامية علما على الرثاء ، بل ان آخر ما تستطيعه هـذه الصحافة هو مجرد التعليقات السياسية على الأحداث العامة ، وتقديم بعض المعلومات الطريفة التى يتشوق اليها العامة من القراء . ففى هذا المناخ الصحفى تعتبر ( الجمعيت الاسبوعية ) الصحيفة الوحيدة التى تعمل على احياء وتقوية الشعور القومى لدى المسلمين ، باحثة عن مواطن الخطأ فى كفاحهم الحضارى ، ونحن لا نجد كلمات نشكر الله بها ، على أنه ـ سبحانه ـ اختارنا بمشيئته لسد هذا الفراغ » .

فالرجل كما نرى صاحب دعوة ، يريد ابلاغها الى ضمير الأمة المسلمة بلاغا يحركها نحو أهدافها ، ويوحدها أمام الأخطار ، وهى دعوة ذات شقين ، احداهما يستنفد العمر كله ، ولكنه يعمل لتحقيق كليهما بوسائله المتاحة : أن يكتب كتبا ، وأن يسخر مجلة أسبوعية

والواقع أن كتابه هذا يعتبر تحقيقا لحلم طالما راود كتاب العقيدة والمدافعين عنها ، فقد كانت محاولات السابقين للبرهنة

على وجود الله ، واثبات الرسالة ، وما يتصل بهمـا من حقائق ميتافيزيقية ـ وقد وقفت عند جهود علماء الكلام ، باستخدام الأقيسة المنطقية ، التى بليت لطول مالاكتهـا الألسن ، واصبح مجرد التحدث بها داعية الى الملل منهـا ، بل ان لفتهـا لم تعد مفهومة للشباب الاسلامى ، الذى يعيش فى هـذا العصر ظروفا تتغير من يوم لآخر ، وتطالعه ثقافات ذات جدلية ماهرة ، ومناهج علمية تجريبية لم يعد العقل يقنع بدونها .

لقد أصبح كل شيء موضع شك . وبذلك سقطت القضـايا القائمة على المسلمات المنطقية لأنه لا شيء فى العقل الحديث بمسلم منطقيا الا وله نقيض منطقى يمكن أن يتحمله العقل . أما التجربة فهى الدليل الذى لا يدفع على قضيتها ، وما ينتج عن التجربة ليس مسلما منطقيا ، ولكنه حقيقة نسبية موضوعية ، وهذا شأن العلم . ومن هنا كان لابد من تغيير المناهج الكلامية ، لاشباع رغبات متجددة فى اليقين ، تريد أن تؤسس موقفها على أرض من المعرفة الجديدة التى اخترقت الآفاق ، وقاست أبعاد النجوم ، وتغلغلت فى أسرار المادة ، حتى حطمتها واستخرجت منها طاقات لا حدود لها .

واذا قيل : ان قضايا علم الكلام هى قضـايا الغيب المطلق المحجوب الأسرار ، ولا يعقل أن يكون للتجربة دور فى معالجتها . تذكرنا فى رد هذا الرأى ما قاله عربى يعيش على فطرته ، وينطق على سجيته ، دون أن يكون قد الم بشيء من منطق أرسـطو :

« البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، الا يدل كله على الله اللطيف الخبير » ؟؟ .

وكلمات هذا الأعرابى الصق بالمنهج التجريبى ، القـائم على الملاحظة ، واقرب الي التأثير فى النفس ، واقدر على اقناع العقل . من أية صيغة قياسية ـ ما فى ذلك شك .

لقد اصبح سيئا للغاية أن ينطق رجل الدين أمام الناس ، أو أمام الطلاب بقضايا متقادمة ، قال بها الأولون ، دون أن يحاول مزج المعرفة التقليدية بالجديد ، وأكثر ما تتجلى هذه المعرفة التقليدية فى علم التوحيد أو الكلام ، أو مباحث العقيدة ، على اختلاف المصطلحات ، حيث يصر بعض الأساتذة على حكاية النزاع بين المعتزلة واهل السنة ، والرق بين الأشاعرة والماتريدية ، ووجهة نظر الخوارج والشيعة ، والخلاف بين الجبرية وغيرهم ، وتناقض ما بين العقل والنقل أو تساندهما ، وكل ذلك دائر فى حلقة مفرغة بعيدة عن مجال تفكير الشباب المتحول ، لان هذا الكلام كله قد ادى وظيفته على خير وجه ، حين كان جزءا من صراع عصره حول المفاهيم والقيم ، فلما مضى عصره أصبح جزءا من تاريخ الفكر ، لا أساسا من أسس النقاش الحى النابع من التجربة المعاشة .

ولذلك يعجز هذا الكلامعن اقناع ملحد حديث بخطئه ، لأن أسباب الحاده ليست من موضوعات الكلام ، فالجدل الحديث لا يتناقش حول الجوهر والعرض ، ولا حول القدم والحدوث ، وانما هو يتناقشحول حتمية المادة، ووجود المادة الواقعية والمادة العقلية والعلاقة بين المادة والحركة ، حين ينتهى كل موجود مادى فى حقيقته الى حركة ، والاحتمالات الرياضية لتأثير الصدفة فى نشأة الكون ، وامتداده ، وحتمية التطور . وحقيقة الوجود فى ضوء الادراك الجديد لنسبية الظواهر الكونية ، واهمها الزمان، ذلك البعد الرابع الذى كشفه اينشتاين ، والتوقعات العلمية لوجود عوالم أخرى غير عالمنا ، فى سمائنا ، وفى السماوات الأخرى ، التى يدركها العلم ، أو يحدس بوجودها ، ويحاول معرفة شىء عنها ..... الخ .

فاذا لم تكن هذه القضايا الجديدة هى محور النقاش فى قاعات الدرس الجامعى . الذى يصوغ عقول الشباب فمعنى ذلك أن جامعاتنا تعمل فى فراغ ايديولوجى ، وتخرج للمجتمع نماذج خربة ،

واهنة أو مشوشة أو يائسة من جدوى العقيـدة فى بناء المجتمع الجديد ، نماذج تحس فى أعماقها بالجفاف الروحى ، فهى لم تظفر بأرضية من الفكر الدينى تقف عليها مطمئنة فى مواجهة رياح التغيير العاصفة ، اما لأنها محرومة من هذا اللون من الدراسة ، واما ــ وهو الاخطر ــ لأنها غير مقتنعة بما عرض عليها من موضوعاته . وينتهى الأمر بهـذه النماذج الى أن تتبعثر فى الفـراغ ، وتحس باللامبالاة تجاه مسائل العقيدة ، لأن أسلم الطرق الا تبالى ، فالهرب أسلم المسالك .

والغريب أن هذه الحال قد طفحت على سطح المجتمع منـذ اوائل القرن التاسع عشر ، حين بدأ اللقاء والاصطدام بين ثقافتى الشرق والغرب يواجه مبعوثينا الى أوروبا ، على عهد محمد على ــ فى مصر ، وتعرضت أعمال روائيه ، منذ ذلك العهد ، وحتى يومنا هذا ، لتصوير التمزق الفكرى ، الذى يعانيه هؤلاء المبعوثون ، من امثال : تخليص الابريز ــ لرفاعة الطهطاوى ، وعلم الدين ــ لعلى مبارك ، وحديث عيسى بن هشام ــ لمحمد المويلحى ، وقنديل أم هاشم ــ ليحى حقى ، وعصفور من الشرق ــ لتوفيق الحكيم ، ومليم الأكبر ــ لعادل كامل فانوس ، أى ان المشكلة ثائرة وملحة من قديم ، دارت حولها روايات قيمة . ومع ذلك لم يبحث لها المفكرون الدينيون عن حل ، ولم يعرضوا لها بمناقشة لاستكناه أسبابها ، على حين اكتفت الاعمال الروائية بالتقاطها وتصويرها . والخطر بهذه السلبية الى تفاقم ، والخراب الى استفحال ، والضحية دائما هو الانسان المسلم .

اليس غريبا ان يكون بعض عتاة الملاحدة فى مجتمعـاتنا ممن يمتون الى أسر ذات اتصال بالدراسة الدينية ؟!! وان تنشر مجلة أسبوعية أن احدى المانيكان تمثل جامعة الأزهر الشريف ، ثم تأتى بصورتها فاذا هى ترتدى ما ترتديه بنات باريس (١) !! ودعك من أن

---

(١) انظر العدد الصادر من جريدة أخبار اليوم فى ٢٩ من نوفمبر ١٩٦٩ .

تكون احداهن فتاة غلاف ، تنشر لها صورة عارية ، أشبه بصور السابحات الفاتنات ، وهي من بنات العلمــاء ؟ (١) انهم جميعـــا ، وأضرابهم ، نتاج هذا الانفصام بين الفكر الديني وقضايا العصر ، بحيث لم يأخذ هــذا الفكر شكل ثقافة حية تجمــع بين المعرفة والسلوك ، أى أن هناك عجزا شائنا فى الثقافة المستخدمة للاقناع، على حين استطاعت الثقافات الأخرى أن تجتازهم لمعسكرها ، لأنها صادفت فراغا فتمكنت ، بصرف النظر عن جدية الأشخاص أو هزليتهم وتفاهتهم ، واحد أسباب هذا الانفصام أيضـــا أن من يتولون سدانة الفكر الديني لم ينهضوا لمواجهة تحدى العصر ، ربما لأنهم فعلا غير فاهمين لرسالاتهم ، الا على انها استحضار لماض أثرى لا علاقة له بحاضر ، وربما لتوهمهم أنه لا تحدى أصلا ، بل كل شيء هاديء على الجبهة !! والدنيا بخير والحمــد لله !! .. فالمشكلة من هذه الوجهة أزمة فى الشــعور الذى يؤدى حين يكون سويا الى الأرق المنتج ، والقلق الخلاق ، فأما حين لا يكون هناك شعور فان الدين يتحول عند بعض رجاله الى باب سخى للوجاهة والارتزاق ، وعند بعضهم الى سلبية قاتلة ، وحســبنا الله ونعم الوكيل .

ولست انكر أن محاولات جادة قام بها بعض العلماء القلقين على مصير الانسان ، فى الشرق والغرب ، من أجل البرهنة على وجود الله على أساس علمى ، ولكن قضية الدين ليست هى قضية ( وجود الله ) فحسب لا مراء فى أن الايمان بوجود الله سبحانه أساس ومنبع ولكنه يستتبع الايمان بقيم أخرى ومباديء ، دعا اليها الرسل . وحثت عليها الاديان ، وأهمها ضرورة الايمان بوجود كائنــات غير الانسان ، دل عليها الدين وســماها ( الملائكة ) الملهمين الخــير ، وكائنات أخرى غير الانسان والملائكة دل عليها الدين ، وســماها الجن ، ومنهم ( الشياطين ) ــ النازغون بالشر ، وضرورة الايمان بالغيب ، وباليوم الآخر . وما يتصل به من جنة ونار ، وحساب ،

---

(١) اخبار اليوم ٢٥ من اكتوبر ١٩٦٩ .

وثواب وعقاب ، بل ما يسبق ذلك من قيامة ، هى فى حقيقتها دمار للدنيا ، وتحطم للكواكب والنجوم ، وضرورة التزام شريعة الله ، التى جاء بها الرسل ،وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، متى صح الايمان بوجود الله ، مالك الملك ، ومنـزل التشريع بالحلال والحـرام ، وفى كلمة واحـدة : ضرورة اقرار ما علم من الدين بالضرورة .

وهكذا نجدنا امام كل مترابط ، لا يمكن انفصام أجزائه ، الا على طريقة بنى اسرائيل ، الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

ولقد وجد فى المجتمع الاسلامى فعلا هذا الصنف من الناس ، الذين يحدثونك بأنهم مؤمنـون بالله ، وكفى ، ولا داعى لمطالبتهم بأكثر من هذا !! وهم يواجهون من يدعوهم الى الالتزام بأوامر الله ونواهيه : بأن الهدف من هذا هو تزكية النفس ، وعدم ايذاء العباد فاذا تحقق هذا الهدف بوسيلة أخرى كالثقافة مثـلا كان فى ذلك غنى عن الالتزام بالتكاليف ، لأن هذه هى روح الدين !!.. وغاب عنهم ، أو تجاهلوا ، ان العبادة فى حقيقتها ثمرة الايمـان بالله ، وتأكيد لعبودية الانسان له ، وان الله سبحانه قد اختار لعباده أن يخاطبوه ويقدسوه بكيفية معينة ، لا خيار لهم فيها ، بصرف النظر عن تحقيق مصلحة معينة لهم من العبادة أو عدم تحقيقها : ( وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون )(١) فمصلحة الانسان العليا فى أن يرضى خالقه بانفاذ أمره ، والتزام طاعته .

فهذا صنف من الناس يجتزىء من الدين بما لا يقتضيه تكلفه : ان يقول : آمنت بالله ــ فحسب ، وهو يستعمل مسألة تسليمه بوجود الله ــ جل وعلا ــ ذريعة الى التحلل والانعتاق من سـائر قضايا الدين ، والصدود عنها ، وهو امر ينبغى أن يلحظ على أنه من صميم أزمة الدين فى أنفس المثقفين المعاصرين ، لأن الثقافات الالحادية قد اتخذت لنفسها خطة لئيمة ، فحواها أن دعوة المسلم الى الكفر تلقى نفورا فى المجتمع الاسلامى ، ويكاد يكون من المحال

---

(١) الذاريات ٥٦ .

احراز تقدم فيه باعتناق هذه الدعوة ، ولذا ينبغى أن تكون الخطة ـ أولا ـ تجريد شخص المسلم من الالتزام بالتكاليف ، وتحطيم قيم الدين الأساسية فى نفسه ، بدعوى العلمية والتقـدم ، دون مساس بقضية الالهية مؤقتا ، لأنها ذات حساسية خاصة ، وبمرور الزمن ، ومع الف المسلم لهذا التجريد يسهل فى نهاية الأمر تحطيم فكرة الالهية أساسا فى عقله ووجدانه ـ واذا بقيت افتراضا ، فلا ضرر منها ، ولا خطر ، لأنها حينئذ لن تكون سوى بقايا دين ، كان موجودا ذات يوم بعيد .

وهكذا يحكم أعداء الاسلام مخططاتهم ، ويدبرون لتدمير الدين ومبادئه ، ابتداء من أبسط السنن والواجبات ، وانتهاء الى قضية القضايا : وجود الله ذاته .

فاذا افرد بعض العلماء مسألة وجود الخالق بالعلاج العلمى فقليل منهم ـ فيما أعلم ـ من تصدى لعلاج هذه القضايا جميعا ، وبخاصة هذا الكتاب . ( **الاسلام يتحدى** ) . واحسب انه من هذه الناحية سوف يصبح ـ متى بلغ عمق المجتمع ـ دستور الاقناع الدينى ، أو كما يعبر العنوان الفرعى الذى تخيرناه له : ( مدخلا علميا الى الايمان ) .

وقد كان المؤلف منطقيا مع عصره الى أبعد الحدود ، فاذا كان أقطاب الالحاد فى الفلسفة الحديثة قد وضعوا لضحاياهم مدخلا علميا الى الكفر ، فلا مناص من أن يحاول هو بحسه الصـادق ، ووعيه بحاجة المسلمين ـ وضع مدخل علمى الى الايمان ، يعتبر اساسا لعلم كلام ، أو علم توحيد جديد . وهذا هو الاعتبار الذى كان من وراء الحماس المخلص ، بذله مترجم الكتاب الأستاذ ظفر الاسلام خان نجل المؤلف ، واقتضانى أن أعكف شهورا تبلغ سنوات على مراجعته ، وتحقيق نصوصه الدينية .

ولذلك سوف نجده يعرض ( قضية معارضي الدين ) بكل حيدة وامانة ، حتى لا يتهم من أول لحظة بمخالفة المنهج العلمي ، ثم يبدأ في مناقشتها معتمدا في الأساس على الانتاج الفكري الغربي ، من باب ( وشهد شاهد من أهلها ) (١) ، مرجئا مسألة استخدام الآيات القرآنية أو الاحاديث النبوية في آراء الأعداء قبل الأصدقاء .

ولا يتبادرن الى ذهن القارىء أن المؤلف رجل دين متحمس ، يبشر بدعوة الاسلام بأسلوب جديد ، انه مفكر مصلح يعمل بالصحافة ، رئيسا لتحرير مجلة ( الجمعيت الأسبوعية ) وما عرضته هنا هو نتيجة تأمل واهتمام مؤرق بمشكلات الشباب المسلم ، حتى أصدر كتابه هذا عام ١٩٦٦ ، وما زال وفيا لقضيته ، مجاهدا في سبيلها .

ولئن كنا قد المحنا قبل بضعة أسطر الى بعض ملامح منهجه ، فان تنظيم هذا المنهج قد اقتضاه أن يضع قضاياه في ترتيب منطقي :

فهو قد وضع كتابه علاجا للمشكلات العقيدية التي تواجه البشر ، ولما كان المتوارد على مسرح الأحداث ، مبدأ الدين ، ومبدأ الالحاد ، وكان هو من معسكر الدين ـ وجب عليه أن يدلف الى هدفه من خلال دعاوى الخصوم ، حتى لا يتهم بتجاهلها ، فعرض فكرة معارضي الدين وبين اسسها البيولوجية والنفسية والتاريخية. ومعنى ذلك انه يعرض جوهر فلسفات ثلاثة : الداروينية ، والفرويدية ، ، والماركسية ، وهي المبادىء التي قادت في مجموعها قطعانا من البشر في وادي الالحاد ، وانكار وجود الله ، وتأليه المادة .

فاذا بدأ بمناقشة هذه المبادىء سلك نفس السبيل التي سلكتها . فاستقى أدلته من الطبيعة ، ومن البحوث النفسية ، والتاريخية .

---

(١) يوسف ٢٦ .

واذا كان أعظم قضايا الدين . بعد الايمان بالله ، الايمان باليوم الآخر ، حقيقة غيبية . لا مراء فيها ، وكانت أهم دعاوى الالحاد قائمة على انكار هذا اللقاء مع الخالق ــ فان اثبات امكان الاخرة ، بالأدلة الطبيعية ، والبيولوجية والتاريخية ــ هو أيضا من الادلة القاطعة بصحة الدين ، وبوجود الله ، ومن ثم نجده متألقا فى تبيان الحاجة الى الآخرة نفسها ، وأخلاقيا ، وسلوكيا ، حتى اذا استقر فى وعى القارىء ضرورة الآخرة كان ذلك طريقا الى اقرار ضرورة الايمان بالله من جانب آخر . فالآخرة اذن قضية وبرهان فى آن .

والمؤلف لا يكتفى فى هذا الباب بدليل واحد ، بل هو يقدم بحوثا قيمة فى ضرورة الآخرة من الناحية الكونية ، ويسوق شهادات تجريبية ، وبحوثا نفسية وروحية ، تؤكد هذه الضرورة ، كيما يزيد القارىء ثروة فى المفاهيم ، ويفسر له آفاق الاقتناع .

ويأتى بعد ذلك دور الرسالة ، وهى الدليل التاريخى على الحقيقتين السالفتين . لأن الرسل هم الذين دلوا عليهما ، قبل أن يخطو الانسان هذه الخطوات الجبارة فى ميدان العلم والتجربة .

ومن الضرورى ان نلفت النظر هنا الى أن المؤلف لا يعنى بكلمة ( الدين ) الا ما عناه الحق سبحانه بها فى قوله : ( ان الدين عند الله الاسلام )(١) ، فاذا تناولنا قضية الرسالة فمقصده قطعا رسالة الاسلام ، وكتابها المعجز : القرآن .

ويعقد فى هذا الباب عدة فصول يتحدث فيها عن اعجاز القرآن التاريخى ، والعلمى ، ويورد لمحات كثيرة عن تنبؤات القرآن ، وما تضمنته آياته من حقائق لم يكشف عنها الا فى العصر الحديث ، فى الفلك ، وطبقات الأرض وغيرهما .

---

(١) آل عمران ١٩ .

فاذا انتهى من اثبات هـذه الصفة العلوية للقرآن ، وأكد به الحقيقة الأولى ، وهى وجود الله ، عقد بابا خاصـا بعلاقة الدين بمشكلات الحضارة ، فتناول فى جانب منه مشـكلات التشريع ، وعناصره الأساسية ، وتحديد الدين لمفهوم الجريمـة ، وعلاقة القانون بالأخلاق ، وبالفرد ، وبالعدل .

ولا يفوته أن يتحدث عن بعض مشكلات الحضارة الحديثة ، كمشكلة المرأة ، والتمدن ، والملكية ، مقارنا فى كل ذلك نظام الاسلام بنظامى الحكم المعاصرين : الراسمالية والشيوعية .

ويأتى أخيرا حديثه عن مستقبل هذا العالم الاسلامى ، وما ينشده أبناؤه من أهداف سـامية ، وما ينبغى أن يكون لهم من رسـالة فى العالم الحائر ، بين مذاهب الالحاد الواهية المتهاوية ، ودين الفطرة الذى جعله الله ختـام الأديان ، وجعل نبيـه خاتم المرسلين ، مبينـا كيف أدى الالحاد فى المجتمعات الأوربيـة الى التحلل ، والتمزق الاسرى ، وتكون طبقات من المجرمين والشواذ ، وانتشار أعصى الأمراض النفسية والعصبية ، جزاء الحرمان من الايمان بالله ، خالقنا ومالكنا ، ويختار لختام كتابه كلمة قبسها عن الأستاذ أ. كريسى موريسون ، اذ قال :

ان الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الأخلاق ، والقيم والمشاعر السامية ، وكل ما يمكن اعتباره نفحات الهية — لا يمكن الحصول عليها من طريق الالحاد ، فالالحاد نوع من الأنانية حيث يجلس ( الانسان ) على كرسى ( الله ) .

« لسوف تقضى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين » .
« سوف يتحول النظام الى فوضى » .
« سوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتمسك » .
« سوف يتفشى الشر فى كل مكان » .
« انها لحاجة ملحة أن نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله » .

فهذا هو منهج الكتاب فى ايجاز شديد ، وهو منهج يشدنى الى ملاحظة هامة أحب ان أضعها بين يدى القارىء . ذلك أن خطوات هذاالمنهج ، بنفس الترتيب تكاد تكون طبق الأصل من كتاب اخرجته من قبل مترجما عن الفرنسية ، هو كتاب « الظاهرة القرآنية » ، للمفكر الجزائرى مالك بن نبى ، وهى ملاحظة غريبة فى المنهج ، لا تنصرف الى مادة الكتابين ، لأن المؤلفين مختلفان فى عقليتهما ، وثقافتهما ، وطريقة معالجتهما لهذه القضايا الدقيقة ، حتى انى أكاد أقطع بأن المحاولتين من حيث المصادر والمادة والأسلوب متباعدتان تماما ، احداهما عن الأخرى ، بعد ما بين الجزائر والهند ولم يحدث أن التقى الرجلان فى صعيد واحد ، فيما أعلم . وتفسير هذا التوافق ينحصر فى توارد الأفكار على مشكلة واحدة .

بيد أن ذلك لا يمنعنى من أن أقرر ان كلا الكتابين صادر عن نفس الاحساس بضرورة وضع منهج جديد للاقتناع الدينى ، وكلاهما توافرت فيه المنهجية الحديثة ، وموضوعهما مشترك كذلك ، والروح الكامنة فى مضمونها روح ثائرة ، مؤمنة .

وحسب الشباب المسلم من هذه الملاحظة دليلا على أن روح الاسلام طاقة لا يمكن أن تخمد ، وستظل تصنع المعجزات ، برغم التفوق المادى الذى حققته مجتمعات الملاحدة المعاصرين .

نعم .. ان هذا التوافق العجيب بين مفكرين من أكابر مفكرينا يكاد أن يكون من بدائع الروح الخالدة ، روح الاسلام ، وأقول : الخالدة ، لأن الروح طاقة ، والطاقة لا تفنى ، وذلك وعد الله : ( انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ) (١) .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .
وصلى الله على محمد خاتم النبيين .

ديسمبر ١٩٦٩

**عبد الصبور شاهين**

---

(١) الحجر ٩ .

# تمهيد

الموضوع الذى سندرسه فى الصفحات التالية ليس بجديد بالنسبة الى اللغة الأردية . ولكن المؤلف يشعر بأنه لا يزال ناقصا ، رغم الجهود الطيبة التى بذلها بعض الكتاب .

والعصر الحديث يسمى : « عصر الالحاد » ، لانكاره الدين .. وهذا الالحاد ليس محض ادعاء . بل يرى أصحاب نظريته أنها طريقة بحث ودراسة ، اهتدى اليها الانسان ، بعد التطور الحديث فى ميادين العلم المختلفة ، وهذه « الدراسة التطورية » لا تهدف الى اثبات نظرية ما أو انكارها ، وانما هى منهج خالص فى البحث ، أثبت لأصحابه أن الدين باطل ، ويمكن أن نفهم هذه الطريقة الجديدة فى ما قاله ت.ر. مايلز :

« ان الدراسة الجديدة هى تكنيك ومنهج ونمط معين لمواجهة الأسئلة ، وهى لا تستهدف وضع اجابات قطعية . وهو ــ من هذا الوجه ــ تغير هام طرأ على الفلسفة فى النصف الأخير من هذا القرن ، ولسوف يبقى هذا التغير مستمرا ، دون أمل فى توقفه على المدى البعيد »(١) .

ولابد لباحثينا اذا ما أرادوا البحث فى العلوم الحديثة ، دفاعا عن الدين ، الا يغيب عن أذهانهم هذا التفسير ، سواء اعتبرناه تفسيرا علميا محضا توصل اليه المفكرون المحدثون ، أو اعتبرناه مجرد ملجأ جميل ، ركنوا اليه ، حين اخفقوا فى البحث عن التفسير المادى للكون ، بعد انكار الدين .

وعلى سبيل المثال : أن الأعمال التى قام بها علماؤنا لاثبات النبوة ، تفترض مقدما أن العصر الحديث يدعى : أن محمدا صلى الله عليه وسلم « كان نبيا كاذبا » ، فيبدؤن فى جمع كميات كبيرة

(١) Religion & the Scientific Outlook, 1954, p. 13.

من المواد التى تثبت أن محمدا كان : ( نبيا صادقا ) ومغزى القول : (كان محمد نبيا كاذبا) هو أن هناك أنبياء آخرين صادقين ، على حين يشك الانسان الجديد فى المبدأ نفسه ، فهو لا يؤمن بالنبوة أصلا .
فأما « النبى الكاذب » False prophet فهو اعتراض قديم جاء به اليهود والنصارى ، الذين يؤمنون بأنبيائهم ، وينكرون نبى الاسلام وأما العقل الحديث ، فلا يبحث عما اذا كان محمد نبيا « صادقا أو كاذبا » ، وانما يبحث عن منبع كلامه النبوى ، وينتهى ، اعتمادا على المناهج المعروفة ، الى أن مصـدر هـذا الكلام الغريب هو « اللاشعور » .. وهو يرى أن التعبير عن كلام اللاشعور بالوحى والالهام يصلح أن يكون استعارة جميلة ، ولكنه يستحيل اعتباره واقعا حقيقيا .

ولذا فان مهمتنا لا تنتهى عند اثبات صدق نبوة رسول السلام بل علينا أن نضطلع بالبحث عن الوحى والالهام ، ونثبت أن الوحى ينزل على أناس معينين ، من بينهم نبى الاسلام .

كان هذا موقف من يتصدى لنقـد الفكر الحديث ، دون فهم موقفه من القضية . وهناك نوع آخر من علمائنا يدركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين . ولكنهم ، لشدة تأثرهم بالفكر الحديث ، يرون أن كل ما توصل اليه أئمة الغرب يعد من ( المسلمات العلمية ) ، ومن ثم تقتصر بطولتهم على اثبات أن هذه النظريات ، التى سلم بها علماء الغرب ، هى نفس ما ورد فى القرآن الكريم ، وكتب الأحاديث الأخرى . وهذه الطريقة فى التطبيق والتوفيق بين الاسلام وغيره ، هى نفس الطريقة التى تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة . واية نظرية تقدم على هذا النحو يمكنها أن تكون تابعة ، ولكنها لا يمكن أن تكون رائدة . ولو خيل الى أحدنا أنه يستطيع أن يغير مجال الفكر فى العالم بمثل هـذه المحاولات التوفيقية ، ليشرق على البشرية نور الحق ، فهو هائم ولا شك فى عالم خيالى ، لا يمت الى الحقائق بسبب ، فان تغيير

الأفكار والمعتقدات لا يأتى من طريق التلفيق ؛ بل عن طريق الثورة الفكرية .

وهذه الحالة تورطنا بصورة أكبر عندما تتعلق المسألة بجانب أساسى وهام من أفكار الدين ، فلا بأس بأن يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة « الشهاب الثاقب » التى وردت فى القرآن ، حين يجد كشفا فى علم الفلك الحديث ، ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة ، وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التى تثار حول الدين ، فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكلى فى هيكل الفلسفة الدينية نفسه .

وأوضح مثال فى هذا ، هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا « نظرية النشوء والارتقاء » ، لأن علماء الغرب أعلنوا اقتناعهم الكامل بصدقها ، بعد دراساتهم ومشاهداتهم .. واضطروا ، بناء على هذا ، الى تفسير جديد للاسلام فى ضوء النظرية الجديدة ، وحين احتاجوا الى لباس جديد ، قاموا بتفصيل ثوب الاسلام مرة أخرى ، ولكنه ثوب مشوه المعالم ، لا أثر فيه من روح الاسلام ، التى ضاعت مع الأجزاء المقطعة فى عملية التلفيق الجديدة .

ان نظرية النشوء والارتقاء تستهدف اقرار فكرة التطور بصفة مستمرة بحيث تبلغ الحياة أوجها عند النهاية . وبناء على هذا : لابد من أن تحدث الأحوال السيئة فى الماضى ، لا فى المستقبل ، ويروق لهذه النظرية حياة الخلود فى الجنة ، ولكنها لا تقبل الخلود فى نار الجحيم . ولذا أدعى العلماء المسلمون ، الذين قبلوا هذه النظرية ، ان الجحيم ليست مكانا للعذاب ، وانما هى مركز للتربية والتزكية ، فالحياة تواصل مسيرتها فى مواجهة الصعاب والمشكلات . والذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرتهم بسبب عوائق الذنوب ، سوف يمرون بأحوال الجحيم الصعبة ، حتى يواصلوا رحلتهم التطورية خلال الحياة القادمة . ومن هنا ترى هذه الطائفة ان قوانين الملكية — مثلا — فى الاسلام ، ليست الا « أحكاما مؤقتة » ، فان هذه القوانين لا تتفق ونظرية التطور الاجتماعى .

ويمكن فهم نوعية الأعمال التى قام بها بعض علمائنا من المثالين المذكورين ، فهى اعمال ناقصة ، رغم الجهود التى بذلت فى صوغها . ولا يدعى المؤلف أن محاولته تخلو من النقائص . ولكنه يقول : ان المحرك الحقيقى لمحاولته هو شعوره بأن عملا من هذا القبيل كان لابد أن يكون .

* * *

ان الطريقة التى يتبعها الكتاب للدفاع عن الدين ذات وجهين : فكرية وتجريبية ، وبعبارة أخرى : فلسفية وعملية ، ان صح التعبير . وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية ، وهى التجريبية أو العلمية . والسبب فى ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من الكتب التى وضعت على المنهج الأول ، على حين يوجد نقص شديد فى الكتب من المنهج الثانى .

واننى لأشعر بأن المضمار الفسيح الذى هيأته الدراسات العلمية الحديثة لاثبات الدين ، هو تصديق لماجاء فى القرآن ، فى سورة النمل : « وقل الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها » . وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الامكانات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة

* * *

وهذا الكتاب ليس دراسة موضوعية ، بل هو دراسة ذاتية ، بناء على التقسيم الجديد للكتب . وهذا الواقع ، كما يرى العقل الحديث ، هو ، من تلقاء نفسه ، صوت ضد الكتاب ! فكيف يمكن الاعتماد على دراسة ذاتية ، قدمها عقل يستهدف اتجاها معينا ؟ وجوابا على هذا الاعتراض ، الذى قد يثار ، انقل هنا عبارة للمستشرق النمسوى المسلم محمد اسد فى مقدمة أحد كتبه :

« ان هذا الكتاب لا يستهدف مسحا محايدا للمسائل بل هو عرض لقضية هى قضية الاسلام فى مواجهة الحضارة الغربية » (١)

وعلى الرغم من الأحكام التى قدمها علم النفس حول امكان أن يكون المرء محايدا فى أبحاثه ، أو لا — فاننى أسلم — نظريا — بأنه لابد لكل مؤلف أن يبذل قصارى جهده ، لكى يكون محايدا ، من أجل الوصول الى نتيجة ما ، وهذا هو ما يقصده كل كاتب أمين . لكن هذا الكاتب نفسه ، عندما يجلس الى مكتبه — فى الواقع — لا نجده باحثا عن الحقيقة أثناء كتابته ، بل يكون قد توصل الى أحكام محددة المعالم .

وهناك طريقة أخرى ، هى أن يسرد المؤلف قصة بحثه بجميع مراحلها ، غير أن اعتبار مثل هذا الكتاب محايدا لا يعدو أن يكون قناعا مزركشا تختبىء تحته أهداف المؤلف . فليس هناك من كاتب يبدأ دراسته عندما يبدأ الكتابة ، وانما هو يعرض نتائج بحثه فى كتابه . فالكتاب انما يكون ذاتيا أو موضوعيا ، بالنظر الى طريقة ترتيبه للموضوعات ، ولا علاقة لهذا الترتيب بحياد البحث أو موضوعيته .

لقد وردت كلمة « الدين » كثيرا فى هذا الكتاب ، وليس لأحد أن يغالط فى هذا الموضوع . فان الكتاب يدور حول موضوع عام ، ولذلك كان لاستعمال الكلمة العامة أهميته . أما ذهن المؤلف . فانه لا يقصد بالكلمة شيئا وهميا . وانما يعنى ( الدين ) المعتمد عند الله تعالى الآن ؛ وهو دين الاسلام . وأنا حين أطالب مواطنا هنديا بمراعاة القانون ، فليس معنى ذلك أنه تكفيه مراعاة قانون ما ، أو أى جزء من دستور الهند ، وانما عليه مراعاة ذلك القانون الذى يعتبر دستور البلاد الرسمى ، وهكذا ، فالمراد بالدين العملى اليوم

---

(١) Islam at the Crossroads, p. 6.

هو الاسلام ، مع أنه من الممكن اطلاقه على أى شىء عرف فى التاريخ بذلك الاسم ، ولكن الدين الذى يجلب رضا الله تبـارك وتعالى ، والذى يكفل لمعتنقيه نجاة الآخرة ، هو الاسلام لا غير .

لقد تعرضت لسؤال بعد محاضرة ، القيتها فى احدى الجامعات ذات مرة ، وكنت اشرت فى محاضرتى الى مقال لفرويد ، فوقف أستاذ فى علم النفس ، اثناء فترة الأسئلة . وقال : « انتم اشرتم الى مقال لفرويد ، تأييدا لنظرية دينية ، على حين يعارض (فرويد) معارضة كاملة تلك النظرية التى تمثلونها » .

ومن الممكن اثارة هذا السؤال ، حول هذا الكتاب ، على نطاق اوسع . . فهناك اقتباسات كثيرة وردت فيه ، ومن الجائز الا يوافق اصحابها على النتائج التى توصلت اليها . وعلى سـبيل المثال : الاقتباس الذى ورد فى آخر الباب الخامس « دليل الآخرة » . ولكن هذا الاعتراض غير ذى موضـوع ، لأن المؤلف لا يدعى أن هـذه الشخصيات تؤيد قضاياه . . وبكلمة أخرى ، لم يقل المؤلف . أن هذه القضية ، أو تلك ، صادقة لأن فلانا يصدقها أو يؤيدها . وعلى العكس من ذلك ، فان جميع هـذه الاقتباسـات قد استعملت توضيحا لدليل أو قضية ، فقد يعبر المؤلف عن قضية معينة بألفاظه تارة ، وقد يستعير الفاظ الآخرين حتى يتبين الموضـوع ، تارة أخرى .

والاتجاهات التى تمثلها هذه الاقتباسات ليست بآراء ذاتية لاصحابها ، وانما هي كشـوف علمية ، يمنحها الملحدون معـانى مختلفة ، أما نحن فقد جمعناها حين شعرنا أنها فى صالح الدين . وأما الاقتباسات التى تؤيد الدين صراحة ، فأكثرها لعلماء يدينون بالمسيحيـة ، ولا عجب ، فهم يشـاركوننا فى كثير من العقـائد السماوية .

وواضح من عنوان الكتاب ، انه يهدف الى اثبات احقية الدين امام الفكر المادى الجديد . وهذا الاثبات يتخذ لنفسه إسلوبين : اولهما . ان نستدل بأن الدين ليس ( ماديا ) ، بل فوق المادة ، وبناء على ذلك ليس للعلوم المادية أن تعترض طريق الدين . وقد اصبح هذا الاستدلال فى غاية القوة ، حيث أن العلماء قد اعترفوا فى هذا القرن : « بأن العلوم المادية لا تعطى الا علما جزئيا عن الحقائق » . ومغذاه انه ، بناء على اعتراف هذه العلوم نفسها ، هناك حقائق اخرى ، لاتستطيع العلوم المادية الوصول اليها ، ومنها حقائق الدين . ويعتبر كتاب « ج.و.ن. سوليفان » خير محاولة فى هذا الموضوع ، وسوف نستعرضه فى الباب السابع من هذا الكتاب .

واما الطريقة الأخرى لاثبات حقائق الدين ، فهى اتباع نفس الطرق العلمية التى يتبعها العلماء الملحدون لاثبات معتقداتهم ، وقد ركز المؤلف أهمية اكثر على هذا الجانب .. فهو يرى : انه لابد من اتباع نفس اساليب الاستدلال التى يستغلها الملحدون ، حتى يمكن اثبات أحقية الدين .

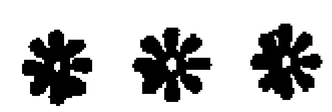
وهناك ناحية اخرى لابد من توضيحها هى أن الأسلوب الذى سلكه الكتاب قد يكون غريبا على بعض الأذهان ، من علماء الدين . واذا كان الأمر كذلك . فانى أقول : انه لابد من مراعاة حقيقة ، هى أن هذا الكتاب لا يستهدف تفسير الدين ، بل هو وليد ضرورة كلامية ، فالأسلوب الذى يسلك عند تفسير الدين أمام أصحاب الفطرة الدينية المؤمنة ، غير الأسلوب الذى يستخدم عندما يكون الحاضرون ممن يزعمون أن الدين خدعة واضحوكة وتخدير للشعوب ، فكلما أردنا مواجهة الأسئلة التى تثار ضد الدين ، كان لابد من تغيير لهجتنا ولغتنا ، بتلك التى يستغلها الأعداء ، حتى نستطيع ان نقف أمام العواصف ، وعلينا الا ننسى أن طريقة الكلام وأسلوبه قد تغيرا بتغير الزمن ، وذلك علينا ان نأتى بعلم كلام جديد لمواجهة تحدى العصر الحديث .

وقبل ان أختم هذا الحديث ارى لزاما على أن أعترف بجميل زميلين من الرفاق ــ مهديا اليهما هــذا الكتــاب ــ وهمــا من الشخصيات اللامعة التى عرفت بخدمة الاسلام فى الربع الأخير من هذا القرن .. وهما : مولانا ابو الأعلى المودودى ، ومولانا السيد ابو الحسن على الحسنى الندوى . فالفضل يرجع الى الأستاذ المودودى فى أنه كان المحرك الذى حثنى ــ بطريقة غير مباشرة ــ على أن أضحى بحياتى لخدمة الاسلام منذ خمسة عشر عاما ، فى أدق مرحلة من مراحل حياتى .. وأما الأستاذ الندوى فهو الذى حملنى على القيام بهذا العمل .. فجزاهما الله خير جزاء .

**وحيد الدين خان**

**لكناؤ ــ الهند**

**فى ٢٦ اغسطس ١٩٦٤**



# الباب الأول

## قضية معارضى الدين

« تعتبـــر التطورات العلميـــة التى حدثت فى القرن المـــاضى « انفجارا معرفيا » Knowledge Explosion فى وجه جميع الأساطير الانسانية عن الآلهة والدين كما تفجرت الأفكار القديمة عن المادة ونسفت بمجرد تفجير الذرة » .. هذه هى قضيـة العلم الحديث الموجهة الى الدين كما يقول البروفيســـور جوليان هكسلى (١) . وتعتبر الصفحات التالية ردا على هذا التحدى ، فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين ، ولم تنجح من أية ناحية فى الاساءة اليه . بل أن جميع ما وصل أو سيصـــل اليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما أسماه الاسلام : « بالحقيقة الأخيرة » قبل أربعة عشر قرنا من الزمان :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفســـهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٢) .

* * *

والدين ، كما يزعم الملحدون من العلماء : شىء لا حقيقة له ، وهو مظهر للغريزة الانسانية الباحثة عن حقـــائق الكون ، والتى تحاول تفسيره . ان هذه الغريزة الانسانية فى ذاتها شىء مستحسن، ولكن المعلومات والوسائل المحدودة قد انتهت بأجدادنا الى اجابات غير صحيحة، وهى التى تحتويها الآن أفكارهم عن الاله والدين . أما اليوم ، وبعد ما توفرت لدينا الوسائل العلمية . وأصلحت المعلومات

---

(١) Hindustan Times, Sunday Magazine, Sept. 24, 1961

(٢) فصلت ٥٣

الحديثة شيئا كثيرا من معتقداتنا الاجتماعية والحضارية ، فقد حان الوقت لنعيد النظر فى جميع ما وصل اليه أجدادنا من افكار .

* * *

ويذهب الفيلسوف الفرنسى « أوجست كونت » ــ الذى نشأ فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ــ الى ان تاريخ تطور الفكر الانسانى ينقسم الى ثلاث مراحل :

الأولى : المرحلة اللاهوتية ( Theological Stage ) وهى التى فسرت الأحداث فيها باسم الاله .

والثانية : المرحلة الميتافيزيقية : وفيها فسر الانسان الأحداث باسم « عناصر خارجية » لا يعلمها ، ولكنهلا يذكر اسم الاله .

والثالثة : المرحلة الوضعية (Positive Stage) التى أخذ الانسان يفسر فيها الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة ، يمكن ادراكها بالمطالعة ، أو بالمشاهدة العلمية . وفى هــذه المرحلة لا تذكر « الأرواح والالهة والقوى المطلقة » . ونحن ، بناء على هذا ، نعيش فى المرحلة الثالثة التى تسمى فى الفلسفة الحديثة بالوضعية المنطقية (Logical Positivism) . ان نظرية « الوضــعية المنطقيــة » أو التجريبية العلمية (Scientific Empiricism) لم تعرف كحركة علمية الا خلال العقد الرابع من القرن الحاضر ، ولكنها ، كفكرة ، نشأت قبل ذلك بسنين طويلة ، وعلى ظهر هذه الفكرة نجد أسماء كبار العلماء والفلاسفة من امثال : هيوم ، وميل ، الى برتراندرسل ، وقد اصبحت هذه الفكرة اليوم ، بفضل العدد الكبير من المؤسسات العلمية التى تقوم بدور فعال فى الدعاية لهــا ، من أهم الحركات العلمية الحديثة . ويقول أحد الباحثين :

« كل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب ، بحيث يمكن فحصها أو اثباتها ، بصورة مباشرة أوغير مباشرة » (١) .

وبناء على هذا يدعى معارضو الدين أن التطور الذى بلغ به الانسان اليوم أعلى مستوى من الانسانية ، وهو نفى للدين من تلقاء نفسه .. والسر فى ذلك أن الافكار المتطورة الحديثة تؤكد أن « الحقيقة » ليست الا ما يمكن فحصه وتجربته علميا . وقد قام الدين على « حقيقة » لا سبيل الى مشاهدتها وفحصها علميا . وبعبارة اخرى : ان التفسير اللاهوتى للاحداث والوقائع لا يمكن اثباته بالوسائل العلمية ، فهو باطل لا حقيقة له . ويترتب على هذا القول بأن : « الدين تفسير زائف لوقائع حقيقية » ، ذلك أن علم الانسان القديم المحدود لم يقدم التفسير الحقيقى للاحداث ، على حين أن القانون العام للتطور أتاح لنا أن نبحث عن الحقائق بالوسائل التجريبية الصحيحة .

ويمكن ان نقول هذا الكلام بأسلوب آخر : أن موقف علماء الأديان القديمة أشبه برجل يكتب « شيكا لا رصيد له فى المصرف » فهم قد صاغوا عبارات ليس وراءها حقائق علمية ، فعبارة (الحقيقة العليا غير المتغيرة ) صحيحة نحوا ، ولكن ليس لها أى أساس علمى (٢) .

« لقد اثبت ( نيوتن ) أنه لا وجود لاله يحكم النجوم . واكد ( لابلاس ) بفكرته الشهيرة أن النظام الفلكى لا يحتاج الى أى اسطورة لاهدتية . وقام بهذا الدور العالمان العظيمان ( دارون ) و (باستور) فى ميدان البيولوجيا . وقد ذهب كل من علم النفس المتطور والمعلومات التاريخية الثمينة التى حصلناها فى هذا القرن

---

(١) Dictionary of Philosophy, N.Y., p. 285.

(٢) Religion and the Scientific Outlook, p. 20.

بمكان الاله ،الذى كان مفروضا أنه هو مدير شئون الحياة الانسانية والتاريخ » (١) .

لقد قامت قضية معارضى الدين على اسس ثلاثة :

**الأساس الأول :** بطل هذا الانقلاب فى البيولوجيا هو ( نيوتن ) الذى عرض على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة ، تتحرك فى نطاقها الاجرام السماوية ، ثم جاء بعده آخرون فاعطوا هذه الفكرة مجالا علميا أوسع ، حتى قيل : أن كل ما يحدث فى الكون من الأرض الى السماء خاضع لقانون معلوم ، سموه « قانون الطبيعة » . فلم يبق للعلماء ما يقولون ، بعد هذا الكشف ، غير أن الاله كان هو المحرك الاول لهذا الكون . وضرب ( والتير ) مثلا فى هذا الصدد : أن الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتها الدقيقة فى هيئة خاصة ويحركها ، ثم تنقطع صلته بها . ثم جاء ( هيوم ) فتخلص من هذا الاله الميت ، وعلى حد قوله : « لقد رأينا الساعات وهى تصنع فى المصانع ، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع ، فكيف نسلم بأن له صانعا » ؟

لقد جلى التطور العلمى للانسان كثيرا من سلسلة الأحداث التى لم يشاهدها من قبل . فهو لم يكن على علم باسباب شروق الشمس وغروبها ، حتى زعم أن هناك قوة فوق الطبيعة تجعلها تشرق وتغرب . وها قد عرفنا اليوم أن شروق الشمس وغروبها يحدث لدوران الأرض حول نفسها ، وبذلك انتهت ضرورة القول بهذه الطاقة تلقائيا ، بعدما عرفنا الأسباب المؤدية الى هذه الحركة الكونية : « فاذا كان قوس قزح مظهرا لانكسار اشعة الشمس على المطر ، فماذا يدعونا الى القول بأنها آية الله فى السماء » .

من أجل هذا كله ، وغيره ، قال هكسلى :

---

(١) Religion Without Revelation, N.Y., 1958, p. 58.

« اذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعيـــة فلا ينبغى أن ننسبها الى أسباب فوق الطبيعة » (١) .

**والأساس الثانى** : وقد ازداد العلماء يقينا بعد البحوث العلمية فى ميـــدان علم النفس ، حين توصـــلوا الى نتـــائج تثبت أن الدين نتاج اللاشعور الانسانى ، وليس انكشافا لواقع خارجى . ويقول عالم كبير من علماء النفس :

«God is nothing but a projection of man on a cosmic screen»

« ليس الاله سوى انعكاس للشخصية الانسانية على شاشة الكون » . وما عقيدة الدنيا والآخرة الا صورة مثاليـــة للامانى الانسانية ، وما الوحى والالهام الا اظهار غير عادى لأساطير الأطفال المكبوتة .

(Childhood Repression) (٢) .

* * *

ويرى علم النفس الحديث أن العقل الانسانى مركب من شيئين هما : ( الشعور ) ، وهو مركز الأفكار التى تخطر على قلوبنـــا فى ظروف عادية ، و ( اللاشعور ) وهو مخزن الأفكار التى مرت بنا ونسيناها ، ولا تظهر الا فى أحوال غير عادية ،كالجنون والهستريا . وهذا القسم الثانى اكبر بكثير من الأول . ويمكن ان نمثل لهما بجبل من الجليد ، فلو قسمناه تسعة أجزاء لكان منها ثمانية فى جوف البحر ، ولظهر جزء واحد على السطح .

اكتشف فرويد بعد جهد طويل أن اللاشعور قد يقبل افكارا فى الطفولة ، وتؤدى الى اعمال غير عقلية ، وهذا ما يحدث بالنسبة

(١) Religion Without Revelation, N.Y., 1958. p. 58.

(٢) Iqbal Review, April 1962.

الى العقائد الدينية : فان فكرة الجحيم والجنة ترجع الى صدى الأماني التي تنشأ لدى الانسان ابان طفولته ، ولكن لم تسنح له الفرصة لتحقيقها ، فتبقى دفينة فى اللاشعور ، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياة أخرى يتيسر له فيها تحصيل ما كان يتمناه . شأن الرجل الذى قد لا يظفر بما يحب فى الواقع فيحصله فى المنام . وهكذا خرجت عقدة التفرقة بين الصغيروالكبير (Father complex) من الجرائم الاجتماعية ، فصاغوا منها نظرية على مستوى الكون والسماء .

ويقول رالف لنتون :

« ان عقيدة القادر المطلق الظالم فى نهاية الأمر ، الذى لا يرضى الا بالطاعة الكاملة والو فاء ، كانت أول ما انتجه نظام المجتمع السامى لقد خلق هذا النظام جبروتا غير عادى . وكانت لنتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم ضخمة مفصلة عن المحرمات فى كل مجال من الحياة الانسانية . وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين كانوا يتقبلون أحكام آبائهم العمياء ويطيعونها . وما التصور الالهى ( اليهودى ) الا خيال مثالى لأب سامى . مع شىء من المبالغة والتجريد فى الأوصاف والطاقات » (١) .

**والأساس الثالث** : لقضية معارضى الدين هو . ( التاريخ ) يقولون . ان القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية احاطت بالانسان ، فلم يكن فى استطاعته أن يفلت من السهول والأعاصير والطوفانات والزلازل والأمراض ، فاوجد ( قوى فرضية ) يستغيثها ، لتنقذه من البلايا النازلة ، وهكذا ظهرت الحاجة الى شىء يجتمع الناس حوله ، ولا يتفرقون ، فاستغل اسم ( الاله ) الذى تفوق قوته قوة الانسان ، ويهرع الجميع الى رضاه ) .

---

(١) Tree of Culture, Ralph Linton.

يقول محرر دائرة معارف العلوم الاجتماعية تحت اسم « الدين » .

« وبجانب المؤثرات الأخرى التى ساعدت فى خلق الدين . فان اسهام الأحوال السياسية والمدنية عظيم جدا فى هذا المجال . ان الأسماء الالهية وصفاتها خرجت من الأحوال التى كانت تسود على ظهر الأرض . فعقيدة كون الاله « الملك الأكبر » صورة أخرى للملكية الانسانية ، كذلك الملكية السماوية صورة طبق الأصل للملكية الأرضية . وكان الملك الأرضى القاضى الأكبر ، فأصبح الاله يحمل هذه الصفات ، ولقب « بالقاضى الأكبر الأخير » الذى يجازى الانسان على الخير والشر من أعماله . وهذه العقيدة القضائية التى تؤمن بكون الاله محاسبا ومجازيا لا توجد فى اليهودية فحسب ، وانما لها مقامها الأساسى فى العقائد الدينية ، المسيحية والاسلامية » (١) .

« لقد خلق العقل الانسانى الدين ، واتم خلقه ، فى حالة جهل الانسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية » . ويضيف جوليان هكسلى الى هذا قوله :

« فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الانسان وبيئته » (٢) . ويقول أيضا :

« ان هذه البيئة قد فات أوانها أو كاد ، وقد كانت هى المسئولة عن هذا التعامل ، فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعى للدين » ، ويضيف : « لقد انتهت العقيدة الالهية الى آخر نقطة تفيدنا ، وهى لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات ، لقد

---

(١) Encylopaedia of Social Sciences, 1957, Vol. 13, p. 233.

(٢) Man in the Modern World, p. 130.

اخترع الانسان قوة ما وراء الطبيعــة لتحمل عبء الدين ، جــاء بالسحر ، ثم بالعمليــات الروحية ، ثم العقيدة الالهيــة ، حتى اخترع فكرة ( الاله الواحد ) . وقد وصل الدين بهذه التطورات الى آخر مراحل حياته . ولا شك أن هذه العقائد كانت فى وقت ما جزءا مفيدا من حضارتنا ، بيد ان هذه الأجراء قد فقدت اليوم ضرورتها ، ومدى افادتها للمجتمع المحاضر المتطور » (١)

* * *

وترى الفلسفة الشيوعية أن الدين ( خدعة تاريخية ) ، وهى تركز الأسباب فى عوامل اقتصادية ، لأنها تنظر الى التاريخ فى ضوء الاقتصاد ، وهى ترى أن العوامل التاريخية التى خلقت الدين هى النظام البورجوازى الاستعمارى القديم . وهذا النظام القديم يلقى اليوم حتفه . فلندع الدين أيضا يذهب معه .

يقول فيلسوف الشيوعية انجلز :

« ان كل القيم الاخلاقية هى فى تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية » (٢) .

فالتاريخ الانسانى هو تاريخ حروب الطبقات التى امتص فيها البورجوازيون دماء الفقراء ، وقد كانت الغاية من وضــع الدين والأسس الاخلاقية حماية حقوق البورجوازيين .

ويقول البيان الشيوعى : (Communist Manifesto)

« ان الدستور والأخلاق والدين كلها خــدعة البورجوازية ، وهى تتســتر وراءها من أجل مطامعها » .

ويقول لينين فى خطاب له القاه فى المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعى فى اكتوبر سنة ١٩٢٠ :

(١) Ibid. p. 131.

(٢) Anti Duhring Moscow, 1954, p. 131.

« اننـــا لا نؤمن بالاله ، ونحن نعرف كل المعـــرفة أن أرباب الكنيســـة والاقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الاله الا استغلالا ، ومحافظة على مصالحهم . اننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الاخلاقية التى صدرت عن طاقات وراء الطبيعـــة ، غير الانسان ، والتى لا تتفق مع افكارنا الطبقية ، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال ، لصـــالح الاســـتعمار والاقطاع ، ونعلن أن نظامنا لا يتبع الا ثمرة النضـــال البروليتارى ، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية » (١) .

كانت هذه هى قضية معارضى الدين ، التى يزعم بعض العلماء الجدد بناء عليها ما يمكن تلخيصه ، فى كلمة أستاذ أمريكى فى طب الأعضاء :

« Science has shown religion to be history's crueliest and wickdiest hoax »

« لقـــد اثبت العلم ان الـــدين كان اقسى واســـوأ خدعة فى التاريخ » (٢) .

ولسوف ننظر فى مدى صحة هذه القضية على أسس علمية فى الباب الآتى ، ان شاء الله .

---

(١) Lenin, Selected Works, Moscow 1947, Vol. II, p. 667.

(٢) Quoted by C.A. Coulson, Science & Christian belief, p. 4.

# الباب الثانى

## نقــد قضــية المعارضين

عرضنا فى الباب الأول قضية المعارضين ، الذين يزعمون أنه لا داعى لأن يبقى الدين فى عصرنا الحاضر . والحقيقــة أن هــذه القضية لا تقوم على أساس ، ولسوف نتناول فى الأبواب الآتيــة ، أفكار الدين الأساسية ، واحدة واحدة ، لننظر فى مدى حقيتها ، كما كانت قبل العصر الحديث .

واليكم نقدا عاما لقضية المعارضين :

### اولا ــ حقيقة الطبيعة :

لنتكلم أولا فى الدليل الذى يعرض باسم البيولوجيا ، وهو ان الحوادث تحدث طبقا ( لقانون الطبيعة ) فلا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث الها مجهولا . أن أحسن ما قيل فى هذا الصدد ما قاله عالم مسيحى : « Nature is A Fact, Not An Explanation ».

« ان الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيرا (له)» . لأن ما كشفتم ليس بيانا لأسباب وجود الدين ، فالدين يبين لنا الأســباب والدوافع الحقيقيــة التى تدور « وراء الكون » ومــا كشفتموه هو الهيكل الظاهر للكون . ان العلم الحديث تفصيل لما يحدث ، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع ، فكل مضمون العلم هو اجابة عن السؤال : « ما هذا ؟ » ، وليس لديه اجابة عن السؤال : « ولكن لماذا ؟ » . وان التفسير الذى نحن بصدده هنا يتعلق بالأمر الثانى .

لنفهم هذا من مثال بسيط . فالكتكوت يعيش أيامه الأولى ، داخل قشرة البيضة القوية ، يخرج منها بعد ما تتكسر مضغة لحم ،

كان الانسان القديم يؤمن بأن الله اخرجه ، ولكنا شاهدنا اليوم بالمنظار انه فى اليوم الحادى والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت ، يستعمله فى تكسير البيضة ، لينطلق خارجا منها ، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة .

هذه المشاهدة ، كما يزعم المعارضون ، أبطلت الفكرة القديمة القائلة : بأن الاله يخرج الكتكوت من البيضة ، اذ قد رأينا يقينا أن قانونا لواحد وعشرين يوما يحدث هذه العملية . والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا الا على حلقات جديدة للحادث ، ولاتكشف عن سببه الحقيقى ، فقد تغير الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن تكسير البيضة ، بل عن ( القرن ) ؟ ان السبب الحقيقى سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التى جاءت بهذا القرن ، العلة التى كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج الى هذا القرن ليخرج من البيضة ، فنحن لا نستطيع ان نعتبر الوضع الأخير ( وهو مشاهدتنا بالمنظار ) الا أنه « مشاهدة للواقع على نطاق أوسع » ، ولكنه ليس تفسيرا له .

يقول البروفسور ( سيسل بايس هامان ) ، وهو أستاذ أمريكى فى البيولوجيا .

« كانت العملية المدهشة فى صيرورة الغذاء جزءا من البدن تنسب من قبل الى الاله ، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيماويا ، هل أبطل هذا وجود الاله ؟ فما القوة التى أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيدا .. ؟ ان الغذاء بعد دخوله فى الجسم الانسانى يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتى ، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض . فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات ان نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التى خلق بها الحياة » (١) .

---

The Evidence of God in an Expounding Universe, p. 221.

كان الانسان القديم يعرف أن السماء تمطر ، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء فى البحر ، حتى نزول قطرات الماء على الأرض ، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع ، وليست فى ذاتها تفسيرا لها، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين ؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية ؟ والحقيقة أن ادعاء الانسان بعد كشفه لنظام الطبيعة انه قد كشف تفسير الكون ـ ليس سوى خدعة لنفسه ، فانه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة .

ويضيف العالم الأمريكى سيسيل قائلا :

«Nature does not explain, she is herself in need of explanation.»

« ان الطبيعة لا تفسر شيئا ( من الكون ) ، وانما هى نفسها بحاجة الى تفسير » .

فلو انك سألت طبيبا : ما السبب وراء احمرار الدم ؟

لأجاب : لأن فى الدم خلايا حمراء ، حجم كل خلية منها ١\٧٠٠ من البوصة !

ـ حسنا ، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء ؟

ـ فى هذه الخلايا مادة تسمى ( الهميوجلوبين ) وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأوكسجين فى القلب .

ـ هذا جميل . ولكن من أين تأتى هذه الخلايا التى تحمل الهميوجلوبين ؟

ـ انها تصنع فى كبدك .

ـ عجيب ! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم

والخلايا والكبد وغيرها ، بعضها ببعض ارتباطا كليا وتسير نحو اداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة ؟

ــ هذا ما نسميه بقانون الطبيعة .

ــ ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا ، ياسيدي الطبيب ؟

ــ المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية .

ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائما الى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظم نشاطها ، حتى تطير الطيور فى الهواء ، ويعيش السمك فى الماء ، ويوجد انسان فى الدنيا ، بجميع ما لديه من الامكانات والكفاءات العجيبة المثيرة ؟

ــ لا تسألنى عن هذا ، فان علمى لا يتكلم الا عن : ( ما يحدث) وليس له أن يجيب : ( لماذا يحدث ؟ )

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون . ولا شك انه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء التي لم نكن على معرفة بها ، ولكن الدين جواب لسؤال آخر ، لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلمية ، فلو أن هذه الكشوف زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الانسانية بحاجة الى الدين ، أن جميع هذه الكشوف « حلقات ثمينة من السلسلة » ، ولكن ما يحل محل الدين لابد ان يشرح الكون شرحا كليا وكاملا . فما الكون على حاله هذا الا كمثل ماكينة تدور تحت غطائها لا نعلم عنها الا انها ( تدور ) ، ولكنا لو فتحنا غطائها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدواتر وتروس كثيرة ، يدور بعضها ببعض ، ونشاهد حركاتها كلها . هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها ؟ هل يفهم منطقيا إن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها ، وتقوم بدورها ذاتيا ؟ لو لم يكن هذا الاستدلال

منطقيا فكيف اذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون ــ أنه جاء تلقائيا ، ويتحرك ذاتيا ؟ . .

لقد استغل البورفسيور هرير (A. Harris) هذا الاستدلال حين نقد فكرة داروين عن النشوء والارتقاء ، فقال :

« ان الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسر عملية ( بقاء الأصلح ) ، ولكنه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الأصلح (١) :

**ثانيا : اللاشعور ودليل علم النفس :**

لنعالج الآن الدليل الذى يقدمه علم النفس والقائل بأن الاله والآخرة قياس الشخصية الانسانية وامانيها على مستوى الكون : ولست بمستطيع أن ادرك نقطة الاستدلال فى هذا الدليل . ولو أننى ادعيت ــ بدورى ــ أن الشخصية الانسانية وامانيها موجودة فعلا على مستوى الكون فلست أدرى ما عسى ان يبطل ادعائى هذا من منطق المعارضين ؟!

نحن نعرف أن مادة ( الجنين ) التى لا تشاهد الا بالمنظار تنبىء فى ذاتها عن انسان طوله ٧٢ بوصة ، وان ( الذرة ) التى لا تقبل المشاهدة تحتوى نظاما رياضيا كونيا يدور عليه النظام الشمسى ، فلا عجب اذن أن يكون النظام الذى نشاهده على مستوى الانسان فى الجنين ، وعلى مستوى النظام الشمسى فى الذرة موجودا أيضا ، وبصورة اكمل على مستوى الكون . أن ضمير الانسان وفطرته ينشدان عالما متطورا كاملا ، فلو كان هذا الأمل صدى لعالم حقيقى فلست ارى فى ذلك اى ضرب من ضروب الاستحالة !!

( أ ) لا شك فى قول العلماء : ان الذهن الانسانى يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد فى صورة غير عادية . ولكن سوف يكون قياسا مع الفارق ان نعتمد على هذه الفكرة كى نبطل الدين . فهو قياس

(١) Revolt against Reason, A. Lunn, p. 133.

فى غير محله ، وهو يعتبر استدلالا غير عادى من واقع عادى . فهو أشبه بمن يشاهد مثالا يصنع صنما فيصرخ : هذا هو الذى قام بعملية خلق الانسان .

ومن معايب الفكر الحديث أنه يستنبط من حادث عادى دليلا غير عادى ، فهذا الدليل لا وزن له من الناحية المنطقيـة ، ولو افترضنا أن رجلا يسير فى شارع أخذ يهذى بكلام غريب نتيجـة لأفكار مختزنة فى ذهنه ، فهل يمكن أن نستغل هـذا الحادث فى البحث فى كلام الأنبياء ، وهو الكلام الذى يكشف سر هذا الكون . . ؟ سوف يكون هذا الاستدلال غير علمى ، وغير منطقى ولسوف يدل على أن صاحبه يفتقر الى القيم حتى يسـتطيع التفرقة بين كلام رجل الشارع وكلام الأنبياء ، فلا يدعى أن هذا الهذيان هو المسئول عما جاء به الدين .

فالقيم تتغير ذاتيا بتغير الأوضاع ، ومن الخطأ الظن بأنها لا توجد الا عند أصحاب الفكر الحديث .

ولنتخيل أن رهطا من سكان بعض النجوم هبط الأرض ، وهم يسمعون ، ولكنهم لا يقدرون على الكلام ، ولنتصور أنهم يذهبون فيبحثون عن الأسباب المؤدية الى تكلم الانسـان ، وبينما هم فى طريقهم الى هذا البحث هبت الرياح ، واحتك غصنان ، أحدهما مع الآخر ، فنتج صوت ، وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح ، واذا بهم يعلن كبيرهم : لقد عرفنا سر كلام الانسان ، وهو أن فمه يحتوى على فكين من الأسنان ، فاذا احتـك الفك الأعلى بالأسفل صوت ! ولا شك أنه اذا احتك شىء بالآخر يحدث صوتا ، ولكن هذا الواقع لا يكشف عن سر الكلام الانسانى ، كما لا يصح تفسير أسرار النبوة بكلام غريب ــ كهذيان رجل الشارع ، فى حال الجنون أو الهستريا .

( ب ) واللاشعور الانسانى ــ من الوجهة العلمية ــ فراغ فى

اصله ، لا شيء فيه قبل مولد الانسان ، وانما يستقر فيه عن طريق الشعور ما يشغله الآن ، لأن ( اللاشعور ) ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التى شاهدها الانسان فى حياته ، ولو مرة، ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعلمها من قبل ، والذى يثير الدهشة أن الدين الذى جاء على لسان الانبياء يشتمل على حقائق ابدية لم تخطر على بال أحد من النـاس فى اى زمان ، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات ، فمن أين يأتى بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم الى العلم بهـا ؟

ان الدين الذى جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة ــ الطبيعية ، والفلك ، وعلم الحياة ، وعلم الانسان وعلم النفس والتاريخ والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرهما من العلوم ، وكل حديث فى التاريخ الانسانى مصدره ( الشعور ) ، فضلا عن اللاشعور ، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة . أما الكلام النبوى فانه برىء ولا شك من كل هذه العيوب ، رغم اتصاله بجميع العلوم ، ولقد مرت قرون اثر قرون ، أبطل فيهـا الآخرون ما ادعاه الأولون ، وما زال صدق كلام النبوة باقيـا على الزمان ، ولم يستطع أحد ان يدل على باطل جـاء به ، وكل من حاول ذلك أخفق .

واليكم مثالا من هذا القبيل اعتمد عليه فلكى كبير ، حتى ادعى انه كشف غلطة علمية فى القرآن الكريم .

يقول ( جيمز هنرى بريستد ) :

« لقد راج التقويم القمرى فى الدنيا لكثرة تداوله فى غرب آسيا ولغلبة الاسلام سياسيا بوجه خاص ولقد مضى محمد ( صلى الله عليه وسلم ) بالاختلاف بين التقويم القمرى والشمسى الى أقصى حد من العبث يمكن تصـوره ، حتى انه أبطل اضافة الشـهور الكبيسة (Intercalary months) ان السنة القمرية المزعومة تشتمل

على ٣٥٤ يوما ، وتقل أحد عشر يوما عن السنة الشمسية . وهكذا تزيد السنة القمرية سنة واحدة كل ٣٣ سنة ، وثلاث سنين فى كل قرن فلو حل رمضان فى يونيو فى هذه السنة فسوف يحل بعد ست سنين فى ابريل » .

لقد مضى ١٣١٣ عاما منذ الهجرة(١) ، حيث ان قرننا (الميلادى) هو بمثابة مائة سنة وثلاث سنين فى تقويم المسلمين ، وقد سجل تقويمهم واحدا واربعين عاما زائدا فى هذه المدة من قرننا . وقد الغت كنيسة اليهود الشرقية هذه السخافة واختارت طريقة اضافة الشهور (Intercalation) لتجعل تقويمها مثل التقويم الشمسى وهذا هو السبب فى أن غرب آسيا يعانى حتى الآن لعنة هذه الطريقة القديمة ـ التقويم القمرى (٢) » .

لسنا هنا بصدد مناقشة الفرق بين التقويم القمرى والشمسى، ولكن لابد من توضيح أن ما نسبه المؤلف الى رسول الاسلام هو فى الحقيقة غفلة شديدة ترجع الى المؤلف نفسه ، ولم يمنع القرآن الكريم اضافة ( الشهور الكبيسة ) ، وانما حرم النسىء ( التوبة : ٣٨ ) ، ومعناه فى اللغة : ( التأخير ) ، ومنه ( نسأ الدابة ) عن الحوض لكى تشرب الأخرى . ومعناه فى الاصطلاح : ( تأخير شهر وتقديم شهر آخر عليه ) .

لقد كان من بين العادات الكريمة التى دعا اليها ابراهيم عليه السلام العرب تحريم أربعة أشهر لا قتال فيها ولا جدال ، وهى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وقد كان العرب يسافرون فى هذه الأشهر بكل حرية ، لكى يؤدوا فريضة الحج والعمرة ، وحين دب الفساد فى بعض القبائل ، اخترعوا بدعة

---

(١) كان ذلك فى عام ١٩٣٥ م .

(٢) Time and its Mysteries, N.Y., 1962, p. 56.

( النسيء ) ، وهى ان يضعوا شهرا غير حرام محل الشهر الحرام ، كان يجعلوا صفر فى مكان المحرم ، وذلك لكى يحاربوا قبيلة يلزم قتالها فى الشهر الحرام . وهذه هى البدعة المقيتة التى وصفها القرآن الكريم بأنها : ( زيادة فى الكفر ) .

وقال العلماء : ان الشهور الكبيسة كانت رائجة فى العرب وكانوا يضيفون عدد الشهور فى السنة للتقويم .

وقال مفسر للقرآن الكريم فى هذا الموضوع ، وهو مولانا شبير أحمد العثمانى فى تفسيره :

« ان بعض القبائل تضيف الشهور الكبيسة كل ثلاثة أعوام ليستقيم التقويم القمرى ، ولا يدخل هذا العمل فى النسيء ) .

ان ما قاله رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم فى عهد الظلام لم يكن من الجهالة ، ولا يدخل قطعا فى نطاق ما أورده ( جيمز هنرى بريستد ) طعنا عليه ، ولو كان كلامه صلى الله عليه وسلم صادرا عن الشعور أو اللاشعور لوقعت فيه أخطاء ، ما من ذلك بد .

### ثالثا : الاستدلال بالتاريخ والاجتماع :

ان الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع خطؤهم الأساسى أنهم لا يدرسون الدين من وجه صحيح ، ولهذا يبدو لهم الدين شيئا غريبا ، ومثال ذلك ان ترى شيئا مربعا من زاوية منحرفة فيتراءى لك مثلثا . ان الخطأ الذى يقعون فيه هو أنهم يتناولون الدين على أنه « مشكلة موضوعية objective problem فهم يجمعون فى سلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم ( الدين ) ، من رطب ويابس ، فى أى مرحلة من التاريخ ، ثم يتأملون فى ضوء هذا المحصول حقيقة الدين! ان موقفهم ينحرف من أولى مراحله ، فيبدو لهم الدين — جراء

هذا الموقف الفاسد ــ عملا اجتماعيا ، لا كشــفا لحقيقة ، ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقة من الحقائق مثلا أعلى ،ولابد عند البحث عن هذه الحقائق أن ندرس مظاهرها وتاريخها فى ضوء مثله الأعلى . أما الأمور التى تأتى بها أعمال اجتماعية فليس لها مثل أعلى . وبقاؤه رهن بحاجة المجتمع اليها .

والدين يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليس من الممكن البحث عن حقائقه، كما يبحث عن تطورات فنون العمارة والنسيج والحياكة والسيارات ، لأن الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها ، أو يقبلها فى شــكل ناقص ، ويبقى الدين فى جميع هــذه الأحوال حقيقة واحدة فى ذاتها ، وانما يختلف فى أشكاله المقبولة ، ولهذا لا يمكن أن نفهم حقــائق ( الدين ) بمجرد فهرســة مماثلة لمجميــع الأشكال الموجودة فى المجتمعات باسم الدين .

ولنأخذ ــ على سبيل المثال ــ لفظ ( الجمهورية ) . فهى قيمة سياسية لنظام خاص بالحكم ، وفى ضوء هذه القيمة نستطيع أن نحكم على بلاد بأنها جمهورية ، أو بأنها ليست كذلك . لكنا لو ذهبنا نبحث عن معانى ( الجمهورية ) فى النماذج السياسية التى توجد عبر القارات ، ويلتصق بها لفظ ( الجمهورية ) ، ثم زعمنا أن كل هذه البلاد قائمة ( على أسس جمهورية ) . فسوف تصبح كلمة « الجمهورية » بلا معنى . ففى هذه الحالة ستختلف ( جمهورية ) الصين عن ( جمهورية ) الولايات المتحدة الأمريكية ، وســتعارض « جمهورية » انجلتــرا « الجمهورية العربية المتحــدة » ، كما أن ( جمهورية ) باكستان ستصطدم ( بالجمهورية ) التى تلتزم بهــا الهند . فاذا تأملنا كل هذه المشاهدات فى ضوء ( فلسفة التطور ) فان هذه الكلمة سوف تفقد معناها حتما ، لأن فرنسا التى انجبت النظام الجمهورى سوف تبرهن على أن ( الجمهورية ) بعد ( نشوئها وارتقائها ) تتمثل فى ديكتاتورية ديجول العسكرية .

وهذا النهج فى التناول يؤدى الى نتيجة غريبة ، هى انه لا حاجة الى ( الاله ) فى الاديان !! اذ يوجد مثال لهذا فى تاريخ الأديان وهو مثال البوذية ، التى تخلو تماما من فكرة ( الاله ) . ومن ثم آمنت جماعة من الناس بضرورة البحث عن دين مجرد من الاله ، ولو اننا سلمنا بالفكرة القائلة بأن شيئا مثل ( الدين ) لابد من للانسان ، لحاجته الى الوعى الخلقى والتنظيم الاجتماعى . فلا داعى اذن للاله أن يوجد ، وربما قيل : « ان الدين الذى يصح لهذا العصر يلزم أن يكون مثل البوذية ، فان اله العصر الحاضر هو ( مجتمعه وأهدافه السياسية ) ، ورسول هذا الاله هو ( البرلمان ) الذى يوجه الشعب الى ما يرضيه ، ومعابد هذا الاله العصرى ليست المساجد أو الكنائس القديمة ، وانما هى المصانع الكبيرة والسدود العظيمة » (١) .

ان لهؤلاء الباحثين الاجتماعيين المزعومين قدرة كبيرة على خلق هذه الأفكار الجديدة ، التى تنتقل من ( دين الاله ) الى فكرة ( الدين بغير الاله ) . وذلك ناشىء عن الطريق المعوجة التى سلكها بحثهم وهم يغمضون أعينهم عن جميع النواحى العلمية الأخرى التى تلقى ظلالا من الشكوك حول جداولهم الارتقائية . ومثاله ان علماء الاجتماع والانسان قد توصلوا بعد ابحاثهم الفنية الدقيقة الى أن ( نظرية الاله ) شكل ارتقائى لفكرة تعدد الآلهة ، غير أن هذا الارتقاء ضل طريقه واتجه الى طريق غريبة ، وحير العلماء كما شوش أمره على نفسه ، بارتقائه الباطل من فكرة تعدد الآلهة الى فكرة الاله الواحد .

ان فكرة تعدد الآلهة كانت تحمل قيما اجتماعية مؤداها أن يعيش مؤمنو الآلهة المختلفة فى سلام باعتراف متبادل ما بينهم « ولكن فكرة الاله الواحد ابطلت حتما هذا الامكان ، بخلقها نظرية

(١) Religion without Revelation, Julian Huxley.

الدين الاعلى (Higher Religion) ونتيجتها أن بدأت حروب ضارية لا نهاية لها بين شعوب الدنيا ، وهكذا سمت فكرة الاله الواحد الى حتفها بظلفها ، بارتقائها فى اتجاه مناقض ، وهذا هو قانون النشوء والارتقاء » (١) .

ولكننا ــ فعلا ــ قد تركنا الواقع الحقيقى فى هذا الجدول ، فالتاريخ المعلوم يثبت ان اول رسول معلوم كان سيدنا نوحا عليه السلام ، وكان يدعو الى الله الواحد . كما أن تعدد الآلهة (Polytheism) ليس فى درجة واحدة ، وانما معناه : أن يشرك الانسان مع الاله الأكبر آلهة اخرين . يقربونه اليه ، ويشفعون له . وفى وجود هذه الحقائق تتحول نظرية النشوء والارتقاء الى ادعاء لا دليل عليه .

* * *

وفكرة ( ماركس ) هى اكثر نظريات هذه المجموعة عبثا ، فهى تقول : ان الأحوال الاجتماعية هى التى تقوم ببناء الانسانية وتكميلها ومن ثم كان العصر الذى وجد فيه الدين عصر الاقطاع والراسمالية وهو عصر الانتهازيين اللصوص ، كما أن الأفكار الدينية والأخلاقية التى تولدت فى هذا العصر تحمل نفس الطابع الانتهازى الاستعمارى .

والحق أن هذه الفكرة ليست لها قيمة من الناحية العلمية ، كما أنها عند التحليل العلمى والتجربة العملية لا طريق الى تصديقها .

فالفكرة الماركسية تنفى بشدة ارادة الانسان ، وهى تحيل الأحداث الى تاثير عوامل الزمن الاقتصادية ، ومعنى ذلك ان الانسان لا شخصية له ، فهو يصاغ فى مجتمعه ، كما يصاغ الصابون فى المصنع ، ولا طريق امامه كى يشق افكارا وطرقا جديدة ،

---

(١) Man in the Modern World, p. 112.

وانمـا هو ينطلق مفكرا على النهـج الذى سمحت له به حيـاته الاقتصادية ، فاذا كانت هذه القضية صحيحة ، فكيف تمكن كارل ماركس ـ وليد النظام الراسمالى ـ من ان يفكر ضـد العوامل الاقتصادية الرائجة فى عصره ، هل صعد القمر لكى يبحث فى أحوال الأرض ؟

وبعبارة اخرى : لو صح ان الدين وليد عصر مخصوص فكيف لم تكن الماركسية وليدة النظام الاقتصادى لعصرها ؟؟.. واذا لم نسغ هذا الوضع فيما يتعلق بالماركسية فكيف نسيغه بالنسبة الى الدين ؟.. الحق ان هذه الفكرة عبث مثير لا يحمل على ظهره اى دليل علمى أو عقلى .

هذا وقد اتضحت اخطاء هـذه الفكرة بالتجارب العمليـة . وحسبنا روسيا ، هنالك حيث سادت الماركسية نصف قرن من الزمان ، أدعت روسيا خلاله أن أحوال البلاد المـادية قد تغيرت تماما ، وأن النظام الزراعى ، والمبادلة ، وتقسيم الأموال ، قد جرت على أسس غير استغلالية ، ولكنا وجدنا حين مات ستالين أن قادة الروس أنفسهم قد أقروا بأن الظلم والفسـاد كانا رائجين فى عهده ، وأنه كان يستغل الشعب كما يستغله الحكام فى البلاد الاستعمارية. ولو وضعنا فى اعتبارنا واقع الرقابة الشديدة على الصحف ووسائل الاعلام ، وهى التى تمكن بها ستالين من أن يذيع على العـالم أن عهده هو عهد العدل والانصاف ، فلا ريب أن هذه الرقابة موجودة هنالك اليوم ايضا ، ومن هذا نستطيع أن نفهم أن الأمور تجرى وراء ستائر الدعاية الجميلة على ما كانت عليه فى عهد ستالين . وان كان المؤتمر العشرون ( ١٩٥٦ ) للحزب الشـيوعى الروسى قد أفشى مظالم ستالين ، فلا غرابة أن يجىء المؤتمر الأربعون للحزب الشيوعى بافشاء أسرار حكام روسيا اليوم (١) .

---

(١) وقد اكد هذا عزل خرشوف والحوادث التى تلته فى روسيا فى اكتوبر عام ١٩٦٤م .

ان هذا النظام الذى استغرقت تجربته نصف قرن من الزمان ليدلنا على أن الانسان لا يتغير بتغير نظام الزراعة والمبادلة المزعوم ، ولو كان العقل الانسانى تابعا للنظام الاقتصادى فلماذا نجد الظلم والفساد والاستغلال فى نظام روسيا الشيوعى ؟

ان قضية العصر الحاضر لا تعدو أن تكون « سفسطة علمية scientific sophism ذلك أن علماء هذا العصر يعالجون قضاياهم فى ضوء العلم الحديث ، غير أن هذه المعالجة لا تجدى نفعا ، لأنهــــا قائمة على العلم المحض وحسب ، على حين لابد من اعتبار أشــياء أخرى ، ومثال ذلك : أن نشرع فى دراسة علمية لأشــياء علمية ناقصة ، فسوف تؤدى هذه المطالعة العلمية الى نتائج غير علمية ، ناقصة ، باطلة .

لقد عقد فى دلهى فى يناير ١٩٦٤ مؤتمر دولى للمســتشرقين ، اشترك فيه الف ومائتان من العلماء من جميع انحاء العالم ، وقدم أحدهم فى هذا المؤتمر بحثا يدعى فيه مآثر كثيرة لمسلمى الهند ليست من عمل المسلمين ، وانما هى من عمل الملوك الهندوس . وضرب لذلك مثلا بمنارة قطب فى دلهى المنسوبة الى الملك قطب الدين أيبك ، على حين بناها الملك الهندوسى سامودرا جوبت قبل ٢٣ قرنا ، وقد أخطأ المؤرخون المسلمون فنسبوها الى الملك قطب الدين . ويستدل هذا البحث بأن فى المنارة المذكورة بعض احجار قديمة نحتت قبل عصر الملك قطب الدين ..

وهذا ــ كما يبدو ــ اســتدلال علمى ، اذ أن بعض أحجار المنارة فعلا من الصنف الذى ذكره العالم ، ولكن هل كفى مشاهدة بعض أحجار المنارة للبت فى أمر بانيها ، أو أنه لابد من نواح أخرى كثيرة لنشاهدها فى هذا الصدد . ومن هنا فان هذا التفسير لا يصدق على منارة قطب ــ ككل . هذا تفسير . وهناك تفسير آخر ، هو أن هذه الأحجار القديمة التى يوجد بعضها فى المنارة . انما جاءت من انقاض ابنية قديمة ، كما هو معروف فى كثير من الأبنية التاريخية

الحجرية . ولا مناص من أن نقبل هذا التفسير الثانى حين نشاهد منارة قطب الدين فى ضوء طابعها المعمارى ورسومها وتصميمها . والمسجد الناقص بجوارها ، والمنارة الثانية التى لم تكمل ، ثم ننتهى الى أن التفسير الأول ليس الا قياسا خاطئا قائما على المغالطات .

* * *

وهذا أمر قضية المعارضين ، فانهم نظروا الى حقائق ناقصة وجزئية ، لا تصل بعضها بالموضوع مطلقا ، واعتقدوا أن الدراسة العلمية الحديثة قد أبطلت الدين ، على حين اننا لو نظرنا الى الواقع جملة وتفصيلا فسوف نصل الى نتيجة تختلف عن الأولى كل الاختلاف .

والدليل الذى يقنعنى بصدق الدين هو أن عقولا مثالية منا ــ بعدأن تركت الدين ــ قد أخذت تهذى بكلمات لا حقائق وراءها ، وتعمه فى تيه الظلام ، ذلك أن الانسان بعد أنيفقد أساس ( الدين ) لا يجد أساسا آخر لافكاره . والأسماء التى تأتى فى قوائم المعارضين أكثرها من عقولنا الكبيرة ولكنهم بعد أن تخلوا عن الدين راحوا يكتبون ضروبا من اللغو غاية فى الاهمال والتمزق ، حتى اننى أتحير ــ أحيانا ــ فلا أفهم كيف صدرت هذه الكلمات عن قلم رجل من العلماء ؟ . وأن السجل الذى انتجه هؤلاء ليشتمل على خرافات وآراء متناقضة ، واعترافات بجهل الحقيقة ، كما يشتمل على أدلة أشبه بالسفسطة . فبطولة هؤلاء تكمن فى أنهم أغمضوا أعينهم عن الحقائق الظاهرة ، وشادوا قناطر خيالية من الادعاء ، كما تتمثل فى استدلالهم بالشاذ من الأمور . وذلك من سمات القضايا الباطلة ، أما القضايا الصحيحة فانها تقوم على أسس علمية ثابتة ، لا على الشواذ .

وتتجلى حقيقة الدين وسفسطة قضية المعارضين أكثر من ذلك حين نطالع صورة الحياة الانسانية فى ضوء الدين ، انها صورة جميلة

لطيفة ، تتوافق مع افكار الانسان السامية ، كما يتوافق الكون المادى مع القوانين الرياضية ، بعكس تلك الصورة التى يرسمها المعارضون ، فهى صورة جد قبيحة ، وهى لا تتفق ابدا مع الذهن الانسانى ، وانظر الى ما يقوله برتراندرسل :

« والانسان وليد عوامل ليست بذات اهداف ، ان بداه ونشوءه وأمانيه ومخاوفه ، وحبه وعقائده ، كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضى اتفاقى فى نظام الذرة ، والقبر ينهى حياة الانسان . ولا تستطيع اية قوة احيــاءه مرة أخرى . ان هــذه المجهودات الطويلة . والتضحيات ، والأفكار الجميلة ، والبطولات العبقرية ، كلها سوف تدفن الى الأبد مع فناء النظام الشمسى . ان الكفاح الانسانى كله سوف يدفن حتما مع ارض تحت أنقاض الكون ، ولو لم تكن هذه الافكار قطعية فانهــا اقرب ما تكون الى الحقيقــة ، حتى أن أية فلسفة تحاول انكارها ستلقى فناءها تلقائيا » (١) .

ويكاد هذا الاقتباس ان يكون خلاصة الفكر المادى ، فالكون فى ضوء هذا الفكر المادى ــ يكاد يفتقد أهدافه ، ولا يبقى غير الظلام الحالك ، الظلام الذى تتلاشى فيه معايير الخــير والشر ، حتى أن ابادة الناس بالقنابل لا تعد ظلما ، لأنهم سوف يلقون حتفهم على أية حال يوما ما . اما الفكر الدينى فهو فكر الضوء والأمل . والموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة ، وكل القيم والأفكار الانسانية السامية تجد لها مكانا فيه ، وان كان بعض العلماء بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره ، يطمئن الى أنه قد توصل الى الحقيقة فان تصديق العقل الانسانى للفكر الدينى دليل قطعى على انه هو الحقيقة التى طالما بحثت عنها الفطرة الانسانية . وعندئذ لا نجد اساسا واقعيا لانكار قيمة الفكر الدينى ، هذا هو «المقياس» العلمى

(١) Limitations of Science, p. 133.

الذى يشير اليه الرياضى الاميركى البروفيسور ( أرل تشستر ريكس ) قائلا :

انني استخدم فى ابحاثى ذلك المقياس العلمى المسلم ، الذى يستخدم فى ترجيح احدى فكرتين مختلفتين أو اكثر ، عن حقيقة واحدة . وهو المقياس الذى نرجح بناء عليه الفكرة التى تفسر المسائل المتنازع فيها بطريقة أكثر بساطة وسهولة . لقد استخدم العلماء هذا المقياس لاختيار احدى نظريتى بطليموس وكوبرنيك : كانت الأولى تزعم أن الأرض هى مركز النظام الشمسى ، على حين اكدت الثانية أن النظام الشمسى هو مركز الأرض . وكانت نظرية بطليموس غاية فى التعقيد حتى رفضها العلماء »(١) .

ولا بأس من الاعتراف بأن هذه الأدلة لن تقنع بعض الناس ، فان أبواب عقولهم المادية موصدة دون اى كلام ـ مهما يكن علميا ـ عن الاله أو الدين . ومن المؤكد ان موقفهم هذا ليس لأن استدلالنا ضعيف ، وانما هو راجع الى تعصبهم المقيت ضد الأفكار الدينية ، ولقد صدق عالم بريطانيا العظيم سير جميس جينز ـ الذى يعتبر ولا شك أعظم علماء العصر الحديث ـ حيث قال فى كتابه الشهير ( عالم الأسرار ) :

« أن فى عقولنا تعصبا يرجح التفسير المادى للحقائق » (٢) .

وذكر ( ويتكر شامبرز ) فى كتابه ( الشهادة ) Witness حادثا كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول فى حياته . ذكر انه بينما كان ينظر الى ابنته الصغيرة استلفتت اذناها نظره ، فاخذ يفكر فى انه من المستحيل أن يوجد شىء معقد ودقيق ، كهذه الأذن . بمحض اتفاق ، بل لابد انه وجد نتيجة ارادة مدبرة . لكن ( ويتكر شامبرز )

(١) The Evidence of God, p. 179.

(٢) Mysterious Universe, p. 189.

طرد هذه الوسوسة عن قلبه ، حتى لا يضطر ان يؤمن ــ منطقيا ــ بالذات التي أرادت فدبرت ، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة .

ويقول الأستاذ الدكتور ( تامس ديودباركس ) بعد أن يذكر هذا الحادث :

« انني أعرف عددا كبيرا من أساتذتي في الجامعة . ومن رفقائي العلماء الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر ، وهم يقومون بعمليات كيماوية وطبيعية في المعامل (١) .

لقد اجمع علماء هذا العصر على صدق نظرية النشوء والارتقاء .. وقد بدأت هذه النظرية تسود فعلا جميع فروع العلوم الحديثة فكل مشكلة تحتاج ( الها ) في تفسيرها توضع مكانه هذه النظرية بغير تردد .

هذا جانب من النظرية ، وأما الجانب الثاني ــ وهو الجانب المظلم منها ــ الذي يقرر ( فكره التطور العضوى Organic Evolution الذي استنبطت منه فكرة الارتقاء ، فقد بقى الى يوم الناس هذا بلا براهين ، وبلا ادلة علمية !! حتى قال كثير من العلماء : « أنهم لا يؤمنون بهذه النظرية ، الا لانه لا يوجد اى بديل لها سوى الايمان بالله مباشرة » .

وكتب سير آرثر كيث يقول :

« ان نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل الى اثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها الا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك

---

(١) The Evidence of God, pp. 73 - 74

هو ( الايمان بالخلق الخاص المباشر ) ، وهــذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه » (١) !!

اننى أقر هنـــا بعجزى عن اقنـــاع أولئك الذين ينطوون على التعصب الأعمى للتفسير المادى ، بحقية الدين ، ولهذا التعصب جذور عميقة ، كما يقول عالم امريكى : « أن كون العقيدة الالهية معقولة ، وكون انكار الاله سفسطة لا يكفى ليختار الانسان جانب العقيدة الالهية . فالناس يظنون أن الايمان بالله سوف يقضى على حريتهم ، تلك الحرية العقليـــة التى استعبدت عقول العلمـــاء ، واستهوت قلوبهم ، فأية فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم (٢) .

وبناء على هذا يدعى جوليان هكسلى أن فكرة النبوة « هى اظهار للتفوق بطريقة شاذة لا يمكن احتمالها » ، اذ أن معنى الايمان بنبى أن تؤمن بكلامه على أنه كلام الاله ، ثم نمتثل ــ طوعا أو كرها ــ لكل ما يأمر به .

ولكن اذا كان الانسان مخلوقا وليس خالقـــا ، عابدا وليس معبودا . فكيف يستطيع أن يقضى على الحقائق بمجرد افكار نبتت فى عقله ؟ . . اننا لا نستطيع أن نغير الحقائق ، وانما تستطيع أن نعترف ــ أو نؤمن بهـــا ــ فحسب . واذا كنـــا لا نحب أن تكون عاقبتنا عاقبة النعامة ، فأفضل خيار لنا أن نسلم بالحقيقة قبل أن تفوت الفرصة نهائيا .

ان كفرنا بالحقيقة لن يسىء الى قضيتها ، ولكن الخسران كله سوف يكون من حظنا فى الآخرة .

---

(١) Islamic Thought, Dec. 1961.

(٢) George H. Blount, The Evidence of God, p. 130.

# الباب الثالث

## طريقة الاستدلال العلمي

ان قضية العصر الحاضر ضد الدين هي قضية طريقة الاستدلال أعني الطريقة الجديدة التي كشفها العلم الحديث بعد التطورات في ميادينه العديدة، بحيث لم تعد تقف أمامها دعوى الدين وعقائده. هذه الطريقة الجديدة هي معرفة الحقيقة بالتجربة والمشاهدة، على حين تتصل عقائد الدين بعالم ما وراء حواسنا، ولا يمكن اخضاعها للتجربة. ( فالدين كله مبني على قياس واستقراء ) (١)، وهذا هو ما يجعله باطلا، لأنه ليس له أساس علمي.

وقضية العصر الحاضر باطلة، لأنها لا تقوم على أسس علمية، فالطريقة الجديدة لاتنفي وجود أشياء لم تجرب مباشرة، كما لاتنفي قياس أشياء لم نشاهدها على أشياء شاهدناها تجريبيا وهو مايسمى « قياسا علميا »، ويعتبر كالتجربة المباشرة، فالتجربة لاتعد حقيقة علمية لمجرد أنها شوهدت: كما أن القياس ليس باطلا لمجرد أنه قياس. فإمكان الصحة والبطلان موجود فيهما على السواء.

كان الناس في القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب. اعتقادا منهم ان الماء لا يحمل الاما يكون أخف منه وزنا، وحين قال بعضهم: ان السفن الحديدية سوف تطفو على سطح الماء كالتي من الخشب. أنكر الناس عليه مقالته واتخذوه هزوا، وجاء نحاس فالقى بنعل من حديد في دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه

---

(١) ومثاله أن أصحاب الدين اذا ارادوا اثبات وجود الاله لا يقدرون على ذلك باستعمال التلسكوب، ولكنهم يستدلون بأن نظام الكون وروحه العجيبة تدلان على انه يوجد عقل الهي وراءهما. وهذا الدليل لا يثبت وجود الاله مباشرة وانما هو يثبت قرينة تستلزم الايمان بالله بعد الايمان بها.

القطعة الحديدية ــ بدل ان تطفو على سطح المـــاء ــ استقرت فى القاع . كان هذا العمل تجربة . ولكننا جميعا نعتقد اليوم أنها كانت تجربة باطلة، فلو كان النحاس قد ألقى بطبق من حديد لشاهدبعينيه صدق ما قيل من طفو السفن الحديدية .

فى بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوبا ضعيفا ، فلما شاهدنا السماء بهذا المنظار وجدنا أجراما كثيرة كالنور، فاستنبطنا انها سحب من البخار والغاز ، تمر بمرحلة قبل أن تصير نجوما . ولكنا حين تمكنا من صناعة منظار قوى ، وشاهدنا هـذه الاجرام مرة ثانية ، علمنا أن هذه الأجرام الكثيرة المضيئة هى مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب ، نتيجـــة البعد الهائل بينها وبين الأرض .

وهكذا نجد أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتى العلم القطعيتين وان العلم لا ينحصر فى الأمور التى شوهدت بالتجربة المباشرة . لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواســعة النطاق ، ولكن الأشياء التى نلاحظها بهذه الوسائل كثيرا ما تكون امورا سطحية، وغير مهمة نسبيا . أما النظريات التى يتوصل اليها بناء على هذه المشاهدات فهى أمور لا سبيل الى ملاحظتها ، والذى يطالع العلم الحديث ، يجدأن أكثر آرائه « تفسير للملاحظات » وأن هذه الآراء لم تجرب مباشرة ، ذلك ان بعض الملاحظات يحمل العلماء على الايمان بوجود بعض حقائق غير مشـــاهدة قطعيا ، فأى عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو دون الاعتمـاد على الفاظ مثل : « القوة » Force و « الطاقة » Energy ، و « الطبيعة » Nature « قانون الطبيعة » Law of Nature ، وما الى ذلك

ولكن هذا العالم لا يدرى ما « القوة والطاقة والطبيعة وقانونها » ، فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة ، لكى يبين عن علل غير معلومة . وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الالفاظ ، تماما كرجل الدين ، لا يستطيع تفسير صفات الاله ، وكلاهما يؤمن ــ بدوره ــ بعلل غير معلومة .

يقول الدكتور ( الكسيس كاريل ) :

« ان الكون الرياضي شبكة عجيبة من القياسات والفروض ، لا تشتمل على شيء غير « معادلة الرموز » ، الرموز التى تحتوى على مجردات لا سبيل الى تفسيرها » (١) .

والعلم الحديث لا يدعى ، ولا يستطيع أن يدعى ، أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة ، فالحقيقة أن « الماء سائل » . ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة . ولكن الواقع أن كل «جزىء» من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين وذرةمن الأوكسجين وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ولو اتينا بأقوى ميكروسكوب فى العالم ، غير انها ثبتت لدى العلماء لايمانهم بالاستدلال المنطقى .

ويقول البروفيسور ا.ى. ماندير :

« ان الحقائق التى نتعرفها مباشرة تسمى الحقائق المحسوسة Percieved Facts ، بيد أن الحقائق التى توصلنا الى معرفتها لا تنحصر فى « الحقائق المحسوسة » ، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ، ولكننا عثرنا عليها على كل حال، ووسيلتنا فى هذا السبيل هى الاستنباط ، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه « بالحقائق المستنبطة » Inferred Facts والأهم هنا أن نفهم انه لا فرق بين الحقيقتين ، وانما الفرق هو فى التسمية ، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة ، وعلى الثانية بالواسطة، والحقيقة دائما هى الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط » (٢) .

ويضيف ماندير قائلا :

« ان حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف

(١) Man The Unknown, p. 15.

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

يمكن أن نعرف شـــيئا عن الكثير الآخر ؟ .. هنــاك وسيلة وهي الاستنباط أو التعليل . وكلاهما طريق فكرى ، نبتدىء به بوساطة حقائق معلومة ، حتى ننتهى بنظرية : ان الشيء الفلانى يوجد هنــا ولم نشاهده مطلقا » (١) .

وهنا نتساءل . كيف يصح الاستنباط المنطقى لأشياء لم نشاهدها قط ؟ وكيف يمكن أن نسمى هذا الاستنباط بناء على طلب العقل : حقيقة علمية ؟ ويجيب ماندير بنفسه على هذا السؤال :

« ان المنهج التعليلى صحيح ، لان « الكون » نفسه عقلى » .

فالكون كله مرتبط بعضه بالاخر ، حقائقه متطابقة ، ونظامــه عجيب ، ولهذا فان أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقــه وتوازنها ــ هى دراسة باطلة . ويقول ماندير فى هذا الصدد :

« ان الوقائع المحسوسة هى أجزاء من حقائق الكون ، غير أن هذه الحقائق التى ندركها بالحواس قد تكون جزئية ، وغير مرتبطة بالأخرى . فلو طالعناها فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقا فاما اذا درسناها فى ضوء الحقائق الكثيرة مما علمنـــاه مباشرة أو بلا مباشرة ، فاننا سندرك حقيقتها » .

ثم يأتى بمثال سليم يفسر ذلك فيقول :

« اننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الارض ، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ، ويتطلب جهدا ، ونلاحظ أن القمر يدور فى الفلك ، ونعلم أن الصعود فى الجبل أشق من النزول منه . ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لاحداها بالأخــرى ظاهرا ، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية ــ هى « قانون الجاذبية » . وهنا

(١) A.E. Mander, Clearer Thinking, London, p. 46.

ترتبط جميع هذه الحقائق ، فنعرف للمرة الاولى انها كلها مرتبطة احداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل النظام وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة فلن نجد بينها أى ترتيب ، فهى متفرقة ، وغير مترابطة ، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صورة منظمة للحقائق » (١) .

* * *

ان قانون « الجاذبية » لا يمكن ملاحظته قطعا ، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل فى ذاته قانون الجاذبية ، وانما هى أشياء أخرى ، اضطروا لأجلها ـ منطقيا ـ ان يؤمنوا بوجود هذا القانون .

واليوم يلقى هذا القانون قبولا علميا عظيما ، وهو الذى كشف عنه نيوتن لأول مرة ، ولكن . . ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية ؟ . . هاهو ذا نيوتن يتحدث فى خطاب ارسله الى( بنتلى) فيقول :

« انه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا احساس وهى تؤثر على مادة أخرى ، مع انه لا توجد أية علاقة بينهما » (٢) .

فنظرية معقدة غير مفهومة ، ولا طريق الى مشاهدتها ، تعتبر اليوم بلاجدال ، حقيقة علمية !! لماذا ؟ . . لانها تفسر بعض ملاحظاتنا فليس بلازم اذن ان تكون الحقيقة هى ماعلمناه مباشرة بالتجربة ، ومن ثم تمشى الى القول بان العقيدة التى تربط بعض ما نلاحظه ، وتفسر لنا مضمونه العام ـ تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة!.

يقول البروفيسور مانديز :

« القول باننا عرفنا الحقيقة يعنى : اننا عرفنا معناها ، وبعبارة

---

(١) Clearer Thinking, p. 51.

(٢) Works of W. Bently, III, p. 221.

أخرى : اننا بحثنا عن وجود شيء ، وعن احواله ، ففسرناه ، واكثر عقائدنا تدخـــل فى هذا النطاق ، فهى فى الحقيقة : « تفســيرات للملاحظة »

ويستطرد ماندير فيتكلم عن « الحقائق الملحوظة » :

« عندما نذكر « ملاحظة » فاننا نقصد شيئا اكثر من المشاهدة الحسية المحضة ، فمعناها : « الملاحظة الحسية » و « التعرف » بما يشمل جانب التفسير » (١) .

## نظرية التطور العضوى :

هذه هى القاعدة العلمية التى على اساسها وافق العلماء على حقيقة نظرية ( التطور العضوى ) كما قال ماندير : « لقد ثبت صدق هذه النظرية ، حتى أننا نســتطيع أن نعتبــرها « اقــرب شيء الى الحقيقة » (٢) .

ويقول سمبسن فى هذا الصدد :

« أن نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيرا وكليا ، وليست بقياس ، أو ( فرض بديل ) صيغ للبحث العلمى (٣) .

ويعتقد محرر دائرة المعارف البريطانية ( ١٩٥٨ ) : أن نظرية الارتقاء فى الحيوانات « حقيقة » ، وأن هـــذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء والمثقفين بعد داروين .

وقال ر. س لل :

« ظلت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد ، يوما بعد يوم ،

---

(١) Clearer Thinking, p. 56.

(٢) Ibld., p. 113.

(٣) Meaning of Evolution, p. 127.

بعد داروين ، حتى أنه لم يبق لدى المفكرين والعلماء شك فى أن هذه هى الوسيلة المنطقية الوحيدة التى تستطيع أن تفسر عملية الخلق وتشرحها » (١) .

هـذه النظرية التى أجمع العلماء على صحتها ، هـل لاحظها احدهم أو جربها فى معمله ؟ . . والجـواب : لا ! فذلك ضرب من المستحيل ، أن مزعومة الارتقاء معقدة ، وهى تتعلق بماض بعيد جدا ، حتى أنه لا سؤال عن تجربتها وملاحظتها . وهى على ما أكده ( لل ) فى كلمته السابقة : « وسيلة منطقية » لتفسير مظاهر الخلق ، وليست بملاحظة واقعية . وأرى أن هذا هو السبب الذى دفع « السير أرثر كيث » ــ الذى يعتبر محاميا متحمسا لنظرية الارتقاء ــ ان يسلم بأن هـذه النظرية ليست بملاحظة أو تجربة ، وانما هي مجرد عقيدة . ومن كلماته : « ان نظرية الارتقاء « عقيدة أساسية فى المذهب العقلى » (٢) . وعرف أحد المعاجم العلمية نظرية داروين بأنها « نظرية قائمة على تفسير بلا برهان » (٣)

فما الذى يجعل شيئا غير ملاحظ وغير قابل للتجربة « حقيقة علمية » ، يذكر ( مانديو ) أسباب ذلك فيقول :

١ ــ هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

٢ ــ فى هذه النظرية تفسير لكثير من الوقائع ، لا يمكن فهمها الا من طريقها .

٣ ــ ولم تظهر بعد نظرية تناسب وتوافق الحقائق بهـذه الدقة (٤) .

---

(١) Organic Evolution, p. 15.
(٢) Revolt against Reason, p. 112.
(٣) Ibid, p. 111.
(٤) Clearer Thinking, p. 112.

فاذا كانت هذه الأدلة كافية لتصبح نظرية الارتقاء حقيقة علمية فهى كذلك موجودة فى جانب الدين على وجه أتم وأكمل . والقول بصدق نظرية الارتقاء وأبطال الدين فى نظر الذهن العلمى لا يعنى مطلقا أن قضية المعارضين هى قضية الاستدلال العلمى ، وانما هذه القضية تتعلق « بالنتيجة »، فلو اثبت نفس الاستدلال أمرا «طبيعيا محضا » فسيقبله المعارضون ، وسيرفضونه لو أثبت أمرا الهيا — لأنه غير مرغوب فيه عندهم .

* * *

**مشكلة تعيين حقائق الأمور :**

وبهذا لا ينبغى القول بان الدين هو « الايمان بالغيب » ، وبأن العلم هو الايمان « بالملاحظة العلمية » ، فالدين والعلم كلاهما يعتمد على الايمان بالغيب . غير أن دائرة الدين الحقيقية هى دائرة «تعيين حقائق الامور » نهائيا وأصليا ، أما العلم فيقتصر بحثه على المظاهر الأولية والخارجية ، فحين يدخل العلم ميدان تعيين حقائق الأمور تعيينا حقيقيا ونهائيا — وهو ميدان الدين الحقيقى — فانه يتبع نفس طريق الايمان بالغيب . الذى يتهم به الدين . ولابد من هذا السلوك فى « الميدان الثانى » ، كما قال سير آرثر ادنجتن : « ان عالمنا فى العصر الحاضر يعمل على منضدتين فى وقت واحد : أحداهما المنضدة العامة التى يستعملها الرجل العادى ، التى يمكن لمسها ورؤيتها . وأما الأخرى : فهى « المنضدة العلمية » ، وأكثرها فى الفضاء ، وتجرى فيها الكترونات لا حصر لها ولا تشاهد » ، ويستطرد سير آرثر ادنجتن قائلا : « وهكذا نجد لكل شىء صورة ذات وجهين ، أحدهما : ( ملحوظ ) ، والاخر : ( صورة فكرية ) لا سبيل الى مشاهدتها بأى ميكروسكوب أو تلسكوب » (١) .

---

(١) Nature of the Phyical World, pp. 7 - 8.

أما الوجه الأول فيشاهده العلم ، ويشاهده لمدى بعيد جدا ، ولكنه لا يستطيع أن يدعي أنه يشاهد الوجه الآخر . وطريقة العلم الحديث انه يقدم رأيا عن شيء بعد مشاهدة مظاهره . وأما «الميدان الثاني» فهو ميدان معرفة حقائق الاشياء وتعيينها ، و « العلم » في هذا الميدان هو البحث عن حقائق غير معلومة ، بوساطة حقائق معلومة .

وعندما يجتمع لدى عالم من العلماء قدر مناسب من « الحقائق الملحوظة» فانه يحس بضرورة وضع نظرية أو فرض علمي . وبعبارة أدق . ضرورة فكرة اعتقادية ووجدانية ، تقوم بتفسير الملاحظات، وربط بعضها ببعض ، فاذا نجحت هذه الفكرة الاعتقادية في تفسير الحقائق تفسيرا كاملا عدت حقيقة علمية ، رغم انها لم تلاحظ قط كما لوحظت الحقائق الاخرى التي نعرفها بالمشاهدة ، أو بالملاحظة العلمية .

ومعنى ذلك ان العالم يؤمن بوجود شيء غائب بمجرد ظهور نتائجه وآثاره ، فكل حقيقة نؤمن بها تكون دائما ( فرضا ) في اول أمرها ، الى أن نكتشف حقائق جديدة تدعم صدقها ، فنزداد يقينا بها . حتى نبلغ حد اليقين : واذا لم تؤيدها الملاحظات اللاحقة تخلينا عنها . ومن أمثلة هذه « الحقائق » : حقيقة « الذرة » التي لاسبيل الى انكارها ، برغم انها لم تشاهد قط بالمعنى المعروف ، ولكنها تعتبر أكبر حقيقة علمية كشفت في هذا العصر . وهذا هو السبب الذي دفع أحد العلماء ان يعرف ( النظريات ) العلمية بالألفاظ التالية :

«Theories are Mental Pictures, That Explain Known Laws»

« النظريات صور ذهنية تفسر القوانين المعلومة » .

**حقيقة النظريات العلمية :**

ان الحقائق التي تعرف في العلم باسم « الحقائق الملحوظة »

ليست بحقائق شوهدت فعلا ، وانما هى تفسيرات لبعض المشاهدات لأن المشاهدة الانسانية لا يمكن أن توصف بأنها ( كاملة ) ، ولذا فان جميع هذه التفسيرات تعد «اضافية» ، ومن الممكن ان تتغير بتطور الملاحظة .

ويقول البروفيسور سوليفان بعد نقد وجهه الى النظريات العلمية :

« هذا العرض للنظريات العلمية يثبت أن معنى « نظرية علمية صحيحة» أنها « فروض عملية ناجحة Successful Working Hypothesi ومن الممكن تماما أن يكون سائر النظريات العلمية باطلا ، ذلك أن النظريات التى نعتبرها اليوم ( حقيقة ليست الا « قياسا على وسائلنا المحدودة للملاحظة» ، ولاتزال قضية الحقيقة فى عالم العلم «قضية عملية نفعية Pragmatic Affair (١) .

* * *

ولا يزال العلماء بعد هـــذا يعتبرون أن الغرض الذى يفسر ملاحظاتهم لا يقل فى قيمته عن « الحقيقة الملحوظة » نفسها ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا : أن الحقائق الملحوظة هى وحدها « العلم » وأن ما سواها من النظريات الشارحة لا تدخل فى نطاق ( العلم ) ، لأنها غير ملحوظة .. والحق أن هذا هو ما نسميه «الايمان بالغيب» وهو بالنسبة الى المؤمنين ليس سوى الايمان بحقائق غير ملحوظة ، فهو ليس بعقيدة عمياء ، وانما هو خير تفسير للحقائق التى يشاهدها العلماء ..

وكما رفض العلماء نظرية الضـــوء التى قدمها نيوتن وتعرف باسم Corpuscular Theory of light . لانها لم تنجح فى تفسير مظاهر

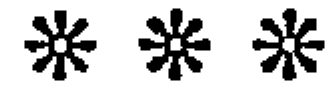
(١) J.W.N. Sullivan, Limitations of science, p. 158.

حديثة للضوء ، فاننا نرفض أفكار الفلاسفة الملحدين ، لأنها فشلت فى تفسير مظاهر الطبيعة .

ان مأخذ حقائق الدين هو نفس المأخذ الذى يستقى منه العلم الحديث ملاحظاته ، لكى يثبت نظرية علمية . ولقد انتهينا بعد دراسة الحقائق الملحوظة الى أن تفسير الدين للطبيعة هو عين الحق حتى أن هذا التفسير لم يتغير ، ولن يتغير على مر الدهور ، على حين أن كل نظرية صاغها الانسان منذ قرن ، أو أكثر أو أقل قد رفضت أو أصبحت موضع شك الآن .

وأن صدق الدين ليتجلى بعد كل خطوة نخطوها فى الملاحظة ؛ حتى ليصبح كل كشف علمى جديد تصديقا لحقائق الدين .

ولسوف نطالع أفكار الدين من هذه الناحية فى الأبواب التالية.



# الباب الرابع

## الطبيعة تشهد بوجود الاله :

اصدرت الكنيسة المسيحية فى كيرالا جنوبى الهندكتيبا بعنوان:

« Nature and Science Speakabout God »

« الطبيعة والعلم يتحدثان عن الله » .. وأعتقد أن هذه الكلمات هى أفضل عنوان لهذا الباب .

ان أكبر دليل على وجود الاله هو مخلوقه ، هذا الذى نجده أمامنا ، وأوثق ما علمنا من حقائق الطبيعة يدعونا الى الايمان بأنه لا ريب أن لهذه الدنيا الها واحدا . ونحن لانستطيع أن نفهم أنفسنا وان نفسرها ، بله الكون كله ــ مجردين من الايمان بوجود الاله .

ان وجود الكون ، والنظام العجيب الذى اشتمل عليه ، وأسراره الدقيقة ، لايمكن تفسير ذلك كله الا بأنه قد خلقته ( قوة ) ، وان هذه القوة ( عقل ) لا حدود له ، وانها ليست بقوة عمياء .

## اولا ــ نظرية التشكيك فى الوجود :

هناك جماعة من المفكرين هزيلة العدد جدا ، « تشك » فى مجرد وجود مثل هذه القوة . وتعتقد هذه الجماعة انه لا وجود للانسان ولا للكون ، وان الوجود عبارة عن عدم محض ، ولا شيء غير ذلك.

فلو سلمنا بهذه الفكرة لالتبس علينا أمر الاله دون شك . . ولكننا حين نؤمن بأن الكون موجود نضطر تلقائيا ان نؤمن بالاله ، أو بالقوة الخالقة ــ كما نسميها ، فليس بمعقول أن نؤمن بالوجود من العدم المحض ، ذلك قياس باطل !!

فهذا التشكيك فى وجود الكون ، والذى يتخذ أحيانا شكل نظرية الـ « لا ادرية » (١) ـ يمكن أن يعد نكتة فلسفية ، لا علاقة لها بالحقيقة . فنحن حين نفكر يكون فكرنا هذا دليلا قاطعا فى ذاته على أن لنا وجودا (٢) . وحين نصطدم فى الطريق بحجارة ثم نتألم فهذا الواقع دليل فى ذاته على أن هناك عالما موجودا وجودا ذاتيا خارج وجودنا . وهكذا تدرك حواسنا فى كل وقت أشياء كثيرة ، من الفرح والألم والتذوق ، فهذا الاحساس والشعور دليل لكل شخص على أنه موجود فى كون ، وعلى أنه يملك وجوده الذاتى ، وحينئذ فلو قام أحد يشكك نفسه فى وجوده الذاتى ووجود الكون فسوف نعتبر ذلك حالة استثنائية مفردة ، لا ترتبط بتجربة الملايين من جماهير الناس : وسوف نقول عن هذا الرجل الفذ : انه قد غاب فى عالمه الذهنى ، حتى نسى نفسه . .

بل اننا لو سلمنا ـ جدلا ـ بانه ليس للكون فى ذاته وجود خارج ذاتنا ، فلست اعتبر هذا دليلا ملزما بأنه لا وجود للاله .

وعلى كل حال فهذه هى الفكرة الوحيدة التى ترى وجود الاله ، مشكوكا فيه ، بكل ما تتضمن من السفسطة والجهالة وانعدام الواقعية ، وهى فكرة لا معنى لها فى ذاتها، وليست مفهومة لدى جمهور الناس ، كما أنها لم تحظ بقبول فى دنيا العلم .

## الوجود والخلق :

ان الانسان العادى ، والعالم العادى يؤمن على كل حال بأن

---

(١) هذا مصطلح مستعمل فى اللغة الاردية مأخوذ من عبارة « لا أدرى » . يشير الى الاتجاه الذى ينكر معرفة شىء عن الكون ، لان الكون لا وجود له على الحقيقة ـ المراجع .

(٢) يستخدم المؤلف هنا تلك العبارة الفلسفية الشائعة : « أنا أفكر ، اذن فأنا موجود » .

« له » وجودا ، وبأن للكون ايضا وجودا ، وعلى هـذا الاساس من العلم والايمان تقوم جميع ألوان النشاط العلمي والحيوى .

فاذا آمنا بوجود الكون فلابد انءنؤمن باله هذا الكون منطقيا .. اذ لا معنى لأن نؤمن بالمخلوق ونرفض وجـود خالقه ، ونحن لا نعلم شيئا جاء الى الوجود من العدم ، دون أن يخلق ، فكل شيء مهمابلغ حجمه ، عظم أو صغر ، جل أو دق ، وراءه عـلة ، فكيف بنا نؤمن بأن كونا عظيما مثل كوننا ـ جاء الى الوجود ذاتيا ، دون خالق ؟ ؟

ذكر ( جون ستيوارت ميل ) فى سيرة حياته : أن أباه قد علمه ان سؤال « من الذى خلقنى ؟ » لايكفى لاثبات وجود الاله ، اذ ينجم تلقائيا سؤال : « فمن الذى خلق الاله ؟ » ، وقـد اعتبر ( برتراند رسل ) هذا الاعتراض الثانى كافيا لرفض مدلول السؤال الاول(١).

ونحن نعرف أن هذا الاستدلال قديم جـدا لدى الملحدين ، ومقتضاه : اننا لو افترضنا خالقا للكون فسوف نضطر أن نتصوره ازليا ! !

**الأزلى : الخالق ام المـادة ؟**

واذا كان لا مناص من افتراض أزلية هذا الخالق فلماذا لا نؤمن بأزلية هذا الكون وهذا الكلام لا معنى له لأننا لم نعثر على صفات للكون أية كانت تثبت أنه خالق نفسه .

ولقد كان لهذا الاستدلال حسنه ورواؤه حتى القرن التاسـع عشر ، ولكنـا اليوم ، وبعـد كشف « القـانون الثانى للحـرارة الديناميكية » Second Law of Thermo Dynamics نجد أن هذا الاستدلال فقد كل اساس كان يقوم عليه .

---

(١) Morton White, The Age of Analysis, pp. 21 - 22.

وهذا القانون الذى نسميه « قانون الطاقة المتاحة » أو «ضابط التغير » Law of Entropy يثبت انه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزليا ، فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائما من ( وجود حرارى) الى ( عدم حرارى ) ، والعكس غير ممكن ، وهو أن تنتقل دائما هذه الحرارة من ( وجود حرارى قليل ) أو ( وجـود حرارى عدم ) الى ( وجود حرارى أكثر ) . فان ضابط التغير هـــو التناسب بين ( الطاقة المتاحة ) و ( الطاقة غير المتاحة ) .

وبناء على هذا الكشف العلمى الهام فان « عدم كفاءة عمـــل الكون » يزداد يوما بعد يوم ، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات ، وحينذاك لا تبقى أية طاقة مفيدة ( للحيـــــاة والعمل)، وسيترتب على ذلك ان تنتهى العمليات الكيماوية والطبيعية وتنتهى ــ تلقائيا ــ مع هذه النتيجة « الحياة » .

❋ ❋ ❋

وانطلاقا من هذه الحقيقة القائلة بأن العمليات الكيماوية والطبيعية جارية ، وان الحياة قائمة ، يثبت لدينا قطعا أن الكون ليس بأزلى اذ لو كان الكون أزليا لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد، بناء على هذا القانون ، ولما بقى فى الكون بصيص من الحياة .

يذكر هذا التحقيق العلمى الحديث عالم أمريكى فى علم الحيوان هو الأستاذ ( ادوارد لوثر كسيل ) فيقول :

« وهكذا اثبتت البحوث العلمية ــ دون قصد ــ ان لهذا الكون بداية » فأثبتت تلقائيا وجود الاله ، لأن كل شيء ذى بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته ، ولا بد أن يحتاج الى المحـــرك الاول ــ الخالق الاله (١) .

---

(١) The Evidence of God, p. 51.

وقد قال نفس الكلام السير جيمس : « تؤمن العلوم الحديثة بأن ( عملية تغير الحرارة )Entropy سوف تستمر حتى تنتهى طاقاتها كلية ، ولم تصل هذه العملية حتى الآن الى آخر درجاتها ، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض ، حتى نفكر فيها . ان هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ، ومن ثم لابد لها من بداية ، ولابد انه قد حدثت عملية فى الكون ، يمكن أن نسميها « خلقا فى وقت ما » حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزليا » (١).

وهناك شواهد طبيعية كثيرة تثبت أن الكون لم يكن موجودا منذ الأزل ، وان له عمرا محدودا ، وعلى سبيل المثال ، نجد « علم الفلك » يقرر أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم ، وان كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة ، بعضها عن بعض . ويمكن أن نفسر هذه الحالة تفسيرا جيدا اذا نحن سلمنا بوقت للبدء ، كانت فيه كل الأجزاء التركيبية مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض ، ثم بدأت الحركة والحرارة ، ويقدر العلماء أن هذا الكون قد وجد نتيجة « لانفجار » فوق العادة ، وقع منذ ٥٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة .

فالايمان بهذا الكشف العلمى ، وهو أن للكون عمرا محدودا يتعارض مع انكار وجوده ، ومثل من يؤمن بحدوث الكون مع انكاره لوجود خالقه . كمثل من يزعم ان « تاج محل » قام بنفسه من غير بنائين ومهندسين ، مع تسليمه بأنه بنى فى القرن السابع عشر الميلادى ، ولم يكن موجودا منذ الازل .

**ثانيا ـ الكشوف الفلكية :**

يدلنا علم الفلك على أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار فى الدنيا كلها ، منها ما هو أكبر بقليل

(١) The Mysterious Universe, p. 133.

من الأرض ، ولكن اكثرها كبير جدا ، حتى يمكن ان نضع فى واحد منهـــا ملايين النجوم ، فى مثل حجم الأرض التى نعيش عليهـــــا ، ولسوف يبقى فيه مع ذلك مكان خال !!

ان كوننا هذا فسيح جدا . ولكى نفهمه نتصـــور طائرة خيالية تسير بسرعة ( ١٨٦٫٠٠٠ ) ميلا فى الثانية الواحدة ، وان هــــذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن. ان هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق ( ١٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ) سنة ، يضاف الى ذلك ان هذا الكون ليس بمتجمد ، وانما هو يتسع كل لحظة ، حتى انه بعد ( ١٫٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ) سنة تصير هــذه المسافات الكونية ضعفين !: وهكذا لن تستطيع هــــــذه الطائرة الخارقة فى سرعتها الخيالية أن تكمل دورانها حول هذا الكون أبدا ، وانما سوف تظل تواصل رحلتها فى نطاق هذا التوسع الدائم فى الكون (١) .

عندما تكون السماء صافية نستطيع ان نرى بالعين المجـــــردة خمسة آلاف من النجوم ، ولكن هذا العدد يتضاعف الى أكثر من ( ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ) من النجوم حين نستعمل تلسكوبا عاديا . وأقوى تلسكوب فى العالم هو الذى يوجد فى مرصـــد ( ماؤنت بالومار ) فى الولايات المتحدة الامريكية ، ويستطيع أن يشاهد بلايين من النجوم.

ان الفضاء الكونى فسيح جدا ، تتحرك فيه كواكب لاحصر لها، بسرعة خارقة ، بعضها يواصل رحلته وحده ، ومنها ازواج تســـير مثنى مثنى ، ومنها ما يتحرك فى شكل مجموعات ، ولو انك لاحظت ضوء الشمس الذى يدخل غرفتك من الشباك ، فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار تتحرك وتسير فى الهـــواء ، فلو استطعت ان تتخيل هذا فى شـــــــكل اعظم لأمكنك ان تحظى من الفهم بشيء عن

---

(١) هذه هى نظرية اينشتين عن الكون ، ولكنها ليست إلا « مياسا رياضيا » الحقيقة أن الانسان لم يستطع حتى الآن ان يفهم سعة هذا الكون !!

السيارات والكواكب فى الكون، مع الفرق الهائل المتمثل فى أن ذرات الغبار تتحرك ، ويتصادم بعضها مع بعض ، ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى . ومثلها مثل بواخر عديدة تمشى فى أعالى البحار متباعدة ، حتى أن احداها لا تعرف شيئا عن الأخرى . أن هذا الكون يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم ، وتسمى « مجاميع النجوم » وكلها تتحرك دائما . .

واقرب حركة منا هى حركة القمر التى تبعد عنا ( ٢٤٠,٠٠٠) ميلا ، وهو يدور حول الأرض ، ويكمل دورته فى مدة تسعة وعشرين يوما ونصف يوم . وكذلك تبعد ارضنا هذه عن الشمس ( ٩٣,٠٠٠,٠٠٠ ) ميلا ، وهى تدور فى محورها بسرعة الف ميل فى الساعة ، فى دائرة ( ١٩٠,٠٠٠,٠٠٠ ) ميلا ، وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة فى سنة كاملة . وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة. وابعد هذه الكواكب السيارة ( بلوتو ) الذى يدور فى دائرة (٧,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ميلا حول الشمس وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمرا اخرى ، توجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين الفا من « النجيمات » ، وآلاف من النجوم ذوات الأذناب ، وشهب لا حصر لها ، وكلها تدور ، وفى وسطها ذلك السيار العملاق الذى نسميه « الشمس » ، وقطرها ( ٨٦٥,٠٠٠ ) ميلا وهى أكبر من الأرض ( ١,٢٠٠,٠٠٠ ) مرة !!

ثم ان هذه الشمس ليست بثابتة ، أو واقفة فى مكان ما ، وانما هى بدورها ، مع كل هذه السيارات والنجيمات ، تدور فى هذا النظام الرائع بسرعة ( ٦٠٠,٠٠٠ ) ميل فى الساعة . . وهناك آلاف من الأنظمة ، غير هذا النظام الشمسى ، يتكون منها ذلكم النظام الذى نسميه « مجاميع النجوم » ، أو المجرات ، وكأنها جميعا طبق عظيم تدور عليه النجوم والكواكب منفردة ومجتمعة ، كما يدور الخذروف الذى يلعب به الأطفال . ومجرات النجوم هذه تتحرك

بدورها ايضا والمجرة التى يقع فيها نظـامنا الشمسى تدور على محورها بحيث تكمل ( دورة واحدة ) فى ( ٢٠٠و٠٠٠و٠٠٠ ) سـنة ضوئية » .

❋ ❋ ❋

ويقدر علماء الفلك ان هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم ، مضروبا هذا العدد فى (٥٠٠و٠٠٠ و٠٠٠ و٠٠٠و٠٠٠) ، من الملايين ، وفى كل مجموعة منها يوجد ( مائة مليار ) من النجوم ، او اكثر أو أقل ، ويقدرون ان أقرب مجموعـــة من النجوم ، وهى التى نراها فى الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيزا مداه مائة ألف سنة ضوئية . ونحن ــ سكان الأرض ــ نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين الف سنة ضوئية ، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة ، وقطر هذه المجموعة الكبيرة ( ذات السبع عشرة ) مليونان من السنين الضوئية .

ومع هذا الدوران تجرى حركة اخرى ، وهى أن هذا الكون يتسع من كل جوانبه ، كالبالون المتخذ من المطاط ، حين ينفخ فيه الأطفال ، وشمسنا هذه ــ وهى تدور حول نفسها ــ تدور بنا أيضا على الحاشية الخارجية للمجرة ، وهى تتباعد عن هـــذه الحاشية الخارجية بمقدار اثنى عشر ميلا ، كل ثانية ، كما تتبعها فى هـذه العملية جميع النجوم الداخلة فى النظام الشمسى . وهكذا جميـع السيارات تسير الى جانب أو آخر ، مع دورانها الخاص طبقا لنظامها فمنها ما يسير بسرعة ثمانية أميال فى الثانية ، ومنها ما يسير بسرعة ثلاثة وثلاثين ميلا فى الثانية ، ومنها ما يسير بسرعة أربعة وثمانين ميلا فى الثانية . وجميع النجوم ، على هذا النحـو ، تبتعد فى كل ثانية ، بسرعة فائقة عن مكانها . هذه الحركة المدهشة تحدث طبقا لنظام وقواعد محكمة ، بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ، ولا يحدث اختلاف فى سرعتها .

ان حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط ، بحيث لا يمكن أن يحدث أدنى تغير فى سرعة دورانها ، حتى بعد مرور قرن من الزمان . وهذا القمر ، الذى يتبع فى حركة الأرض ، يدور فى فلك مقرر ومنضبط ، مع تفاوت يسير جدا ، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عاما ونصف عام ، بدقة فائقة ، وتلك هى حال جميع الأجرام السماوية . ويرى علماء الفلك أن مجرات النجوم يتداخل بعضها فى بعض ، فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة ، فى مجرة أخرى مثلها ( وتتحرك سياراتها هى الاخرى ) ، ثم تخرج منها بسياراتها جميعا ، دون ان يحدث أى تصادم بين سيارات المجرتين .

وان العقل ، حين ينظر الى هذا النظام العجيب ، والتنظيم الدقيق الغريب ، لا يلبث أن يحكم باستحالة أن يكون هذا كله قائما بنفسه ، بل أن هناك طاقة غير عادية هى التى تقيم هذا النظام العظيم ، وتهيمن عليه .

* * *

**الأنظمة المعقدة :**

ان هذا النظام الذى يوجد فى العوالم الكبرى ، نجده — فى صورته الكاملة — فى أصغر عالم عرفناه ، فنحن نعرف — طبقا لاحدث معلوماتنا — انالذرة أصغر عالم ، وانها قد تناهتفى صغرها حتى لا يمكن أن نشاهدها بالمنظار الذى يكبر الأشياء ملايين المرات فهى — بناء على هذا — ليست شيئا ، بل انها « لا شىء » بالنسبة الى ادنى ما يستطيع البصر الانسانى أن يراه ، ولكن هذه الذرة — مع ماوصفناها به — تحتوى بصورة رائعةعلى نظام الدوران العجيب الموجود فى النظام الشمسى ، فالذرة اسم لمجموعة من الالكترونات وهذه الالكترونات لا يتصل بعضها ببعض ، وانما يوجد بينها فراغ كبير الحجم ( نسبيا ) . ولنأخذ مثلا قطعة من الحديد التى توجد فيها الذرات ، متصلا بعضها ببعض اتصالا شديدا . وسنجد أن

هذه الالكترونات لا تشغل اكثر من ١/١ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ من مساحة الذرة ، وبقية المجال يكون خاليا . ولو اننا أخذنا صورة مكبرة لجزئين من الالكترون والبروتون فسوف يكون الفاصل بينهما مايقرب من ثلاثمائة وخمسين ياردة . ولقد نتصور الذرة ، من حيث هي في الغبار ، غير مرئية ، ومع هذا فان حجم دوران الالكترون داخلها يبلغ حجم كرة قدم قطرها ثمانية أقدام .

والالكترون — الذى هو الجزىء السلبى فى الذرة — يدور حول البروتون — الذى هو الجزىء الايجابى فيها — وهذه الجزيئات التى لا حقيقة لها اكثر من نقط وهمية سابحة فى الشعاع ، تدور حول مركزها ، بنفس النظام الذى تتبعه الارض فى مدارها حول الشمس بحيث لايمكن تصور وجود الالكترون فى مكان محدود لسرعة دورانه ، وانما هو يتخيل فقط موجودا على طول مداره فى وقت واحد . ذلك لأنه يدور حول مداره بلايين المرات فى الثانية الواحدة !!

هذا النظام الذرى يستحيل قيامه بنفسه ، ولا طريق الى مشاهدته ، ولا يمكن تفسير عمله داخل الذرة بغير العلم ، أما وقد تبناه العلم فعلا ، فلماذا لا نأخذ منه دليلا على وجود منظم قائم على هذا التنظيم ؟ انه يستحيل قيام هذا التنظيم فى الذرة دون منظم قائم عليه .

اننا نتحير اذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون ، ونتحير اذا وجدنا ان مكالمة من لندن الى ملبورن باستراليا تتم فى بضع ثوان ، فاذا كان تعقيد نظام اسلاك التليفون يوقعنا فى هذه الحيرة ، فما بالنا بنظامنا العصبى ، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيدا ؟! ان ملايين الاخبار تجرى على اسلاك نظامنا العصبى — الذى أوجدته الطبيعة — من جانب الى آخر ، ليل نهار . وهذه الاخبار هى التى توجه القلب فى تدفقها ، وفى حركتها ، وتتحكم فى حركات الأعضاء

المختلفة ، وتتحكم فى الحركات الرئوية . ولو لم يكن هذا النظـــام موجودا فى أجسامنا لصارت الاجسام تلفيقا لأشياء مبعثرة تسلك كل منها مسلكها الخاص .

ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الانسان ، وفى هذا المخ يوجد الف مليون خلية عصبية ، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر فى سائر الجسم ، وتسمى هذه الأسلاك «الأنسجة العصبية» ، وفى هذه الأنسجة يجرى نظام استقبال وارسال للاخبار، بسرعة سبعين ميلا فى الساعة ، وبوساطة هذه الأنسجة نتذوق ، ونسمع، ونرى، ونباشر سائر أعمالنا ، بل ان هنالك ثلاثة آلاف من الشعـــيرات المتذوقة وتسمى Taste Buds ولكل منها سلك عصبى خاص متصل بالمخ . وبوساطة هذه الشعيرات يحس بالمذاقات المختلفة . وتوجد فى الأذن عشرة آلاف خلية سمعية . ومن خلال نظام معقد ، يسرى من هذه الخلايا ، يسمع مخنا . وفى كل عين مائة وثلاثون مليونامن الخلايا الملتصقة للضوء Light Receptors ، وتقوم بمهمة ارسال المجموعة التصويرية الى المخ ، وهناك شبكة من الأنسجة الحسية، على امتداد جلدنا ، فاذا قربنا الى الجلد شيئا حارا ، فان ثلاثين الفا من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فورا الى المخ . واذا قربنا الى الجلد شيئا باردا ، فان ربع مليـــون من الخلايا ، التى تلتقط الاشياء الباردة ، تحس به ، وعندئذ يمتلىء المخ بأثرها ، ويرتعد الجسم ، وتتسع الشرايين الجلدية ، فيسرع مزيد من الدم اليها ويزودها بالحرارة ، واذا أحست هـــذه الخلايا بحرارة شديدة، فان مخابرات الحرارة توصلها الى الدماغ، وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية ــ تلقائيا ــ عرقا باردا الىخارج الجسم .

والنظام العصبى يشتمل على عدة فروع . منها : « الفـــرع المتحرك ذاتيا » Autonomic Branch ويقوم بأعمال تحدث ذاتيا

فى الجسم ، كعملية الهضهم والتنفس وحركات القلب . ويندرج تحت هذا الفرع نظامان : أحدهما : « النظام الخالق للحركة » Sympathetic System والآخر : هو المانع لها Payasympathetic وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع . ولو ترك الأمر للنظام الاول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه ، ولو سيطر النظام الثانى لتوقفت حركة القلب توقفا تاما . واقسام هذين النظامين تباشر أعمالها فى دقة فائقة ، وفى توازن عام ، ولكن هناك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين ، فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب الى قوة مسعفة ، وعندئذ تزيد سرعة عمليات القلب والرئة ، والنظام الثانى يتغلب عند النوم ، فيسود السكون جميع الحركات الجسمية .

**تقليد الطبيعة :**

ان أحسن الآلات من صناعة الانسان لا يمكن أن تقف امام النظام العجيب الذى يوجد فى الكون . ولهذا فان تقليد نظام الطبيعة قد أصبح اليوم موضوعا خاصا فى العلم ، يولى أهمية خاصة للسير بالآلات الميكانيكية وفق ذلك النظام . وأصبحنا نرى علما جديدا يسمى « بيونيكس » Bionics لهذه الدراسة . وكانت مقتصرة من قبل على اكتشاف القوى الكامنة فى الطبيعة واستغلالها .

واليوم يسلك النظام البيولوجى سبلا كثيرة للحصول على معلومات تساعد على حل مسائل الهندسة .

ومن أمثلة استغلال نظام الطبيعة فى الصناعة آلة التصوير ، وهى فى الواقع تقليد ميكانيكى لعين الانسان ، فعدسة الكاميرا Lens هى كالشبكة الخارجية للعين ، والحجاب الحاجز Diaphragm هو قزحية العين Iris والفيلم الذى يتأثر بالضوء

انما هو شاشة العين التى توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية ترى الأشياء معكوسة (١) .

لقد ابتكرت جامعة موسكو آلة نموذجية لالتقاط وقياس « الذبذبات تحت الصوتية » Infar-Sonic Vibrations . وهذه الآلة تستقبل وتلتقط أخبار الفيضانات والزلازل وما شابهها من الكوارث قبل حدوثها بمدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة ، وخمس عشر ساعة . وهى أقوى من الآلات المستعملة خمس مرات . فمن أين جاء هذا التفكير الى العلماء ، لقد استنبطوه من سمكة قنديل البحر التى تسمى « هلامى » Jenyfish فقلد المهندسون أعضاءها وهى شديدة الحساسية ، حتى لتحس بالذبذبات تحت الصوتية (٢) .

وهناك أمثلة كثيرة جدا غير هذه يمكن عرضها ، وهى تؤكد أن علماء الطبيعة والتكنولوجيا يقلدون ــ فى تفكيرهم الحديث ــ النماذج الحية فى الطبيعة .

وقد شغلت بال العلماء مسائل كثيرة من ازمان مضت، على حين حلتها الطبيعة منذ زمن بعيد ، وان كانت أجهزة التصوير وتلقى الاخبار « التليبرنتر » لا يمكن وجودها بغير عقل انسانى ، فمن المستحيل أن نتصور أن نظام الكون ــ الذى هو أكثر تعقيدا من أى نظام ــ قد قام بنفسه بغير عقل وراءه، بل لابد ان له مهندسا منظما ــ هو الاله ، ولا يمكن ان يتصور العقل نظاما دون منظم ، فليس من اللامعقول ان نعتقد بوجود منظم للكون ، بل ان من اللامعقول ان

(١) لن يجرؤ صاحب علم منا ان يدعى أن آلة التصوير جاءت من نفسها ، دون اختراع انسانى . ولكن الكثيرون من علمائنا يعتقدون أن « العين » جاءت عن صدفة واتفاق محض !!.

(٢) Soviet Land, Delhl, Dec. 1963.

ننكر خالق هذا النظام ، فالحقيقة ان العقل الانسانى لا يملك أساسا عقليا لانكار الاله .

**ثالثا ــ روح الكون الغريبة :**

ليس الكون كسلة المهملات ، وانما هو منطو على روح غريبة . وهذه الروح لا يمكن أن تصدر الا عن عقل قام بخلق الكون ، ويقوم بتدبيره .

وليس من الممكن ان يوجد نظام وروح فى عملية مادية عمياء ، حدثت اتفاقا ، فالكون متوازن ، ومتناسب الى حد لا يمكن تصوره لقد قال « شادفاش » Chadvalsh : « ان من الممكن ان نسأل أى رجل ــ مؤمنا بالله كان أو منكرا له ــ نسأله ان يثبت كيف يمكن ان يكون هذا التوازن فى صالحه ، اذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة ؟ » (١) .

لابد للحياة فوق الأرض من احوال كثيرة ، يستحيل اجتماعها بنسبها الخاصة رياضيا . ولكننا نجد أن هذه الحالات المستحيل اجتماعها رياضيا موجودة على سطح الأرض فعلا . وذلك يحتم علينا أن نؤمن بأن هنالك طاقة عظيمة عاقلة وراء الكون ، هى المتسببة فى وجود هذه الحالات .

***

**التوازن المدهش فى الأرض :**

الأرض أهم عالم عرفناه ، اذ توجد فيها أحوال لا توجد فى شىء من هذا الكون الواسع ، وهى فى ضخامتها (كما تبدو لنا ) لاتساوى ذرة من هذا الكون العظيم ، ولو أن حجمها كان أقل أو أكثر ، مما هى عليه الآن لاستحالت الحياة فوقها ، فلو انها كانت فى حجم القمر

---

(١) The Evidence of God, p. 88.

مثلا ، بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلا . لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية ، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها ، كما هى الحال فى القمر ، الذى لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائى ، لضعف قوة الجاذبية فيه . وانخفاض الجاذبية فى الأرض الى مستوى جاذبية القمر سينرتب عليها اشتداد البرودة ليلا حتى يتجمد كل ما فيها ، واشتداد الحرارة نهارا حتى يحترق كل ما عليها .

وكذلك يترتب على نقص حجم الأرض الى مستوى حجم القمر انها لن تمسك مقدارا كبيرا من الماء . وكثرة الماء امر ضرورى لاستمرار الاعتدال الموسمى على الارض ، ومن ثم أطلق أحد العلماء على هذه العملية لقب « عجلة التوازن العظيمة » Great Balance Wheel (١) وكذلك سيرتفع الغلاف الهوائى الأرضى للارض فى الفضاء ثم يتلاشى . ويتبع ذلك من تتبع درجة حرارة الارض اقصى معدلها ، ثم تنخفض الى ادنى درجاتها ، على ما سبق ذكره .

وعلى العكس من ذلك ، اذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى لتضاعفت جاذبيتها الحالية ، وحينئذ ينكمش غلافها الجوى – الذى هو على بعد خمسمائة ميل – الى مادون ذلك . وسيترتب على هذا ان يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا الى ثلاثين من الضغط الجوى ، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر فى الحياة .

ولو أن الأرض تضاعف حجمها ، فصارت مثل حجم الشمس مثلا ، لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل جاذبيتها الحالية مائة وخمسين مرة ، ولاقترب غلافها الهوائى ، حتى يصير منها على بعد أربعة اميال فقط ، بدلا من خمسمائة ميل ، ولارتفع الضغط الجوى الى معدل طن واحد على كل بوصة مربعة . وذلك يؤدى الى استحالة

(١) The Evidence of God, p. 88.

نشأة الأجسام الحية ، وهو من الناحية النظرية يعنى أن يصير وزن الحيوان الذى يزيد رطلا واحدا ــ تحت الكثافة الهوائية الحالية ــ خمسمائة رطل . كما يهبط حجم الانسان حتى يصير فى حجم فأر كبير ، ولاستحال وجود العقل فى الانسان ، لأنه لابد للعقل الانسانى من انسجة عصبية كثيرة فى الجسم ، ولا يوجد هذا النظام الا اذا كان حجم الجسم بقدر معين .

* * *

نحن قائمون على الأرض ظاهرا ، ولكن الأصح أن نقول : نحن ملقون على رؤوسنا ، ولتوضيح ذلك نقول : أن الأرض مثل كرة معلقة يسكنها الانسان ، فوضع الناس بعضهم بالنسبة الى بعض على هذه الكرة معناه أن سكان أمريكا سيكونون تحت سكان أهالى الهند ، وسكان الهند سيكونون تحت أقدام سكان أمريكا .

فأرضنا هذه ليست بثابتة ، وانما هى تدور بسرعة مقدارها الف ميل فى الساعة ، وذلك يجعل وضعنا فوقها أشبه بحصاة وضعت على محيط عجلة تدور بسرعة ، يوشك ان تقذف بها فى الفضاء ، ولكن الأرض لا تقذفنا ، بل نحن مستقرون عليها ، فكيف تمسكنا وهى تدور بهذه السرعة ؟ ! . .

أن فى الأرض جاذبية غير عادية ، وهى بهذه الجاذبية تشد كل شىء اليها ، فجاذبية الأرض وضغط الهواء المستمر يمسكاننا فوقها بنسبة معلومة ، وهكذا صرنا مشدودين بهاتين العمليتين الى كرة الأرض من كل ناحية .

وضغط الهواء الذى يكون على كل بوصة مربعة ما يقرب من ١٥ رطلا معناه : ان كل انسان يتحمل ما يقرب من ٢٢٨ر٤٠ رطلا من الضغط الجوى على جسمه ، ولكن الانسان لا يحس بهذا الوزن ، لأن الهواء يضغطه من كل ناحية ، كما يحدث عندما نسبح فى الماء .

ثم أن الهواء ــ وهو علم معين مركب من الفازات ــ ذو فوائد كثيرة، لا يمكن حصرها فى كتاب .

* * *

لقد توصل نيوتن ، من خلال مشاهــداته ومطالعاته ، الى أن الأجسام يجر بعضها بعضا، ولكنه لم يستطع تعليل هذا، ولذا سلم بأنه لا تفسير لديه لهذه العملية .

ولقد ذكر هذه المسألة « هوايت هيد » قائلا :

« لقد كشف نيوتن ــ حين سلم بهذا ــ عن حقيقـــة فلسفية عظيمة ، هى ان الطبيعة لو كانت بغير روح فلن تفسر نفسها ، كما ان الشخص الميت لا يستطيع ان يحكى لنا واقعا . أن جميـــــع التفسيرات الطبيعية والمنطقية لم تزد أخيرا على أن تكـــون اظهارا لهدف ، لأن الميت لا يمكن ان يكون حامل (١) أهداف » .

وسوف ادفع حديث ( هوايت هيد ) الى الأمام قائلا : انه اذا لم يكن هذا الكون تحت سلطان « وجود ذى ادراك » فلماذا توجد فيه هذه الروح المدهشة ؟

ان الأرض تتم دورة واحدة حول محورها ، فى كل اربع وعشرين ساعة . ومعنى ذلك أنها تسير حول محورها بسرعـــة الف ميل فى الساعة ، فاذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت الى مائتى ميـــل فى الساعة ، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات ، بالنسبة الى ماهى عليه الآن، ويترتب على ذلكأن تحرق الشمس ــ بشدة حرارتها ــ كل شىء فوق الأرض ، وما بقى بعـــــد ذلك ستقضى عليه البرودة الشديدة فى الليل .

---

(١) The Age of Analysis, p. 85.

وهذه الشمس ، التى نعدها اليوم وسيلة حياتنا ، تبلغ حرارة سطحها اثنى عشر الف درجة فهرنهيت ، والمسافة بينها وبينالأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ميلا . وهذا البون الهائل دائم ، لا يتغير أبدا بزيادة أو نقص ، وفى ذلك عبرة عظيمة لنا لانه لو نقص واقتربت الشمس من الأرض بمقدار النصف ، مثلا ، من الفصل الحالى ، فسوف يحترق الورقعلى الفور من حرارتها ، ولو بعد هذا الفاصل ، فصار ضعف ما هو عليه الآن فان البرودة الشديدة التى تنجم عن هذا البعد ، سوف تقضى على الحياة فى الارض ، ولو أنه حل محل الشمس سيار آخر غير عادى ، يحمل حرارة تزيد على حرارة الشمس عشرة آلاف مرة ، فسوف يجعل من الأرض تنورا رهيبا .

ثم أن هذه الأرض دائرة فى الفضاء ، وهى تؤدى عملها بزاوية ٣٣ ٥ درجة الأمر الذى تنشأ عنه المواسم ، ويترتب عليه صلاحية اكثر مناطق الأرض للزراعة والسكنى ، فلو لم تكن الارض على هده الزاوية لغمر الظلام القطبين طول السنة ، ولسار بخار البحار شمالا وجنوبا ، ولما بقى على الأرض غير جبال الثلج ، وفيافى الصحراوات ، وهكذا تنجم مؤثرات كثيرة تجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة .

فلو كان قياس العلماء صحيحا ، وهو : أن المادة قد نظمت ذاتها على هذه الهيئة المناسبة المتوازنة ، فما أعجب هذا القياس ، وما أكثر اثارته للدهشة !! . يقولون : ان الأرض انشقت من الشمس ، ومعنى هذا : ان درجة حرارتها كانت فى مبدأ أمرها ، نفس حرارة الشمس ، وهى اثنا عشر الف درجة فهرنهيت ، ثم بدأت الأرض تبرد ، اذ لا يمكن اتصال الأوكسجين بالهيدروجين الا بعد أن تنخفض الحرارة الى أربعة آلاف فهرنهيت — وفى هذه المرحلة وجد الماء ، وهكذا استمرت عمليات التقلب على سطح الأرض ملايين السنين ، حتى جاءت الأرض فى صورتها الحالية ، منذ أكثر

من بليون سنة مضت ، وذهبت الغازات من فضـاء الأرض الى فضـاء الكون ، وتحولت بقايا الغازات بعد ذلك الى المركب المائى ، او انجذبت الى الأشياء الأرضـية ، أو بقيت فى صـورة الهواء ، واكثرها فى صورة الأوكسجين أو النتروجين . وهـذا الهواء ، فى كثافته ، يعد جزءا واحدا من ....ر...ر٢ من أجزاء الأرض . ولم تنجذب كل الغازات الى الأرض ، كما انها كلها لم تتحول الى (هواء) ولو أنه حدث، لاستحالت حياة الانسان ، فلو أننا فرضنا المستحيل، ووجدت الحياة فى ظروف كهذه – تتحمل فيها البوصة المربعة آلاف الأرطال من الضغط الجوى – لكان من المستحيل أن توجـد الحياة فى صورة الانسان الحالية .

ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكا ، بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالى ، لما وجد الاوكسجين (١) ، وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية .

وكذلك لو كانت البحار اعمق بضعة أقدام ، أكثر من القـاع الحالى ، لانجذب ( ثانى أكسيد الكربون ) ، والأوكسجين(٢) ، ولاستحال وجود النباتات على الأرض ، فضلا عن الحياة .

ولو كان الغـلاف الهوائى للارض الطف ممـا هو عليه الآن ، لاخترقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجى ، ولرأيناها مضيئة فى الليل ، ولسقطت على كل بقعة من الأرض واحرقتها ، فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلا فى الثانية ، ونتيجة لهذه السرعة العظيمة ، فانها ستحرق كل شىء يمكن احتراقه على الأرض حتى تصبح الارض غربالا فى وقت ليس ببعيد ..

فلولا أن غلاف الأرض الهوائى يقينا من هذه الشهب لاحترقنا . فان سرعتها أكثر من سرعة طلقة البندقية تسـعين مرة كما ان حرارتها الشديدة كافية لاهلاك كل شىء ، بما فيه الانسان . فنحن

---

(١) اذ أن القشرة الارضية ستمتص حينئذ الاوكسجين .

(٢) حتى يمتصهما الماء .

اذن فى حماية هـذا الغلاف الكثيف الموزون ، الذى لا تخترقه « الاشعة الشمسية ذات الاهمية الكيماوية »Actinic Rays الا بالقدر الذى يكفى لحياة النبات ، وايجاد الفيتامينات ، والقضاء على الجراثيم الضارة ، وما الى ذلك ..

ان هذا التوازن للكميات ، المحتاج اليها ، عجيب جدا ، فالغلاف الذى فوق الأرض مكون من ستة غازات ، منها ٧٨ فى المائة من النتروجين ، و٢١ فى المائة من الاوكسين ، والغازات الأخرى توجد بنسب قليلة ، وهذا الغلاف يضغط الارض بنسبة ١٥ رطلا فى البوصة المربعة ، ونسبة الاوكسجين فى هذا الضغط ٣ أرطال فى البوصة المربعة ، والمقادير الاخرى للاكسوجين الموجود اليوم قد انجذبت الى الأرض ، وهى تمثل ٨ر. من الماء الموجود على سطح الأرض ، والأوكسجين هو الوسيلة الوحيدة لتنفس سائر حيوانات الأرض ، ولا طريق الى ذلك من غير الفضاء .

## قانون الضغط والتوازن :

وهنا يظهر سؤال هام ، وهو : كيف تجمعت هـذه الغازات الشديدة الحركة ، مع احتفاظها بمقاديرها المتناسبة ، التى لابد منها للحياة ، فى الفضاء .

والجواب : انه لو كانت نسبة الأوكسجين ٥٠٪ ، أو أكثر ، بدلا من ٢١٪ ، لزادت قابلية الاحتراق ، بما يساوى ارتفاع هذه النسبة ... فاذا احترقت شجرة واحدة فى غابة ، حينما تكون نسبة الأوكسجين ٢١٪ ، فان الانفجار الخاطف ، الناجم عن ارتفاع هذه النسبة الى ٥٠٪ يجعل احتراق الغابة كلها أمرا حتميا ، فى لحظات !

ولو أن هـذه النسبة انخفضت ، فأصبحت ١٠٪ ، لكان من الممكن ، على مدى القرون ، أن تعتاد الحيوانات الحياة مع انخفاض

نسبة الأوكسجين الى هذا الحد ، ولكنه يكون من المستحيل أن تزدهر الحضارة الانسانية ، كما هي عليه في الظروف الحالية (١) .

ولو أن الأوكسجين الموجود على سطح الأرض انجذب مع الأوكسجين ، الذي انجذب قبل ذلك في الأرض ، لكان من المستحيل ( الوجود الحيواني الحسي ) .

ان الأوكسجين والهيدروجين وثاني أوكسيد الكربون ، وغازات الكربون الأخرى ، على اختلاف أشكالها ، تتركب معا فتصبح عناصر عظيمة الأهمية للحياة الحيوانية ، وللاسس التي تقوم عليها الحياة الانسانية ، وبناء عليه لا يوجد احتمال $\frac{١}{١٠٫٠٠٠٫٠٠٠}$ أن تجتمع هذه الغازات في تناسبها المطلوب وبجميع خصائصهااللازمة للحياة، على كوكب معين ، بطريق الصدفة .

ولذلك يقول احد كبار علماء الطبيعة :

« Science has no explanation to offer for the racts, and to say it is accidental' is to defy mathematics. »

« أن العلم لا يملك أي تفسير للحقائق ، والقول بأنها حدثت « اتفاقا » انما يعتبر تحديا وتصادما مع الرياضيات » .

ان هناك وقائع كثيرة جدا ، لا طريق لنا الى فهمها أو تفسيرها، الا اذا سلمنا بأن للعقل يدا عليا في أحداثها . .

---

(١) اذ أن أعضاء الجسم الانساني على فرض وجودها في هذه الحالة لن تتمكن في تلك الظروف من مواصلة عملها كعادتها اليوم في الظروف المتاحة فعلا ، وذلك لاستحالة وجود الانسجة والخلايا البدنية والعقلية في ظل تلك الظروف ، لانه كلما قل الاكسجين قل النشاط الجسماني والعقلي .

فمن الخصائص المهمة التى توجد فى الماء أن كثافة الثلج Density تقل بنسبة كبيرة عن كثافة الماء ، فالماء اذن مادة معلومة ، تقـل كثافتها بعد التجمد . ولهذا الأمر قيمة عظيمة بالنسبة الى الحياة ، اذ يترتب على هذه الخاصة أن الثلج يطفو على سطح الماء ، ولا ينزل الى قاع البحار والأنهار ، ولولا ذلك ، لكان الماء كله قد تجمد فى البحار ، والأنهار ، والخزانات المليئة ، ان الثلج يقوم بدور الحاجب للماء الذى تحته ، كما تبقى حرارته دون درجة التجمد ، فتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة . فاذا ماجاء موسم الربيع ذاب الثلج ، ولولا خاصة الثلج هذه لعانى سكان الأقطاب الباردة الكثير من المتاعب والمصائب ، الناجمة عن عدم ذوبان الثلج ،

لقد أصاب مرض الأندوثيا Endothia فى أوائل القرن العشرين أشجار ( شاه بلوط ) الثمينــة فى غابات أمريكا ، وانتشر بسرعة فائقة ، فقال بعض من رأى تلك المواضع الخربة الكبيرة فى « مظلة الغابات » : انها لن تمتلىء أبدا !!

ولم يكن اى نوع من الأشجار ـ حتى ذلك الحين ـ قد انتزع هذا الامتياز الذى كان خاصا بهذا النوع من أشجار البلوط ، ذات الأخشاب الثمينة الغالية ، حتى كان يلقب : « ملك أشجار الغابات الأمريكية » ، قبل وصول وباء الأندوثيا من آسيا سنة ١٩٠٠ م تقريبا .

أما الآن ، فلا توجد هناك اية آثار لشاه بلوط ، ذلك الشجر العظيم ، فى الغابات الأمريكية . ولكن سرعان ما امتلات تلك المواضع فى غابات أمريكا بنوع آخر من الأشجار ، يسمى : « التيوليب » ، كانت لا تحتل من الغابات الا حيزا صغيرا ، ولم تكن مزدهرة .

لقد انتهزت اشجار « التيوليب » هذه الفرصة ، فازدهرت وحلت محل شاه بلوط . واليوم لا يتذكر اى تاجر أخشاب امريكى وجود اشجار شاه بلوط ، لقد حلت محلها أشجار « التيوليب » ،

التى تتضخم كل سنة بنسبة بوصة واحدة فى الجذع ، وترتفع ست بوصات فى الفروع والأغصان ، كما تعطى خشبا ممتازا يستعمل فى جميع الصناعات الدقيقة .

***

ومن الأحداث العلمية الهامة التى وقعت فى هذا القرن ماحدث فى استراليا . . لقد زرعوا نوعا خاصا من «الصبار» فى مزارعها لكى يحميها ، ولم يكن فى استراليا اى نوع من الدودة يعادى ويأكل هذا النبات ذا الشوك ، فأخذ ينتشر انتشارا رهيبا ومروعا ، حتى استولى على منطقة توازى مساحة جزر بريطانيا كلها ، لقد هاجم الصبار القرى والمدن ، وخرب المزارع والحقول ، حتى استحالت الزراعة ، ولم يتمكنوا من استئصاله بأية طريقة لقد اصبح جيشا جبارا ، يزحف لكى يسيطر على استراليا كلها ، وهى لا تجد ما تقاوم به ، واستمرت هذه الحال ، حتى خرج علماء الحشرات ، يبحثون عن دودة تأكل الصبار . فاكتشفوا دودة لا تعيش الا عليه، ولا غذاء لها سواه ، وقد كان نسلها يزيد بسرعة ، ولا عدو لها فى حشرات استراليا ، وسرعان ماتغلبت هذه الدودة الصغيرة على جيش الصبار العظيم ، وانتهت مصائب استراليا !! .

ايمكن أن يكون هذا القانون ـ « قانون الضبط والتوازن Checks and Balances قد حدث دون تخطيط واع ، هكذا صدفة واتفاقا ؟!

**السنن الرياضية المحكمة :**

**وفى الكون سنن رياضية محكمة ، بصورة تدعو الى الدهشة والاكبار ، وحتى المادة الجامدة ، التى لا تملك شعورا ، لا يمكن ان تجرى على غير نظام ، وانما هى تتبع قوانين صارمة معلومة ، ولفظ الماء اينما كان الماء على هذه الأرض الواسعة ، لن يكون معناه سوى**

مادة سائلة تحتوى على ١ر١١٪ من الهيدروجين ، و ٩ر٨٨ من الأوكسجين . ولذلك يستطيع أى عالم يجرى عملية تسخين الماء فى معمله أن يقول بكل قطعية : ان درجة حرارة غليان الماء هى (١٠٠) سنتى جراد ، دون أن يرى مقياس الحرارة ، ما دام ضغط الهواء ٧٦٠ م.م. فاذا كان ضغط الهواء أقل ، فسوف نحتاج طاقة أقل لتوفير الحرارة التى تدفع جزئيات الماء . وتعطيها صورة البخار وحينئذ سوف تنخفض درجة غليان الماء ، وعلى العكس ، لو كان ضغط الهواء أكثر من ٧٦٠ م.م. فستزداد درجة الغليان ، بمقدار زيادة ضغط الهواء . لقد جربوا هذه العملية مرارا ، الى أن تمكنوا من البت فى أمر الغليان ، حتى قبل تسخين الماء ، والتنبؤ بدرجة غليانه دون استعمال المقياس ، ولو لم يكن هذا النظام والضبط فى المادة وعمليات الطاقة ، لما وجد الانسان أسسا يقيم عليها كشوفه ومنجزاته ، العلمية . ولولا هـذا النظام والضبط لحكمت عالمنا الاتفاقات والصدف المحضة ! ولكان من المستحيل على علماء الطبيعة أن يقولوا : أنه بمباشرة عمل ما فى حالة معينة تحصل نتيجة كذا .

**نظام العناصر والدورية :**

ان أول شىء يشاهده الطالب فى معمل الكيمياء هو نظام العناصر ودوريتها ، وقد وضع العالم الروسى « مانديليف » خريطة العناصر الكيماوية ، بمقاديرها الجوهرية ، وسميت ب « الخريطة الدورية» Periodic Chart وفى ذلك الوقت لم تكن كل العناصر قد تم كشفها ، حتى تملأ كل الخانات الموجودة فى الخريطة ، فتركها « مانديليف » خالية ، الى أن ملأها العلماء فيما بعد ، كما تخيلها العالم الروسى من قبل كشفها بسنين طويلة ، وهذه الخريطة تحوى جميع العناصر الجوهرية بأرقام وقوائم مختلفة . ومعنى الأرقام الجوهرية هو العـدد الخاص الذى يوجـد فى مركز الذرة ، من الشحنات الكهربائية الايجابية « البروتون » ، وهـذا العدد هو الفـارق بين ذرة عنصر وذرة عنصر آخر ، فالهيـدروجين ، الذى

نعتبره أبسط عنصر يوجد فى مركز ذرته شحنة واحدة من الكهربية الايجابية ، وكذلك توجد فى العنصر المسمى « هليم » شحنتان ، وفى « ليثيم » ثلاث شحنات . وما كان لنا أن نتمكن من وضع خرائط العناصر المختلفة الا بناء على قوانينها الرياضية العجيبة . وهل هناك مثال للضبط افضل من اننا عثرنا على العنصر رقم ( ١٠١ ) بمجرد معرفة شحناته الكهربية الخمسة عشر ؟ !!

ليس من الممكن أن يطلق العلماء على هذا النظام الرائع فى الطبيعة عبارة : « الصدفة الدورية » Periodic Chance وانما هو « القانون الدورى » Periodic Law وليس من الممكن أن نتنكر لما تطلبه هذه الضوابط والنظم من وجود اله ومهندس .. فان عدم ايمان العلم الحديث بالاله انكار فى الواقع لكشوفه كنتيجة حتمية !

***

« سوف يحدث كسوف للشمس يوم ١١ أغسطس سنة ١٩٩٩ ويمكن رؤيته كاملا فى كورنفال » (١) ، ليس هذا مجرد تنبوء قياسى ولكن علماء الفلك يؤمنون بأنه لابد من هذا الكسوف ، بناء على نظام دوران الشمس الموجود حاليا .

ولكم نتحير عندما نرفع أعيننا الى السماء ، ونشاهد الكواكب والنجوم التى لا حصر لها ، ان هذه الكرات السماوية ، التى لا تزال معلقة فى الفضاء ، منذ قرون لا نعرف عدتها ، تدور فى الفضاء الفسيح السحيق على نظام معين معلوم بحيث يمكننا معرفة جميع الوقائع المستقبلة قبل وقوعها بقرون . انه نظام لا مثيل له . من الذرة الى قطرة الماء الى الكواكب السحيقة فى أجواز الفضاء .. نظام تستنبط على اساسه قوانين علمية !

---

(١) بلدة فى جنوب عربى انجلترا ( **المراجع** ) .

ان نظرية « نيوتن » تفسر دوران الكرات الفلكية ، وبناء على هذه النظرية استطاع العالمان : آدمز ولا فرير ان يتنبأ بوجود كوكب ، لم يكن معروفا وجوده فى وقتهما ، وبناء على قولهما وجه مرصد برلين فى ليلة من ليالى سبتمبر سنة ١٨٤٦ تلسكوبا الى الجهة التى اشار اليها ، وسرعان ما وجد رجال المرصد الكوكب الذى نسميه اليوم ( السيار نبتون ) ، فى اسرة الشمس !!

**خصائص حكيمة :**

ان ابعد الأمور عن القياس ، واعظمها استحالة ، هو أن نؤمن بأن الكون وقطعيته .. الرياضية ، جاءا نتيجة « صدفة » !

فمن الخصائص الحكيمة فى هذا الكون كونه صالحا لتصرفات الانسان عند الضرورة ، ولنأخذ النتروجين على سبيل المثال .. فان ٧٨٪ من النتروجين توجد فى كل هبة من الرياح ، وكذلك توجد فى أجزاء كيماوية أخرى ، ونسميها حينئذ « النتروجين المركب » ، وهذه كلها يستغلها النبات لكى يهيىء لنا الجزء النتروجينى فى غذائنا ، فلولا هذه العملية ، لهلك الحيوان والانسان ، وكل ما يعتمد على النبات فى أكله جوعا وفاقة ، فان اى نبات غذائى لا ينمو بدون هذا التحليل الكيماوى .

ان هناك طريقتين لا ثالثة لهما ، لتحليل النتروجين فى الأرض ، والطريقة الأولى : هى « العملية الجرثومية » ، وتقوم بأدائها الجراثيم التى تعيش فى جذور الشجرة تحت الأرض ، وهذه الجراثيم تأخذ النتروجين من الهواء ، وتصنع منه « النتروجين المركب » ، ويبقى هذا النتروجين تحت الأرض ، بعد الحصاد ، مع الجذور ، وأما العملية الثانية التى تصنع النتروجين المركب فهى ( الرعد ) .. فكلما احتك الرعد فى الفضاء ، مزج شيئا من الأوكسجين فى النتروجين ، ويصل هذا النتروجين المركب الى الحقول عن طريق الأمطار التى تلى العملية ، والكمية التى تحصلها

الحقول من هذا المركب بسهولة ، فكل ابسلة ، هي ما يقرب من خمسة أرطال لكل «اكر» (١) من الأرض وهي تساوى ثلاثمائة رطل من نترات الصوديوم (٢) .

ولكن هذه الكمية من النتروجين المركب لا تكفى ، لأن الحقول التى تزرع لمدة طويلة ينفد ما فيها منه . ولذلك نرى الزراع يحولون المواسم الزراعية من حقل لآخر ، بعد وقت معلوم . وأعجب ما حدث فى هــذا القرن ــ عنــدما ضاقت الأرض بمــا رحبت على سكانها ، وقل النتروجين لكثرة الزراعة ، وخافت الإنسانية من القحط والفاقة ــ اكتشفنا فى هذه المرحلة الخطيرة « طريقة ثالثة » لاستمداد النتروجين من الهواء ، وكانت الجهود الأولى ، التى بذلت فى هذا الصدد ، أنهم جربوا عملية خلق رعد صناعى فى الفضــاء باستعمال آلات قوتها ٣٠٠٠٠٠٠ حصان ، غير أنهم لم ينجحوا الا فى صناعة كمية ضئيلة من النتروجين المركب . وتقدم الانسان بهذه التجارب ، حتى كشف الطريقة الثالثة ، وهى استخدام الهواء فى صياغة النتروجين المركب ، فى صورة ( السماد ) وهكذا استطاع ان يهيء لغذائه جزءه الضرورى ، الذى لولاه لهلك جوعاً . وهذا حدث عجيب فى تاريخ الأرض ، فان الانســـان كشف للمرة الأولى فى تاريخه حلا لأزمة الغذاء ، وابتعدت أشباح الكارثة عن سكان الأرض ، حين كان من المستحيل أن يتجنبوها !!

ان هناك امورا كثير تؤكد وجود الحكمة والروح فى الكون ، وكل ما لدينا من علم يؤكد لنا ان ما قد كشفنا أقل بكثير مما لم نستطع حتي الآن الكشف عنه ! وبرغم ذلك فان ما كشفه الانسان كثيرا جداً ، حتي اننا لو اردنا فهرسة عناوين هذه العلوم ، فسنحتاج

(١) مقياس انجليزى لسطح الارض ، وهو اقل من ( فدان ) المراجع .

(٢) Lyon, Buckman and Brady, The Nature and Properties of soils. The Mysterious Universe, pp. 3, 4.

الى سفر ضخم جـدا ، بالنسبة الى هـذا الكتاب الذى بين يدى القارىء ، وسوف يبقى بعد ذلك أيضا الكثير منها دون فهرسة . .

ان كل ما يمكن للسان الانسانى أن يلفظه عن آلاء الله وآياته سوف يكون غاية فى النقص ، فمهما فصلناها واسهبنا فى تفسيرها فسنخرج آخر الأمر مقتنعين بأننا لم نحط بها ، وانما تناولنا منها « بعض الشىء » .

والحق انه لو قدر أن تنكشف للانسان جميع العلوم الكونية ، ثم يجلس سكان المعمورة ، وقد هيئت لكل فرد منهم جميع الوسائل فى أكمل صورها ، فان هؤلاء جميعا لن يستطيعوا تدوينها أبدا . . اليس هذا هو مصداق قوله تعالى :

**« ولو ان ما فى الأرض من شجرة اقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفذت كلمات الله » . . وقوله تعالى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » (١) !**

ان كل من أتيحت له الفرصة كى يطالع صفحة هذا الكون ، سيعترف مصدقا انه لا مبالغة فى هذه الكلمات الالهية ، وانما هى تعبير بسيط عن الحقائق الموجودة فعلا .

## صدفة ام عمليات حكيمة ؟

ان معارضى الدين يسلمون بكل ما طرحناه فى الصفحات الماضية من الأنظمة العجيبة ، والحكمة غير العادية ، والروح التى تسرى فى الكون ، ولكنهم يفسرونها بطريقة أخرى ، انهم عاجزون عن أن

---

(١) لقمان ٢٧ ، والكهف ١٠٩ .

يجدوا فيها رمزا أو اشارة لمنظم ومدبر .. فاذا بهم يرون ان كل هذا جاء نتيجة « صدفة محضة » .

واستمع الى قول « هكسلى » :

« لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة ، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين ، فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير ! فكذلك كان الكون ، الموجود الآن ، نتيجة لعمليات عمياء ، ظلت تدور فى «المادة» لبلايين السنين (١) .

ان أى كلام من هذا القبيل « لغو مثير » ، بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان ، فان جميع علومنا تجهل ـ الى يوم الناس هذا ـ اية صدفة انتجت واقعا عظيما ذا روح عجيبة ، فى روعة الكون ، فنحن نعرف بعض الصدف ، وما ينشأ عنها من آثار ، فعندما تهب الرياح تصل « حبوب اللقاح » من وردة حمراء الى وردة بيضاء ، فتأتى بوردة صفراء .. هذه صدفة لا تفسر قضيتنا الا تفسيرا جزئيا استثنائيا ، فان وجود الوردة فى الأرض بهذا التسلسل ، ثم ارتباطها المدهش مع نظام الكون ، لا يمكن تفسيره بهبة رياح صدفة . انها تأتى بوردة صفراء ولكنها لا تأتى بالوردة نفسها ! ان الحقيقة الجزئية الاستثنائية التى توجد فى مصطلح « قانون الصدفة » باطلة كل البطلان ، اذا ما أردنا تفسير الكون بها .

يقول البروفسيور ايدوين كونكلين :

« ان القول بأن الحياة وجدت نتيجة « حادث اتفاقى » شبيه فى مغزاه بأن نتوقع اعداد معجم ضخم ، نتيجة انفجار صدفى يقع فى مطبعة » (٢) .

---

(١) The Mysterious Universe, pp. 3-4.

(٢) The Evidence of God, p. 174.

وقد قيل : ان تفسير الكون بواسطة « قانون الصدفة » ليس « بكلام فارغ » . بل هو كما يعتقد السير جيمس جينز ينطبق على « قوانين الصدفة الرياضية المحضة » .

(1) "Purely Mathematical Laws of Chance"

ويقول احد العلماء الامريكيين :

« ان نظرية الصدفة ليست افتراضيا ، وانما هي نظرية رياضية علميا ، وهي تطلق على الامور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية وهي تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق ، وللتدقيق في امكان وقوع حادث من نوع معين ، وللوصول الى النتيجة التي هي معرفة مدى امكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة »(2) .

ولو افترضنا ان المادة وجدت بنفسها في الكون ، وافترضنا ايضا ان تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها (ولست اجد اساسا لأقيم عليه هذه الافتراضات) ففي تلك الحال ايضا لن نظفر بتفسير الكون ، فان « صدفة » اخرى تحول دون طريقنا ، فلسوء حظنا ان الرياضيات التي تعطينا فكرة « الصدفة » الثمينة ، هي نفسها التي تنفي اية امكانية رياضية لوجود الكون الحالي بفعل قانون الصدفة .

لقد استطاع العلم الكشف عن عمر الكون وضخامة حجمه ، والعمر والحجم اللذان كشف عنهما العلم الحديث غير كافيين في اي حال من الاحوال ، لتسويغ ايجاد هذا الكون عن قانون الصدفة الرياضي .

ويمكننا ان نفهم شيئا عن قانون الصدفة من المثال التالي :

« لو تناولت عشرة دراهم ، وكتبت عليها الاعداد

---

(1) Mysterious Universe, p. 3.

(2) The Evidence of God, p. 23.

دراهم مرقمة من ١ إلى ١٠ في جيبك، ثم اخلطها جيداً، ثم حاول أن تخرجها من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي، بحيث تلقي كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى. فإمكان أن تتناول الدرهم المكتوب عليه (١) في المحاولة الأولى هو واحد على عشرة، وإمكان أن تتناول الدرهمين (١، ٢) بالترتيب واحد في المائة، وإمكان أن تخرج الدراهم (١، ٢، ٣، ٤) بالترتيب هو واحد في العشرة الآلاف، حتى أن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم (١ إلى ١٠) بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات»!

لقد ضرب هذا المثال العالم الأمريكي الشهير «كريسي موريسن» ثم استطرد قائلاً: إن الهدف من إثارة هذه المسألة البسيطة ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد « الوقائع » بنسبة كبيرة جداً في مقابل « الصدفة » (١)

* * *

ولنتأمل الآن في أمر هذا الكون، فلو كان هذا بالصدفة والاتفاق، فكم من الزمان استغرق تكوينه بناء على قانون الصدفة الرياضي؟

إن الأجسام الحية تتركب من الخلايا الحية، والخلية هي مركب صغير جداً وفي غاية التعقيد، وهي تدرس تحت علم خاص يسمى « علم الخلايا » Cytology ومن الأجزاء التي تحتوي عليها هذه الخلايا: البروتين، وهو مركب كيماوي يجمع خمسة عناصر، هي: الكربون، والهيدروجين، والنتروجين، والأوكسجين، والكبريت. ويشتمل الجزيء البروتيني الواحد على أربعين ألفاً من ذرات هذه العناصر Amino-Acids [illegible]

(١) Man Does not Stand Alone, p. 17.

وفى الكون أكثر من مائة عنصر كيماوى ، كلها منتشرة فى ارجائه فاية نسبة فى تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون فى صالح قانون « الصدفة » ؟ أيمكن أن تتركب خمسة عناصر — من هـذا العدد الكبير —لايجاد « الجزىء البروتينى » بصدفة واتفاق محض ؟ اننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضى ذلك القدر الهائل من ( المادة ) الذى سنحتاجه ، لنحدث فيه الحركة اللازمة على الدوام ، كما نستطيع أن نتصور شيئا عن المـدة السحيقة التى سوف تستغرقها هذه العملية .

لقد حاول رياضى سويسرى شهير ، هو الأسـتاذ ( تشارلز بوجين جواى ) أن يستخرج هـذه المدة عن طريق الرياضـة .. فانتهى فى أبحاثه الى أن ( الامكان المحض ) فى وقوع الحادث الاتفاقى — الذى من شأنه أن يؤدى الى خلق كون ، اذا ما توفرت المادة — هو واحـد على $\frac{٦٠}{١٠}$ ( أى : ١٠ x ١٠ مائة وسـتين مرة ) .

وبعبارة أخرى : نضيف مائة وستين صفرا الى جانب عشرة !! وهو عدد هائل لا يمكن وصفه فى اللغة .

ان امكان حدوث الجزىء البروتينى عن ( صدفة ) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن فى سائر الكون ، حتى يمكن تحريكها وضخها ، وأمـا المدة التى يمكن فيهـا ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية ، فهى أكثر من $\frac{٢٤٣}{٦٠}$ سنة (١) !.

ان جزىء البروتين يتكون من « سلاسل » طويلة من الأحماض الأمينية Amion-Acids وأخطر ما فى هذه العملية هو الطريقة التى تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض ، فانها لو اجتمعت

(١) أى : مائتان وثلاثة واربعون صفرا أمام عشر سنين . ( المترجم ) .

فى صورة غير صحيحة لأصبحت سما قاتلا ، بدل ان تصبح موجدة للحياة .

لقد توصل البروفيسور ج.ب. ليتزG.B. Leathesالى انه يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من $10^{48}$ صورة وطريقة . وهو يقول : انه من المستحيل تماما ان تجتمع هذه السلاسل ـ بمحض الصدفة ـ فى صورة مخصوصة من هذه الصور التى لا حصر لها ، حتى يوجد الجزىء البروتينى الذى يحتوى أربعين الفا من أجزاء العناصر الخمسة التى سبق ذكرها .

ولابد أن يكون واضحا للقارىء أن القول بالامكان فى قانون الصدفة الرياضى لا يعنى انه لابد من وقوع الحادث الذى ننتظره ، بعد تمام العمليات السابق ذكرها ، فى تلك المدة السحيقة ، وانما معناه أن حدوثه فى أثناء تلك المدة محتمل ، لا بالضرورة ، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة الا يحدث شىء ما بعد تسلسل العملية الى الأبد !

هذا الجزىء البروتينى ذو وجود « كيماوى » ، لا يتمتع بالحياة الا عندما يصبح جزءا من الخلية ، فهنا تبدأ الحياة ، وهذا الواقع يطرح اهم سؤال فى بحثنا : من اين تأتى الحرارة ، عندما يندمج الجزىء بالخلية ؟ . . ولا جواب عن هذا السؤال فى أسفار المعارضين الملحدين .

ان من الواضح الجلى أن التفسير الذى يزعمه هؤلاء المعارضون، متسترين وراء قانون الصدفة الرياضى، لا ينطبق على الخلية نفسها، وانما على جزء صغير منها ، هو الجزىء البروتينى وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش : وفى جسد كل فرد منا ، ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا !! .

لقد اجرى العالم الفرنسى « الكونت دى نواى » Conte de Nouy بحثا وافيا حول هذا الموضــوع ، وخلاصة البحث : ان مقادير الوقت ، وكمية المادة ، والفضاء اللانهائى ، التى يتطلبها حدوث مثل هذا الامكان هى اكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن ، واكثر من الوقت الذى استغرقه نمو الحياة على ظهر الارض وهو يرى : ان حجم هذه المقادير الذى سنحتاج اليه فى عمليتنا لا يمكن تخيله او تخطيطه فى حدود العقل الذى يتمتع به الانسان المعاصر فلاجل وقوع حادث على وجه الصدفة من النوع الذى ندعيه سوف نحتاج كونا يسير الضوء فى دائرته ستة ضوئية (اى ١٠ ٨٢ صفرا الى جانب عشرة سنين ضوئية !!) وهذا الحجم اكبر بكثير جدا من حجم الضوء الموجود فعلا فى كوننا الحالى فان ضوء ابعد مجموعة للنجوم فى الكون يصل الينا فى بضعة ( ملايين ) من السنين الضوئية فقط .. وبناء على هذا ، فان فكرة اينشتين عن اتساع هذا الكون لا تكفى ابدا لهذه العملية المفترضة .

اما فيما يتعلق بهذه العملية المفترضة نفسها ، فاننا سوف نحرك المادة المفترضة فى الكون المفترض ، بسرعة خمسمائة ترليون الحركة فى الثانية الواحدة ، لمدة بليون بليون سنة ( ٢٤٣ صفرا أمام عشرة بلايين ) ، حتى يتسنى لنا حدوث امكان فى ايجاد جزىء بروتينى يمنح الحياة .

ويقول « دى نواى » فى هذا الصدد :

« لابد الا ننسى ان الارض لم توجد الا منذ بليونين من السنين

وان الحياة في أي صورة من الصور لم توجد إلا قبل بليون سنة ، عندما بردت الأرض »(١).

وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه ، وأثبتت الدراسات [illegible] هذا الموضوع أن كوننا موجود منذ [illegible] بليون سنة . وهي مدة قصيرة جداً ولا تكفي على أي حال من الأحوال لخلق امكان أن يوجد فيه الجزيء البروتيني ، بناء على قانون الصدفة الرياضي .

وأما ما يتعلق بأرضنا التي ظهرت عليها الحياة ، فقد عرفنا عمرها بصورة قاطعة ، فهذه الأرض كما يعتقد العلماء ، جزء من الشمس ، انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس وسيار عملاق آخر ، ومنذ ذلك الزمان أخذ هذا الجزء يدور في الفضاء شعلة من نار رهيبة ، ولم يكن من الممكن ظهور الحياة على ظهره حينئذ لشدة الحرارة ، وبعد مرور زمن طويل أخذت الأرض تبرد ، ثم تجمدت وتماسكت [illegible] ظهور امكان بقاء الحياة على [illegible]

[illegible] ونستطيع معرفة عمر الكون بشتى الطرق ، وأحسن طريقة عرفناها لهذه الدراسة ، هي التي توصلنا إليها بعد كشف « العناصر المشعة » Radio-Active Elements (١) فإن الذرات الكهربية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة بصفة دائمة ، وهذا « التحلل » Disintegration في الذرات الكهربية في هذه العناصر [illegible] تلقائياً عناصر غير مشعة عبر الزمان ، واليورانيوم أحد هذه العناصر المشعة ، وهو يتحول إلى معدن الرصاص بنسبة معينة نتيجة لتحلل الذرات الكهربية ، وهذه النسبة في الانشطار لا تتغير تحت [illegible] درجات الحرارة أو الضغط ، ولهذا [illegible] لو اعتبرنا [illegible] تحول اليورانيوم إلى [illegible] [illegible]

---

(١) J. W. N. Sullivan, Limitations of Science, p. 79 — Human Destiny, pp. 30, 36

ان قطع اليورانيوم توجد فى كثير من الهضبات والجبال ، ومما لا شك فيه أن هذا اليورانيوم هو جزء من ذلك الجبل ، منــذ أن تجمد فى شكله الأخير ، عنــد تجمد الأرض .. وعلى جانب هــذا اليورانيوم نجد قطعا من الرصاص ، ولا نستطيع أن ندعى أن كل هذا الرصـــاص نتج عن تحلل اليورانيـــوم . والسبب فى هــذا ان الرصاص الذى يتكون من تحلل اليورانيـــوم يكون أقل وزنا من الرصاص العادى ، وبناء على هذه القاعدة الثابتة يمكننا أن نجزم بما اذا كانت اية قطعة من الرصاص من اليورانيوم ، أو أنها قطعة رصـــاص عادى ، ونحن هنـــا نستطيع أن نحتسب المـدة التى استغرقتها عملية تحلل اليورانيوم بدقة ، فهو يوجد فى الجبل من اول يوم تجمد فيـــه ، ونستطيع بذلك معرفة مدة تجمــد الجبل نفسه ! .

لقد أثبتت التجارب أنه قد مر الف واربعمائة مليون سنة على تجمد تلك الجبال ، التى تعتبر ــ عمليا ــ أقدم جبال الأرض ، وقد يظن البعض منا أن عمر الأرض يزيد ضعفا أو ضعفين عن عمر هذه الجبال ، ولكن التجارب العلمية تنفى بشدة هذه الظنون الشاذة ، ويذهب البروفيسور ( سوليفان ) الى أن « المعدل المعقول » لعمر الأرض هو الفا مليون سنة (١) !.

ولنتأمل الآن ، بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح تحتاج الى بلايين البلايين من السنين ، حتى يتسنى مجرد امكان لحدوث ( جزىء بروتينى ) فيها بالصـــدفة ! فكيف اذن جاءت فى هذه المدة القصيرة فى شكل مليون من أنواع الحيوانات ، واكثر من ٢٠٠,٠٠٠ الف نوع من النبات ؟ وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض ، فى كل مكان ؟ ثم كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذى نسميه « الانسان » ؟ ولا أدرى

(١) J.W. U. Sullivan, Limitations of Science, p. 78.

كيف نجرؤ على مثل هذه الاعتقادات ، فى حين اننا نعرف جيدا ان نظرية النشوء والارتقاء تقوم على اساس «تغيرات صدفية محضة»؟!

وأما هذه التغيرات ، فقد حسبها الرياضى « باتو » Patau وانتهى الى ان اكتمال « تغير جديد » فى جنس ما ، قد يستغرق مليونا من الأجيال (١) :

فلنفكر فى امر ( الكلب ) الذى يزعمون انه جد ( الحصان ) الأعلى ،كم من المدة ، على قول الرياضى باتو سوف يستغرقها الكلب حتى يصبح حصانا ؟! .

وما أصح ما قاله عالم الأعضاء الأمريكى مارلين ب . كريدر :

« ان الامكان الرياضى فى توفر العلل اللازمة للخلق ـــ عن طريق الصدفة ـــ فى نسبها الصحيحة ، هو ما يقرب من «لا شيء» (٢)

لقد اطلت فى هذا البحث حتى نتبين مدى سخافة فكرة الخلق بالصدفة ، وبطلانه ، ولست ـــ فى الحق ـــ اشك فى انه يستحيل وجود الجزيء البروتينى والذرة عن الصدفة ، كما لا يمكن أن يكون عقلك هذا ـــ الذى يتأمل فى اسرار الكون وخفاياه ـــ من ثمار الخلق الصدفى، مهما بالغنا فى افتراضاتنا عن المدة الطويلة التى استغرقتها عملية المادة فى الكون . ونظرية الخلق هذه ليست مستحيلة فى ضوء قانون الصدفة الرياضى فحسب، وانما هى لا تتمتع باى وزن منطقى فى نفس الوقت .

وأى كلام من هذا القبيل سخيف وملىء بالصلافة .. ومثاله كمن يزعم أن سقوط كوب مملوء بالماء أو بالقهوة سوف يرسم خريطة العالم على الأرض ! لا مانع من أن أسال هذا الرجل : من أين جاء

---

(١) The Evidence of God, p. 117.

(٢) Ibid., p. 67.

[illegible] الكواكب [illegible] الجاذبية [illegible]
[illegible] !

ولقد بلغ عالم البيولوجيا « هيكل » Haeckel في زعمه حين قال :

« ايتوني بالهواء ، وبالماء وبالأجـزاء الكيماوية ، وبالوقت ، وأنا أخلق الانسان » ! ولكن « هيكل » نسي أو تجاهل في هذه المقالة [illegible] الى المادة والأحوال الملائمة [illegible] نفسه !

يقول [illegible] (١) [illegible] :

« إن هيكل يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية ، ومسألة الحياة نفسها ، فان أول شيء سيحتاج اليه عند خلق الانسان ، [illegible] ( الجينات ) ، [illegible] الوراثية [illegible] الحياة [illegible] الخلق [illegible] ولو افترضنا أن « هيكل » [illegible] »(٢) .

ولنختتم هذا البحث بقول عالم الطبيعة الأمريكي « جورج [illegible] ديفيس » :

[illegible] لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه ، فان معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق [illegible] أن [illegible] الكون [illegible]

---

(١) رئيس أكاديمية العلوم الأمريكية بنيويورك ( سابقا ) — المترجم .

Man Does not Stand Alone, p. 87.

الاله . . وهكذا ننتهى الى التسليم بوجود ( الاله ) ، ولكن الهنا هذا سوف يكون عجيبا : الها غيبيا وماديا فى آن واحد !! اننى افضل أن أؤمن بذلك الاله الذى خلق العالم المادى ، وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل هو حاكمه ومديره ومدبره بدلا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات » (١) .

(١) The Evidence of God, p. 21.

# الباب الخامس

## دليل الاخرة

من أهم الحقائق التى يدعونا الدين الى الايمان بها : فكرة الآخرة . والمراد بها : ان هناك عالما آخر غير عالمنا الحاضر ، وسوف نعيش فى ذلك العالم خالدين ، وان عالمنا هذا هو مكان للاختيار والابتلاء ، وجد فيه الانسان لأجل معلوم ، وان الله سوف ينهى هذا العالم حين يحين أجله ، لبناء العالم الآخر ، على طراز جديد، وان الناس سوف يبعثون مرة أخرى ، وسوف تعرض أعمالهم ــ خيرا أو شرا ــ على محكمة الله ، الذى يجزى كل انسان بما عمل فى الحياة الدنيا .

أهذه النظرية صحيحة ؟ أم هى باطلة ؟ وهل هناك امكان لهذه الآخرة ؟ . . سوف نعرض هنا بعض جوانب القضية .

### اولا ــ امكان الآخرة :

ليكن الجانب الأول من هذا العرض ، هو البحث عن « امكان » وقوع الآخرة . فهل هنالك وقائع واشارات تصدق هذه الدعوى ؟

ان فكرة ( الآخرة ) تقتضي ــ اول ما تقتضي ــ الا يكون الانسان والكون ، فى شكلهما الحالى ابديين، وقد علمنا فى الصفحات الماضية ــ بما لايدع مجالا للشك ــ ان ابدية الكون والانسان مستحيلة ، وايقنا ، يقينا لا يتزعزع ، بأن الانسان يموت ، وان الكون سينتهى طبقا لقانون « الطاقة المتاحة » . ولست ادرى اذاما كان هناك طريق للنجاة من هذه النهاية المروعة .

( ١ ) مسألة الموت :

ان الذين لا يؤمنون بالعالم الثانى ــ الآخرة ــ يحاولون بدافع الغريزة أن يجعلوا من هذا الكون عالما أبديا لأفراحهم، ولذلك بحثوا كثيرا عن اسباب « الموت » ، حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الاسباب ، من أجل تخليد الحياة ، ولكنهم أخفقوا اخفاقاذريعا وكلما بحثوا فى هذا الموضوع ، رجع اليهم بحثهم برسالة جديدة عن حتمية الموت ، وانه لا مناص منه .

« لمــاذا الموت ؟ » .. هناك ما يقرب من مائتى اجابة عن هــذا السؤال الخطير ، الذى كثيرا ما يطرح فى المجالس العلمية ، منها :

( فقدان الجسم لفاعليته ) ، ( انتهاء عملية الاجزاء التركيبية )، ( تجمد الانسجة العصبية ) ، ( حلول المواد الزلالية القليلة الحركة ، محل الكثيرة الحركة منها ) ، ( ضعف الأنسجة الرابطة ) ، ( انتشار سموم « بكتريا » الأمعاء فى الجسم ) .. وما الى ذلك من الاجابات التى تتردد كثيرا حول ظاهرة الموت .

ان القول بفقدان الجسم لفاعليته جذاب للعقل . . فان الآلات الحديدية والأحذية والاقمشة كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدود، فأجسامنا أيضا تبلى وتفقد فاعليتها كالجلود التى نلبسها فى موسم الشتاء . ولكن العلم الحديث لا يؤيدنا ، لأن المشاهدة العلمية للجسم الانسانى تؤكد : أنه ليس كالجلود الحيوانية ، والآلات الحديدية، وليس كالجبال .. وان أقرب شىء يمكن تشبيهه به هو ذلك (النهر) الذى لا يزال يجرى منذ آلاف السنين على ظهر الأرض فمن ذا الذى يستطيع القول بأن النهر الجارى يبلى ويهن ويعجز ؟ ! بناء على هذا الأساس يعتقد الدكتور « لنس بالنج » (١) أن الانسان أبدى ، الى حد كبير ، نظريا ، فان خلايا جسمه آلات تقوم باصلاح ما فيه من

---

(١) وهو حائز على جائزة نوبل للعلوم .

الامراض ومعالجتها تلقائيا ! وبرغم ذلك فان الانسان يعجز ويموت ، ولا تزال علل هذه الظاهرة اسرارا تحير العلماء .

ان جسمنا هذا في تحديث دائم ، وان المواد الزلالية ، التي توجد في خلايا دمائنا ، تتلف كذلك ثم تتجدد ، ومثلها جميع خلايا الجسم تموت وتحل مكانها خلايا جديدة ، اللهم الا الخلايا العصبية . وتفيد البحوث العلمية ان دم الانسان يتجدد تجددا كليا خلال ما يقرب من اربع سنين ، كما تتغير جميع ذرات الجسم الانساني في بضع سنين .

ونخرج من هذا بأن الجسم الانسانى ليس كهيكل ، وانما هو كالنهر الجاري ، أي انه « عمل مستمر » ، ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هي وهن الجسم وفقدانه لقواه ، فان الاشياء التي فسدت او تسممت من الجسم ايام الطفولة او الشباب قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل ، ولا معنى لان نجعلها سبب الموت ، فسبب الموت موجود في مكان آخر ، وليس في الامعاء والانسجة البدنية والقلب .

ويدعى بعض العلماء ان الانسجة العصبية هي سبب الموت ، لانها تبقى فى الجسم الى آخر الحياة ولا تتجدد . ولو صح هـــذا التفسير القائل بان النظام العصبي هو نقطة الضعف في الجسم الانساني ، فمن الممكن ان نزعم ان اي جسم خال من النظـــام العصبي ، لابد ان يحيا عمرا اطول من الاجسام ذات النظام العصبي ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا ، فان هذا النظام لا يوجد مثلا في الاشجار ، وبعضها يعيش لاطول مـــدة ، ولكن شجرة القمح التي لا يوجد بها هذا النظام العصبي لا تعيش اكثر من سنة ، وليس في كائن « الاميبا » جهاز عصبي ، وهي مع ذلك لا تبقى على قيـــد الحياة اكثر من نصف ساعة ، ويقتضي هذا التفسير ايضا ان تلك الحيوانات التي تعد من نسل اعلى ، والتي تتمتع بنظام عصبي اكمل واجود ، لابد ان تعيش مدة أطول من تلك التي هى احقر نسلا واضعف نظاما . ولكن الحقائق لا تؤيدنا في هذا ايضا ، فان السلحفاة

والتمساح وسمكة « باتيك » اطول عمراً من اي حيوان آخر ، وكلها من النوع الثاني — حقير النسل ، وضعيف النظام .

لقد اخفقت تماما تلك البحوث التي استهدفت أن تجعل من الموت امرا غير يقيني ، يمكن الا يقع ، فبقي الاحتمال ، الذي اكدته الازمان ، وهو أن يموت الإنسان في اي عمر ، وفي اي زمن ، ولم نستطع العثور على اي امكان يمنع الموت ، رغم جميع الجهود .

لقد بحث الدكتور « الكسيس كاريل » هذه المشكلة في مقال طويل بعنوان « الزمن الداخلي » ، فذكر الجهود المخفقة التي بذلت في هذا الصدد ، ثم قال :

« ان الانسان لن يسأم ابداً من البحث عن ( الخلود ) والسعي وراءه ، مع انه لن يظفر به الى الابد ، فتركيبه الجسماني يخضع لقوانين معينة ، انه يستطيع ان يوقف الزمن ( الفسيولوجي ) لاعضاء الجسد ، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة ، ولكنه لن يتغلب على الموت ابداً »(1) .

## (ب) ظواهر وامثلة طبيعية :

في ضوء هذه الوقائع لم تعد مسألة نهاية العالم غير مفهومة ، فنحن على علم بالقيامات الصغرى التي تقع على سطح الارض ، وهي التي ستحدث مرة اخرى على نطاق اوسع ، حتى تشمل الارض المأهولة كلها .

ان الظاهرة الاولى التي تنذرنا بامكان القيامة هي الزلازل . فبطن الارض يحتوي على مادة شديدة الحرارة ، نشاهدها عندما ينفجر البركان ، وهذه المادة تؤثر على الارض بشتى الطرق ، فمنها ماتصدر عنه اصوات مروعة رهيبة ، وما نحس به من الهزات

---

Man(the Unknown, p. 175.

الأرضية ، التى نسميها « الزلازل » انها لا تزال كلمة رهيبة فىحياة الانسان المعاصر ، رغم تقدم العلوم والتكنولوجيا ، كما كانت رهيبة فى حياة الانسان القديم . هذه الزلازلهى حملة الطبيعةضد الانسان الذى لا يملك ازاءها شيئا ، فالخيار كله فى يد الفريق الأول . ان الانسان لا يملك شيئا يقاوم به الزلازل ، فهى نذير يذكره دائما بانه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة جهنمية ، لا يفصله عنها سوى قشرة جبلية رقيقة ، لا يزيد سمكها عن خمسين كيلو مترا ، وهذه القشرة ليست ، بالنسبة الى الكرة الأرضية ، الا بمثابة القشرة من ثمرة التفاح .

يقول عالم الجغرافيا ( جورج جاموف ) : « أن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء ، ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان ، وبكلمة اخرى : نحن واقفون على ظهر لغم « ديناميت » عظيم ، ومن الممكن ان ينفجر فى اى وقت ، ليدمر النظام الأرضى بأكمله » (١) .

وهذه الزلازل تجتاح جميع نواحى الأرض ، ولا تخلو الجرائد اى صباح من اخبارها ، ولكن يكثر وقوعها فى الأماكن التى توجد بها البراكينلاعتبارات جغرافية. واقدم زلزال رهيب سجله التاريخ هو زلزال اقليم ( شنسى ) الصينى ، الذى وقع عام ١٥٥٦ م . ولقى اكثر من ٨٠٠,٠٠٠ نسمة مصرعهم فى هذه الكارثة . وقد وقع زلزال فى « لشبونة » عاصمة البرتغال عام ١٧٥٥ م ، فدمر المدينة كلها ، واباد ثلاثين الفا من الناس فىست دقائق . وقد قيل : ان هذا الزلزال هز ربع أوروبا . ومن هذا النوع من الزلازل ما وقع فىولاية « آسام » الهندية عام ١٨٩٧ م ، وهو يعد من الزلازل الخمسة الكبرى فى التاريخ، فقد احدث دمارا وخرابا عظيمين فىمنطقة كبيرة من شمالى الهند ، كما غير اتجاه النهر العملاق ( برهام بوترا ) ،

---

(١) Biography of the Earth, p. 62.

وطفرت هضبة ( ايفرست ) بجبال الهملايا ، فارتفعت مائة قدم !
ان هذه الزلازل (قيامة) على نطاق غير واسع .. فعندما تنفجر الارض بصوتها المخيف، ودويها الرهيب، وعندما تتساقط الجدران وسقف الابنية المسلحة الفخمة . حتى كأنها أوراق « الكوتشينة » وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها ، وأسفلها أعلاها ، وعندما تحل الخرائب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى فى ثوان معـدودة ، وعدما تسير طوابير النعوش ، وتتراكم على ساحات المدن وطرقهـا تراكم الاسماك على ساحل البحر — فتلكم هى قيامة الزلزال .

وفى تلك اللحظة يشعر الانسان بعجزه أمام قوى الطبيعة ، فان الزلازل لا تقرع أبواب المدن الا بغتة ، دون سابق اذن أو انذار ، والبلية كل البلية فى أن الانسان لا يستطيع أن يتنبأ بمكان الزلازل، ولا بموعد وقوعها ، وهى فى نفسها تنبىء عن قيامة كبرى ، سوف تفجؤنا غداة يوم على غرة منا ، أن هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على تدميرها ، كما يشاء .

وهذه هى حال الفضاء الخارجى ، فالكون فضاء لا حدود له ، تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها ، هى ( السـيارات والنجوم ) ، ومثالها كملايين الخذاريف (١) التى تدور على سـطح معين بأقصى سرعة يمكن تخيلها . وهذا الدوران يمكن أن يتحول فى أى يوم الى صدام عظيم لا يمكن تصوره . وفى تلك اللحظة الرهيبة يكون ما فى الكون اشبه بآلاف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النـووية ، وهى تواصل رحلتها فى الجـو ، ثم تصطدم كلها مرة واحدة ! ان اصطدام الاجرام السماوية ليس بغريب مطلقا ، بل الغريب حقاهو عدم وقوع هذا الاصطدام ، فدراسة علم الفلك تؤكد امكان اصطدام الأجرام السماوية ، والحديث عن وجود النظام الشمسى يدور حول

---

(١) جمع خذروف وهى لعبة من الخشب ، مخروطية الشكل ، يسميها الاطفال ( النحلة ) . ( **المراجع** )

وقوع صدام كبير بين بعض الاجرام السماوية قديما ، فاذا استطعنا ان نتصور هذا التصادم على نطاق أوسع لاستطعنا ان نفهم جيدا ذلك « الامكان » الذي نحن بصدده . فهذا الواقع هو بعينه ما نسميه « القيامة » .

ان فكرة ( الآخرة ) التي تقرر ان نظام الكون الموجود حاليا سوف يدمر يوما ، لا تعنى سوى ان واقع الكون ، الذي نشاهده في صورة صغيرة أولية ، سوف يتجلى يوما في صورة نهائية كبرى . فالقيامة حقيقة معلومة في أعماقنا ، ونحن اليوم نعرفها في حد ( الامكان ) ، وسوف نلقاها غدا في صورة الواقع .

## ( ج ) الحياة بعد الموت :

المسألة الثانية في هذا البحث هي مسألة الحياة بعد الموت . « هل هناك حياة بعد الموت ؟ » هذا سؤال يتردد دائما في العقل الحديث ، ثم يستطرد قائلا : « لا ، لا حياة بعد الموت ، لأن الحياة التى أعرفها لا توجد الا في ظروف معينة من تركيب العناصر المادية ، وهذا التركيب الكيماوي لا يوجد بعد الموت ، اذن فلا حياة بعد الموت » .

ويعتقد « ت . ر . مايلز » بأن « البعث بعد الموت حقيقة تمثيلية ، وليس بحقيقة لفظية » . ثم يضيف قائلا :

« انها قضية قوية عندي ان الانسان يبقى حيا بعد الموت ، وهذه القضية من الممكن — لفظيا — ان تكون حقيقية ، وهي قابلة لاختبار صحتها او بطلانها بالتجربة ، ولكن المسألة الرئيسية في طريقنا هي اننا لا نملك وسيلة لمعرفة الاجابة القطعية عن هذا السؤال الا بعد الموت . ولذلك يمكننا ان نقيس » .

---

وحيث ان قياسه لا يصدق هذه القضية ، فهي ليست بحقيقة لفظية . وقياسه كما يلي :

«بناء على علم الاعصاب (Neurology) لا يمكن معرفة العالم الخارجي ، والاتصال به ، الا عندما يعمل الذهن الانساني في حالته العادية ، واما بعد الموت ، فهذا الادراك مستحيل ، نظرا الى بعثرة تركيب النظام الذهني »(١) .

ولكن هناك قياسات اخرى اقوى من هذا القياس ، وهي تؤكد ان بعثرة الذرات المادية في الجسم الانساني لا تقضي على الحياة ، فان « الحياة » شيء آخر ، وهي مستقلة بذاتها ، باقية بعد فناء الذرات المادية وتغيرها .

ومن المعلوم ان الجسم الانساني يتألف من اجزاء ( ذرات ) تسمى « الخلايا » ومفردها : خلية Cell . وهي ذرات صغيرة جدا ومعقدة ، يتزايد عددها في الجسم الانساني العادي على ٢٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ خلية . ويبدو ان هذه الخلايا مثل الطوب الصغير ، ينبني منه هيكل اجسامنا . ولكن الفرق بين طوب اجسامنا والطوب الطيني شاسع جدا ، فطوب الطين الذي يستخدم في العمارات يبقى كما هو ، نفس الطوب الذي صنع في المصنع واستخدم في البناء للمرة الاولى ، بينما يتغير طوب هياكلنا في كل دقيقة ، بل في كل ثانية ، ان خلايا اجسامنا تنقص بسرعة ، كالآلات التي تتآكل باحتكاكها واستهلاكها ، ولكن هذا النقص يعوضه الغذاء فهو يهيئ للجسم قوالب الطوب التي يحتاج اليها بعد نقص خلاياه واستهلاكها(٢) . فالجسم الانساني يغير نفسه بنفسه بصفة مستمرة وهو كالنهر الجاري المملوء دائما بالمياه ، لا يمكن ان نجد به نفس الماء الذي كان يجري فيه منذ برهة ، لانه لا يستقر ، فالنهر يغير

---

(١) Religion and Scientific Outlook, p. 206.

(٢) لم نشبه الخلية بالطوب الا لتشبيه ظاهري ، والحقيقة أن « الخلية » عملية معقدة للغاية ، وهي في ذاتها عالم كامل ، ويُبحث عنها في علم الخلايا Cyetology .

نفسه بنفسه دائما ، ومع ذلك فهو نفس النهر الذى وجد منذ زمن طويل ، ولكن الماء لا يبقى ، بل يتغير .

وجسمنا مثل النهر الجارى ، يخضع لعملية مستمرة ، حتى انه يأتى وقت لا تبقى فيه اية خلية قديمة فى الجسم ، لأن الخلايا الجديدة اخذت مكانها . هذه العملية تتكرر فى الطفولة والشباب بسرعة ، ثم تستمر بهدوء ملحوظ فى الكهولة . ولو حسبنا معدل التجدد فى هذه العملية فسوف نخرج بأنها تحدث مرة كل عشر سنين ان عملية فناء الجسم المادى الظاهرى تستمر ، ولكن الانسان فى الداخل لا يتغير ، بل يبقى كما كان : علمه ، وعاداته ، وحافظته ، وامانيه ، وافكاره ، تبقى كلها كما كانت . انه يشعر فى جميع مراحل حياته بانه هو « الانسان السابق» ، الذى وجد منذ عشرات السنين ولكنه لايحس بأن شيئا من اعضائه قد تغير ، ابتداء من اظافر رجليه حتى شعر راسه .

ولو كان الانسان يفنى بفناء الجسم ، لكان لازما أن يتأثر على الاقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل ، ولكننا نعرف جيدا ان هذا لا يحدث ، وهذا الواقع يؤكد ان «الانسان» أو « الحياة الانسانية» شيء آخر غير الجسم وهى باقية رغم تغير الجسم وفنائه وهو كنهر مستمر فيه **سفر الخلايا بصفة دائمة** ! وهذا هو الأمر الذى دعا عالما أن يصف الانسان : بشيء مستقل بذاته ، وباق غير متغير ، رغم التغيرات المتسلسلة . فهو يعتقد :

« أن الشخصية هى عدم التغير فى عالم التغيرات » «Persinality is Changelessness in Change»

ولو كان الموت فناء « للانسان » ، فمن الممكن أن نقول ــ بعد كل مرحلة من مراحل حدوث هذا التغير الكيماوى الذى يجرى فى الجسم ــ أن الانسان قد مات ، وانه يعيش حياة أخرى جديدة بعد موته ! ومعناه ان الرجل الذى أراه فى الخمسين من عمره ، وهو

يمشى فى الشارع على رجليه ، قد مات خمس مرات فى هذه الحياة القصيرة ، فاذا لم يمت هذا الانسان بعد فناء أجزاء جسمه المادية خمس مرات ، فكيف استطيع أن اعتقد بأنه مات فى المرة السادسة على وجه اليقين ؟ ولا سبيل له الان الى الحياة ؟

ان بعض الناس لن يسلموا بهذا الاستدلال ، وسيقولون : ان العقل : أو الوجود الداخلى الذى نسميه «انسانا» ليس بشىء آخر ولم يوجد الا نتيجة علاقة الجسم بالعالم الخارجى ، وأن الأفكار والأمانى لا توجد خلال العمل المادى الا كالحرارة التى توجد نتيجة احتكاك قطعتين من حديد !

ان الفلسفة الحديثة تنكر ( الروح ) بشدة ، ويعتقد السير جيمز : أن « الشعور » لا يوجد كوحدة Entity وانما هو وظيفة Function وتفاعل وتنسيق Process . . وقد أصر الكثيرون من فلاسفتنا المحدثين على أن ( الشعور ) فى ذاته ليس الا التفاعل والرد العصبى لما يحدث من حركة ونشاط فى العالم الخارجى . وبناء على هذه النظرية لا مجال للتساؤل عن امكان الحياة بعد الموت نظرا لتحلل النظام الجسمانى ، ولأن المركز العصبى فى الجسم لم يعد له وجود ، وهو الذى كان يتفاعل وينسق مع العالم الخارجى، وهم يعتقدون بناء على هذا أن نظرية الحياة بعد الموت أصبحت غير ذات أساس عقلى أو واقعى .

سوف أقول : انه لو كانت هذه هى حقيقة الانسان ، فلنجرب ان نخلق انسانا حيا ذا شعور ، ونحن ــ اليوم ــ نعرف بكل وضوح جميع العناصر التى يتألف منها جسم الانسان ، وهذه العناصر توجد فى الارض وفى الفضاء الخارجى ، بحيث يمكننا الحصول عليها ، وقد علمنا دقائق بناء النظام الجسمانى ، وعرفنا هيكله وأنسجته ، ولدينا فنانون مهرة يستطيعون أن يصنعوا أجساما كجسم الانسان، بكل مواصفاتها ، فلنجرب ــ لو كان معارضو الروح يصرون على

حقيقة مبدئهم ، ولنصنع مئات من امثال هذه الأجسام ، ولنضعها في شتى الميادين ، في بقعة الأرض الفسيحة ، ثم لننتظر ذلك الوقت الذي تمشي فيه هذه الأجسام وتتكلم وتأكل «بناء على تأثيرات العالم الخارجى » ؟ !

فهذا عن امكان بقاء الحياة بعد الموت .

## ثانياً ـ ضرورة الآخرة :

لنفكر الآن في الأسس التي أقام الدين عليها دعوته الى الايمان بهذه النظرية : أن الحياة ، كما نتصور ، ليست « غدوا ورواحا » ، كما يراها الفيلسوف الألمانى (نيتشه) ، والتى تمتلىء وتخلو كالساعة بلا هدف ، انها أكثر من ذلك ، ان الحياة « الآخرة » ذات هدف عظيم ، هو المجازاة على أعمال الدنيا ، خيرا كانت أو شرا . وهذا الجزء من نظرية الآخرة يكاد يتضح جليا حين نعلم أن أعمال كل انسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة ، وبغير توقف ... وللانسان ثلاثة أبعاد ، يعرف من خلالها ، هي : نيته ، وقوله ، وعمله ... وهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها ، فكل حرف يخرج من لساننا ، وكل عمل يصدر عن عضو من أعضائنا ، يسجل في الأثير ، ثم يمكن عرضه في أي وقت من الأوقات بكل تفاصيله ، لنعرف ـ اذا شئنا ـ كل ما قلناه أو فعلناه أثناء حياتنا الدنيا ، من خير او شر .

ب ـ ان الأفكار تخطر على بالنا ، ثم تعود فتختفي ... ويبدو لنا انها انتهت ، ولم يعد لها وجود ، ولكننا بعد فترة طويلة ، نراها في خلال النوم ، أو نتكلم عنها في حالات الهستيريا أو الجنون ، دون أن ندرى شيئا عما نقول ، وهذه الوقائع تثبت قطعيا أن العقل أو الحافظة ليست تلك التي نشعر ونحس بها فحسب » وانما هناك اطراف أخرى من هذه الحافظة لا نشعر بها ، وهي ذات وجود مستقل ، وذات كيان قائم بنفسه ... [illegible]

ولقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحتفظ في شكلها الكامل ، ولسنا قادرين على محوها أبدا ، وأثبتت هذه التجارب أيضا أن الشخصية الانسانية لا تنحصر فيما نسميه « الشعور » بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الانسانية تبقى وراء الشعور ، يسميها فرويد : « ما تحت الشعور » ، أو « اللاشعور » وهذه الأجزاء تشكل جانبا كبيرا من شخصيتنا ، بل هي الجانب الأكبر منها ، ومثلها كمثل جبل من الجليد في أعالي البحار ، أجزاؤه الثمانية مستكنة تحت الماء ، على حين لا يطفو منه إلا الجزء التاسع . وتلك هي ما نسميه : « تحت الشعور » الذي يسجل ويحفظ كل ما نفكر فيه ، أو ننتويه .

يقول ( فرويد ) في محاضرته الحادية والثلاثين :

« أن قوانين المنطق ، بل أصول الأضداد أيضا ، لا تحول دون عمل ( اللاشعور ) I.D. وان الأماني المتناقضة ، موجودة فيه جنبا الى جنب ، دون أن تقضي واحـــدة منها على الاخرى ، ولا شيء في اللاشعور يشبه أن يكون « رفضا » لشيء من هـذه المتناقضات . اننا نتحير لما نشاهده من أن اللاشعور يبطل رأي فلاسفتنا القائلين بأن جميع افعالنا العقلية الشعورية تتم في زمن محدد ، ولكن لا شيء في اللاشعور يطابق الفكر الزمني ، ولا يوجد فيه اي رمز لمضي الوقت وسريانه ، وهي حقيقة محيـــرة . ولم يحاول الفلاسفة أن يتأملوا حقيقة ، هي أن مضي الزمن لا يحدث اي تغيير في العمل الذهني ، أن الدوافع الحسية (Conative impulses) التي لم تخرج قط عن اللاشعور ، وحتى التأملات الخيالية التي دفنت في اللاشـــعور تكون ازلية في الحقيقة والواقع ، وتبقى محفوظة لعشرات السنين ، وكأنها لم تحدث الا بالأمس »(1)

(1) New Introductory Lectures on Psycho-Analysis, London 1949, p. 99.

وقد سلم علماء النفس بهذه النظرية بصفة عامة اليوم ، ومعناها ان كل ما يخطر على بال الانسان من الخير والشر ، ينقش فى صفحة اللاشعور ، فلا يزول الى الابد ، ولا يؤثر فيه تغير الزمان ، وتقلب الحدثان ، ويحدث هـذا على رغم الارادة الانسـانية ـ طوعا او كرها .

ولم يستطع ( فرويد ) أن يدرك مايمكن خلف هذه العملية من اسباب وعلل ، واية خدمة تؤديها فى مصنع الكون ؟ ولهذا نراه يدعو الفلاسفة الى التفكير والتأمل. ولكنا لو قارنا هذا الواقع مقرونا الى نظرية الآخرة لاستطعنا ان نصل الى حقيقتها بسرعة ، أن هذا الواقع يؤكد بكل صراحة امكان وجود سجل كامل لأعمال الانسان فى حياته عندما يبدأ حياته الأخرى ، فان وجـــوده نفسه سوف يشهد على الأعمال والنيات التى عاشها .

**« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد » (١) .**

**( ا ) مسالة القول :**

ولنتناول هنا مسألة « القول » : ان نظرية الآخرة تقـــول بأن الانسان مسئول عن ( أقواله ) فجميع ما تلفظه من كلام ، حسنا كان او قبيحا ، حمدا أو سخطا، وسواء استعملنا اللسان فى ابلاغ رسالة الحق ، أو استعملناه فى ابلاغ رسالة الشيطان ، كل ذلك يحفظ فى سجل كامل : **« ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » (٢)** . وهذا السجل سوف يعرض أمام محكمة الاخرة ليتم حساب الانسان .

وامكان وقوع هذا لا ينافى العلم الحديث ، فنحن نعرف قطعــا

---

(١) ق : ١٦ .

(٢) ق : ١٨ .

ان أحدا عندما يحرك لسانه ليتكلم ، يحرك بالتالى موجات فى الهواء كالتى توجد فى الماء الساكن عندما نرمى فيه بقطعة من الحجر . انك لو وضعت جرسا كهربائيا فى زجاج محكم الاغلاق من كل جانب ، ثم تضغط عليه ، فلن تسمع صوته ، رغم أن الجرس على مرأى منك .. لأنه لا يرسل الموجات الى الخارج ، فهو مكتوم داخل الزجاج ، وهذه الموجات فى الظروف العادية تصطدم بطبلة الأذن ، التى تقوم آليا بارسال هذه الموجات الى العقل ، فما نفهمه من المعنى يسمى « سماعا » !

ولقد ثبت قطعيا أن هذه الموجات تبقى كما هى فى « الأثير » ، الى الأبد ، بعد حدوثها للمرة الأولى ، ومن الممكن سماعها مرة أخرى ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن اعادة هذه الأصوات ، أو بعبارة أصح : عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى ، مع انها لا تزال تتحرك فى الفضاء من زمن بعيد . ولم يبد العلماء اهتماما خاصا بهذا المجال حتى الان ، بعد أن سلموا ـ نظريا ـ بامكان ايجاد آلة لالتقاط أصوات الزمن الغابر . كما يلتقط المذياع الأصواتالتى تذيعها محطات الارسال . على أن المسألة الكبرى التى نواجهها فى هذا الصدد ، ليست هى التقاط الاصوات القديمة ، وانما التمييز بين الأصوات الكثيرة ـ الهائلة الكثرة ـ حتى نتمكن من سماع كل صوت على حدة .. وهذه هى مسألة الاذاعة التى وصلنا فيها الى حل ، فان آلاف المحطات الاذاعية فى العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار ، وتمر موجات هذه البرامج فى الفضاء ، بسرعة ١٨٦٫٠٠٠ ميلا فى الثانية . وكان من المعقول جدا عندما نفتح المذياع ان نسمع خليطا هائلا من الاصوات لانفهم منه شيئا ، ولكن هذا لا يحدث، لان جميع محطات الاذاعة ترسل برامجها على موجات يختلف طولها ، فمنها ما يرسل برامجه على موجات طويلة ، ومنها ما يرسل على موجات قصيرة ، ومتوسطة . وهكذا تمر هذه البرامح فى الفضاء بموجات مختلفة طولا ، فتستطيع ان تسمع أية موجة من المذياع ، بمجرد أن تدير عقربه الى المكان المطلوب .

إن علماءنا لم ينجحوا في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم ، ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته . وبناء على هذا يثبت إمكان سماع الأصوات القديمة في المستقبل ، فيما لو نجحنا في اختراع الآلة المطلوبة ، ومن ثم لا تبقى نظرية الآخرة بعيدة عن القياس ، وهي القائلة بأن كل ما ينطق به الإنسان يسجل وهو محاسب عليه يوم الحساب .

ولربما كان قياسنا مع الفارق الكبير لو لم يكن هنالك ما حدث عندما كان الدكتور مصدق رئيس وزراء ايران الأسبق مسجونا أثناء محاكمته عام ١٩٥٢ ، فقد ركبت في غرفته آلة للتسجيل تتحرك آليا ، وسجلت هذه الآلة كل ما نطق به الدكتور مصدق في غرفته ، وقد عرضوا أشرطة التسجيل أمام المحكمة ، شهادة عليه ، وهو نموذج لما يمكن أن يحدث في الآخرة .

إن مناقشتنا لجوانب المسألة لا تنفي وجود ملائكة لله — أو بلفظ آخر — وجود « مسجلين » غير مرئيين ، ينقشون على صفحة الفضاء كل ما ننطق به من كلام ، وهو ما يصدق قول الله سبحانه (( **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** )) .

**(ب) مسألة العمل :**

لننظر الآن في مسألة (العمل) ، ومعلوماتنا في هذا الصدد تصدق بصورة مدهشة إمكان حدوث الآخرة .

فالعلم الحديث يؤكد إيمانه بأن جميع أعمالنا سواء باشرناها في الضوء أم في الظلام ، فرادى أم مع الناس ، كل هذه الأعمال موجودة في الفضاء في حالة الصور ، ومن الممكن في أية لحظة تجميع هذه الصور حتى نعرف كل ما جاء به إنسان ما من أعمال الخير والشر طيلة حياته ، لقد أثبتت البحوث العلمية أن كل شيء يحدث في الظلام أو في النور ، جامدا كان أو متحركا ، تصدر عنه (حرارة)

بصفة دائمة ، في كل مكان ، وفي كل حال ، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماما ، كالأصوات التي تكون عكسا كاملا للموجات التي يحركها اللسان . وقد تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج عن أي كائن ، وبالتالي تعطي هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حيثما خرجت منه الموجات الحرارية (Heat WaVes) ومثاله انني اكتب الآن في مكتبي ، وسلوف اغادرها بعد ساعة ، ولكن الموجات الحرارية التي خرجت من جسدي التالي وجودي هنا ستبقى دائما ، ويمكن الحصول على تسجيل كامل لجلستي في المكتبة في أي وقت بوساطة تلك الآلة ، غير أن الآلات التي تم اختراعها الى الآن ، لاتستطيع تصوير الموجات الحرارية الاخلال ساعات قليلة من وقوع الحادث . اما الموجات القديمة ، فلا تستطيع هذه الآلة تصويرها ، لضعفها .

وتستعمل في هذه الآلة اشعة انفرارد التي تصور في الظلام والضوء ، على حد سواء . ولقد بدأ العلماء في بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية استغلال هذه الآلة في تحقيقاتهم ، وذات ليلة حلقت طائرة مجهولة في سماء نيويورك ، فصوروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذه الآلة ، وأدى ذلك الى معرفة طراز الطائرة ونوعها (١) . ولقد اطلق على هذه الآلة اسم « آلة تصوير الحرارة Evaporagraph » ونشرت جريدة هندوستان تايمس الهندية تعليقا بمناسبة هذا الاختراع ، تقول : « اننا بفضل هذه الآلة سوف نستطيع ان نشاهد تاريخنا على شاشة السينما في المستقبل ، ومن الممكن أن تنتهي هذه العملية الى كشوف عجيبة ، تغير افكارنا عن التاريخ من جذورها . . . » .

ان اعتبر هذا الاختراع عجيبا كل العجب ، فمعناه أن حياة كل منا تصور على محتوى عالمي ، كما تسجل آلات التصوير

---

(1) Reader's Digest, November, 1960.

الاتوماتيكية السريعة جميع تحركات الممثلين السينمائيين . انك لو صفعت فقيرا ، أو حملت عبئا عن أحد الغرباء ، أو شغل بالك أمر من الخير أو الشر . . فان جميع تحركاتك تسجل على شاشةالكون، حيث لا يسعك منعها او الهرب منها ، سواء كنت فى الظلام أم فى النور . فحياتك كالقصة التى تصور فى الاستديو ، ثم تشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزمن ، وعلى بعد كبير من مكان التسجيل ، ولكنك تشعر كأنك موجود فى مكان الاحداث ، وهكذا شأن كل ما يقترفه الانسان وشأن الأحداث التى يعيشها فان فيلما كاملا لتلك الأحداث سوف يوضع بين يدى كل فرد يوم القيامة ، حتى يصرخ الناس قائلين :

**« يا ويلتنا ! ! ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها (١) ؟ » .**

والتفاصيل العلمية التى أوردنا بعضها فى الصفحات الماضية يتضح منها جليا أن اجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لكل أعمال الانسان ، فكل ما يدور فى إذهاننا يحفظ الى الابد ، وكل ما ننطق به من الكلمات يسجل بدقة فائقة، فنحن نعيش أمام كاميراتتشتغل دائما ، ولا تفرق بين الليل والنهار . . وجميع أعمالنا ، القلبية منها واللسانية والعضوية ، كلها تسجل بدقة تامة . . ولايسعنا ـ ونحن نشرح هذه الظاهرة العلمية الخطيرة ـ الا ان نسلم بأن قضية كل منا سوف تقدم أمام محكمة الهية . . وبأن هذه المحكمة هى التى قامت باعداد هذا النظام العظيم **لتحضير الشهادات التى لا يمكن تزويرها .**

ولا يستطيع أى عالم ان يدلى بتفسير أدق عن هذه الظاهرة سوى ما قلناه . . فلو لم تستطع هذه الوقائع الصريحة الساخنةان تجعل البشر يحسون بمسئوليتهم ازاء المحكمة الجبارة التى ستقوم

---

(١) الكهف : ٤٩ .

يوم الحساب ، فلا أدرىما الواقع الذى قد يجعل هؤلاء يفتحون اعينهم ؟ !

## ثالثا ـ الحاجة الى الآخرة :

لقد بحثنا فى الصفحات الماضية فيما اذا كان حدوث شيء من مثل الآخرة ، التى يدعيها الدين ، « ممكنا » ؟ ولقد ثبت ماعلمنا أن الآخرة ممكنة الحدوث . . والمسألةالتى نقف امامها الآن هى: البحث فيما اذا كان هذا العالم فى حاجة ـ فعلا ـ الى شيء من قبيل الآخرة ؟ وهل يقتضى الكون ـ فى هيكله الحالى ـ وقوعها ؟؟

### ( ا ) الجانب النفسى :

لنتناول اولا ( الجانب النفسى ) من المسالة .

يقول البروفيسور ( كنجهام ) فى كتابه : Plato's Apalogy
« ان عقيدة الحياة بعد الموت» لاادرية مفرحة«Cheerful Agnosticism»
ومن الممكن اعتبار هذا القول خلاصة افكار فلاسفتنا الملحدين المعاصرين فهم يرون أن عقيدة الآخرة اخترعتها عقلية الانسان الباحثة عن عالم حر ، مستقل عن حدود هذا العالم ، وعن مشكلاته ، مليء بالافراح وانما يدفعه الى الايمان بهذه العقيدة أمله فى الحصول على حياته المفضلة ، التى لا جهد فيها ولا كدح . . وان هذه العقيدة تنتهى بالانسان الى عالم مثالى وخيالى ، حيث يحلم بانه سوف يظفر به بعد الموت . ولكن الحقيقة ـ كما يراها الفلاسفة ـ ان لا وجودلشيء كهذا العالم الثانى فى الامر الواقع !

وفى رايى : ان هذا المطلب الانسانى ـ فى حد ذاته ـ « دليل نفسى » قوى على وجود عالم آخر ، كالظمأ ، فهو يدل على الماء وعلى علاقة خاصة باطنة بين الماء وبين الانسان . وهكذا فان تطلع الانسان ـ نفسيا ـ الى عالم آخردليل فى ذاته على أن شيئا مثل ذلكموجود

في الحقيقة، او انه على الأقل خليق بان يوجد. ولهذا المطلب النفسي يؤكد علاقة مصيرنا بهذه الحقيقة، ويدلنا التاريخ على وجود هذه الفريزة الانسانية منذ اقدم العصور على مستوى إنساني، وهو امر لا استطيع فهمه : كيف يمكن أن يؤثر امر باطل على البشر في هذا الشكل الابدي، وعلى مستوى انساني ؟ وهذا الواقع نفسه يدلنا على قرينة قوية بامكان وجود العالم الآخر. وانكار هذه الحاجة النفسية، بدون ادلة، يعتبر جهلا وتعصبا.

ان الذين ينكرون حاجة نفسية عظيمة مثل هذه زاعمين انها باطلة، هم من اعجز الناس حقا عن تفهم اي « واقع » على سطح الارض بعد هذا .. ولو كانوا يزعمون الفهم في الواقع فلا أدري بأي دليل ؟ .. وعن اي برهان ؟

ولو كانت هذه الافكار نتاج المجتمع، كما يزعمون، فكيف لا تزال تطابق التفكير الانساني، بهذه الصورة المدهشة، من اقدم العصور هل تجدون مثالا لاية افكار انسانية اخرى ظلت باقية الى العصر الحاضر، وبهذا التسلسل الرائع منذ الوف السنين، هل يستطيع اذكى اذكيائكم ان يخترع فكرا واهيا، ثم يدخله الى النفس الانسانية وكأنه موجود بها منذ الأزل ؟

ان لكل انسان اماني كثيرة لا تكلل بالنجاح في حياته، انه يتمنى حياة ابدية، ولكن الحياة التي اعطيت له تخضع لقانون الموت. والعجيب ان الانسان عندما يكون على ابواب حياة ناجحة عظيمة، بعدما كسب من العلم والمعرفة، والخبرة والتجارب الثمينة، حينئذ تداهمه دعوة الموت. ولقد اكدت احصائية عن تجار لندن الناجحين ان اموالهم يلتقون فيما بين ٥٥ ـ ٦٥ سنة من اعمارهم، ثم يبدأون يربحون ما بين الخمسة آلاف الى العشرة آلاف جنيه في السنة. وفي ذلك الوقت الثمين تفاجأ بتوقف حركات قلوبهم اذا تسفاء،

او ذات صباح ، فيرحلون الى عالم مجهول ، تاركين تجارتهم الممتدة الى ما وراء البحار .

يقول الاستاذ وينوود ريد (Winwood Reade)

« انه لأمر هام يدعونا الى التفكير فيما اذا كانت لنا علاقة شخصية مع الاله ؟ هل هناك عالم غير عالمنا هذا ؟ وهل سوف نلقى جزاء أعمالنا فى ذلك العالم ؟ ان هذا السؤال ليس بعقدة فلسفية عظيمة فحسب ، وانما هو فى نفس الوقت أعظم أسئلتنا العمليةايضا انه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة، فحياتنا الراهنة قصيرة جدا، افراحها عادية موقوتة ، اذ اننا عندما نظفر بما نحلم به ، يفاجئنا الموت ، ولو استطعنا الاهتداء الى طريق خاصة تجعل افراحنا دائمة وأبدية ، فلن يرفض العمل به أحد غير البله والمجانين منا » (١) .

ولكن الكاتب نفسه يستطرد فينكر ذلك المطلب النفسي الكبيرمن اجل امور لا وزن لها ولا قيمة ، فهو يقول : « ان هذه العقيدة كانت معقولة جدا حين كنا لا نبحث جوانبها بعمق وجد . . ولكن بعد هذا البحث اتضح لنا انها أمر سخيف ، ويمكن اثبات سخافته بسهولة، فالفلاح المحروم العقل الجاهل لايتحمل مسئولية خطاياه، وسيدخل الجنة ، ولكن العباقرة مثل ( جوته ) و ( روسو ) ، سوف يحترقون فى نار الجحيم ، فلأن يخلق الانسان محروم العقل خير له من أن يكون من أمثال جوته وروسو !! ان هذا الكلام تافه سخيف » (٢).

وما أشبه هذا الموقف بالذى اتخذه ( اللورد كلوين) تجاه التحقيق العلمى الذى قام به ( ماكسويل ) ، فقد زعم اللورد انه لا يستطيع ان يفهم نظرية ما الا بعد وضع نموذجها الميكانيكى ، وبناء على هذا الفرض انكر نظرية ماكسويل عن البرق والمغناطيس ، لانها لم تحل فى أحد نماذجاللورد المادية أن مثل هذه المواقف والإدعاءاتالخرافية

---

(١) Martyrdom of Man, p. 414.

(٢) Ibid, p. 415.

اصبحت غريبة فى عالم الطبيعة الحديثة . ويتساءل العـالم الكبير ( سوليفان ) :

« كيف يروق لأحد أن يدعى أن الطبيعة لابد أن تكون كما يضعها مهندس القرن التاسع عشر فى معمله ؟ » (١) .

وسوف أوجه هذا الكلام الى الاستاذ ( وينوود ) :

« كيف يجوز لفيلسوف القرن العشرين أن يرى: أن يكون الكون الخارجى ، فى حقيقة الأمر مطابقا لما يزعمه هو ؟ » .

ان كاتبنا لم يستطع أن يفهم أمرا فى غاية البساطـــة : هو أن الحقيقة لا تحتاج الى الواقع الخارجى ، وانما الواقع الخارجى هو الذى يكون فى حاجة الى « الحقيقة » .. فالحقيقة أن لهذا الكون الها ، وسوف نمثل امامه يوم الحساب . فلا بد لكل منا ــ سـواء أكان روسو أم كان مواطنا عاديا ــ أن يكـون وفيا ومطيعا لالهه ، فنجاتنا لن يحققها جحودنا ، بل هى تكمن فى ايماننـــا وطاعتنا .. والغريب ان كاتبنا لم يرق له أن يطالب ( جوته ) و ( روسـو ) أن يسلكا مسلك الحق ، وانما طالب الحق بالتغيير ! ولما لم يطع الحق راح ينكره !! وهذا أشبه بمن ينكر قانون حفظ الاسرار العسكرية، الذى يكرم احيانا جنديا بسيطا، ويعدم عالما ممتازا، مثل «روزنبرج» وعقيلته الحسناء بالكرسى الكهربائى ! !

انه لا يوجد على سطح الأرض من يفكر فى ( الغد ) غير الانسان، فهو يتميز عن سائر الحيوانات بدوام تفكيره فى المستقبل ، وجهاده المتواصل ، وسعيه الدائب فى سبيل تحسين أحواله . ولا شك اننا قد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها ، كالنمل الذى يدخر غذاءه للشتاء القادم ، والطيور التى تصنع أعشاشا يسكنها أولادها بعـد

(١) J.W.N. Sullivan, The Limitions of Scince, p. 9.

نفسهم ، ولكن هذا العمل لدى الحيوانات يعتبر « غريزيا » فهو صادر عن غير شعور بالمسئولية ، انها لا تقوم بهذه الأعمال لقلقها من مشكلات الغد، وانما تأتى بها طبيعيا ، ومن ثم تنتفع بها فى المستقبل فالتفكير فى المستقبل يتطلب فكرا مدركا واعيا ،وهو من ميزات الانسان فحسب ، ولا يتمتع به شيء من الحيوانات غيره .

هذا الفرق الكبير بين الانسان والحيوان يؤكد انه لابد أن تكون للانسان مواقع أكثر بالنسبة الى أى نوع آخر للانتفاع بها ، فحياة الحيوانات هى ما تسمى « حياة اليوم » ، ففكرة الغد لا توجد عندها ولكن مطالعة حياة الانسان تقتضى « غدا » ، ولو انكرنا هذه الحاجة لخالفنا الطبيعة .

ويعتقد بعض العلماء والفلاسفة ان خيبة آمال الانسان فى حياته الراهنة هى التى تجعله يفكر فى حياة أفضل ، وهم يرون ان هذا الفكر سوف يتلاشى لو أتيح للانسان مجتمع رفاهى كامل . فقد اعتنق عدد كبير من اسرى الروم المسيحية لانها وعدتهم بأفراح السماء . . ولذا تتوقع هذه الطائفة من العلماء والفلاسفة أن سعادة الانسان ورفاهية المجتمع سوف تزداد اكثر فأكثر ، الى ان تقضى نهائيا على نظرية « العالم الآخر » .

ولكن تاريخ الاربعمائة سنة الأخيرة ــ التى ازدهرت فيها العلوم والتكنولوجيا ــ يكذب هذا التوقع ، فان أول ما هيأ التقدم التكنولوجى للانسان انه أتاح له وسائل عديدة، احتكرتها أيد محدودة قامت بدورها باستغلالها ، وقضت على صغار العمال والحرفيين، وحولت تيار الثروات الى كنوزها ، وخزائنها ، وجعلت من الشعب عمالا فقراء معوزين ، ويمكن مطالعة هذه المناظر القبيحة التى جاءت نتيجة التقدم التكنولوجى ، فى كتاب كارل ماركس « راس المال »، الذى يعتبر ضجيجا للطبقة العمالية التى عاشت القرنين الثامن والتاسع بعد الألف ، ثم بدأت ردود فعل هذا الضجيج، وتبعه كفاح

طويل ، قامت به المنظمات العمالية ، حتى تحسنت الاحــوال الى حد ما . ولكننى أرى ان التغير الذى طرأ على أحــوال العمال ليس الا ظاهريا ، فعامل اليوم يتقاضى أكثر مما كان يتقاضاه بالأمس، أما السعادة الحقة ، فانه أكثر افتقادا لها من سلفه .. ذلك ان النظام التكنولوجى لم يعط الانسان أكثر من مظاهر مادية ، فهو لا يملك القيم الروحية ، حتى يمنح لأتباعه السـعادة والطمأنينة القلبية ، وما أصـــدق ما قاله الشاعر (Blake) عن انســان الحضارة الحديثة :

A mark in every face I meet

Marks of weakness, marks of woe.

« كل وجه ترى عليه سمات فيه ضعف ، وفيه ذل وحقد »

لقد اعترف « برتراند راسل» قائلا « أن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح ، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهـــذه السعادة ، ولكنهم محرومون من نعمتها فى عالمنا الحــديث » (١) . واليوم كما يقول راسل ، أصبح من المستحيل الحصول على هــذه النعمة : السعادة (٢) ! !

انك عندما تزور نيويورك ، تشاهد أبنيتها الضخمة مثل عمارة « امباير ستيت » ، التى تتكون من ١٠٢ طابقا ، وهى عالية جدا ، حتى ان درجة الحرارة فى ادوارها العليا تكون منخفضة جـــدا بالنسبة الى أدوارها السفلى، وعندما تخرج منها وتراها من الشارع فلن تصدق أنك كنت فوق هــذا العملاق الذى يرتفع ١٢٥٠ قدما فوق سطح الأرض ، ولا يستغرق المصـــعد الكهربائى للصعود من أسفلها الى أعــلاها أكثر من ثلاث دقائق !! وبعد مشاهدة هـــذه العمارات والمظاهر تذهب الى النوادى وتشاهــــد الرجال والنساء

---

(١) Conquest of Happiness, p. 11.

(٢) Ibid., p. 93.

يرقصون ملتصقين .. وتفكر : « ما اسعد هؤلاء الناس ! » ثم تأوى الى مقعد تشاهد الرقص المثير ، ولن تقضى وقتا طويلا حتى تأتيك حسناء من هؤلاء القوم ، وتجلس على المقعد المواجـه لمقعدك ، انها تبدو كئيبة ، فتسألك دون مقدمات :

— أيها السائح ، هل انا قبيحة المنظر ؟

— اننى لا أرى ذلك ..

— ولكننى افهم اننى فقدت « روعة الجمـــال » ، أليس كذلك ؟

— لا .. فى رأيى انك تملكين الكثير من الفتنة وروعة الجمال.

— شكرا أيها السائح الكريم ! ولـكن الشبان لا يبالون بى ، ولا يواعدوننى .

لقد أصبحت الحياة بالنسبة الى مملة موحشة .

ان ما رأيته فى نيويورك لم يكن الا منظرا مقتضبا من مسرحيـة الانسان فى العصر الحديث .

لقد اقامت العلوم والتكنولوجيا ابنية شامخة ، ولكنها نزعت السعادة من قلوب ساكنيها ، انها اقامت مصانع تتحرك بالات هائلة ولكنها حرمت عمالها الراحة التى يطمحون اليها ، وهذه هى نتيجة التاريخ العلمى والتكنولوجى . فكيف بنا اذن نطمح ونتوقع عالمـا يسوده السلام والسعادة ، من « صنع التكنولوجيا » ! ؟

## (ب) الضرورة الاخلاقية :

وعندما ندرس المسالة من الوجهة الاخلاقية نرى انه لا بد من « الآخرة » ، فان التاريخ الانسانى لن يكون له اى معنى بدونها .

ان فطرة الانسان تميز بين الخير والشر ، والصالح والطالح ،

والظلم والعدل ، وهذه الفطرة هي التي تميز الانســان عما سواه ، ولكن ها هو ذا الانسان الذي كرمه ربه ، يهدر فطرة الله اكثر ممن لا يتمتعون بها ، انه يظلم بني جنسه ، يقتلهم ويشردهم ، ويوجـه اليهم كل شر مستطاع ..

ان الحيوانات لاتظلم فصائلها ، فالاسد ليس فى الأسود أسدا، والنمر ليس فى العرين نمرا .. ولكن الانسان أصبح يفترس اخوانه حتى الأقربين منهم ، مما لا يوجد له مثيل فى قانون الغابة .

ولا مرية أننا وجدنا أضواء الحق والعدالة فى التاريخ الانسانى، واننا نقدرها حق قدرها ، ولكن الجـــزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم والفساد والعدوان، ان المؤرخ ليصاب بيأس بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض تماما مع الضمير الانسانى .

ولنقتبس هنا بعض الأقوال :

**فولتير** : « ان التــاريخ الانسانى ليس الا صـــــورة للجرائم والمصائب » (١) .

**هربرت سبنسر** : « أن التاريخ تهريج ، وكلام فارغ لا جدوى منه » .

**نابليون** : « ان التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعنى شيئا » .

**ادوارد جبن** : « ان تاريخ الانسان لا يعدو أن يكون ســـجلا للجرائم ، والحماقة ، وخيبة الأمل » .

**هيكل** : « ان الدرس الوحيد الذى تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئا « (٢) .

---

(١) Story of Philosophy, Will Durant, p. 220.

(٢) Western Civilisation, E. Menall, Burns, p. 871.

هل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهى الى كارثة اليمــة ؟ ان فطرتنا تقول :

لا . . فدواعى العدالة والانصاف فى الضمير الانسانى تقتضى عدم حدوث هذا الامكان ، لا بد من يوم يميز بين الحق والباطل ، ولابد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما، وهذا مطلب لا يمكن اقصاؤه من مقومات التاريخ ، كما لا يمكن ابعاده عن فطرة الانسان .

ان هذا الفراغ الشاسع الذى يفصـــل ما بين الواقع والفطرة يقتضى ما يشغله ، فان المسافة الهائلة بين ( ما يحدث ) و ( ماينبغى أن يحدث ) تدل على ان مسرحا آخر قد اعد للحياة ، وانه لابد من ظهوره . فهذا الفراغ العظيم يدعو الى تكميل الحياة . وانى لأتحير عندما يؤمن الناس بفلسفة الروائى الانجليزى « هاردى » القائلة : بأن العالم مكان للظلم والوحشية ، ولكننى أصاب بحيرة أكبر عندما ارى ان هذه الحالة البالغة السوء لا تقودهم الى الايمان بان: ماليس بموجود اليوم ويقتضيه العقل ، لا بد من حدوثه غدا .

« اذا لم تكن هنالك قيامة فمن ذا الذى ســـوف يكسر رؤوس هؤلاء الطواغيت الطغاة؟ » ــ كلمة كثيرا ماتخرج من شفتىمصحوبة بأنين مرير ، عندما أطالع الجرائد ، فجرائدنا صورة مصغرة لمـا يحدث كل يوم على الأرض ، والصورة التى تحملها الجرائد الينــا رهيبة . . انها تتكلم عن الاغتيالات ، والخطف والنهب ، والاتهامات الكاذبة ، والتجارة السياســـية ، والدعايات الباطلة التى تتلاعب بالألفاظ . ان هذه الجرائد تخبرنا كيفنكل الحكم الفلانىبمعارضيه الضعفاء ، باسم مصالح الامة ، ودواعى الأمن القـــومى ؟ ! وكيف سيطر ذلك الشعب على ارض لم يملكها طيلة التاريخ بقوة السلاح!! وليست هــذه الجرائد الا حكايات لمأســاة الضعيف والقوى ، والسلطان والرعاع !!

ان الأحداث التى وقعت فى بلادى اخيرا ، وبخاصة تلك الاغتيالات

الجماعية ، وعمليات النهب والحرق المخططة التى جرت فى مناطق جبل بور ، وجمشيدبور ، وراؤركيلا ، وكلكتا ــ يبــدو بعدها أن المرء لا ينبغى أن يستبعد وقوع اية جريمة على هذه الأرض ، سواء مكنه تصورها ام لا ! ! فان قوما يرفعون شــعارات ( العلمانية ) و ( الجمهورية ) و ( اللاعنف ) يستطيعون ــ فى نفس الوقت ــ أن يرتكبوا أبشع انواع الطائفية ، واشنع الوان الديكتاتورية ، واسوا صور العنف ، كما لم يشهده التاريخ . وكل هذه الجرائم البشعة ــ التى تأسى لحدوثها الســباع المفترسة ، والذئاب الكاسرة ، والخنازير الوحشية ــ قد جرت فى عهــد زعيم أطلق عليه لقب . « معلم الانسانية ورسوم السلام (١) » !! وليت المأساة توقفت عند هذا الحد ، فلقد ارتكبت فى هــذا العصر الذى ازدهر فيه النشر والاذاعة ، جرائم شنيعة ، واحداث مروعــة ، من نهب ، وقتل ، واحراق اقوام بأسرهم ، ودامت المأساة اشهرا طويلة ، بل سنين عديدة فى بلاد شاسعة جدا من الهند ، والصحافة العالمية لا تنشر عنها شيئا ما ، وقد محيت تماما هذه الجرائم من صفحات التاريخ، كأن لم تكن مأساة الأمس القريب !!

هل خلق هـــذا العالم ليكون مسرحا للمآسى ، والشيطنة ، والهمجية والقرصنة ، ثم لا يلقى الظالم والمظلوم جزاءهما ؟ ان عالما ــ من هذا القبيل ــ اعلان فى حد ذاته عن أنه ناقص ، وهذا النقص فى ذاته يقتضى ما يكمله .

### (جـ) مشــكلة السلوك :

ولندرس هذا من ناحية اخرى . لقد شغلت مسألة هامة الذهن الانسانى من أقدم العصور ، وهى كيفية اجبار الناس على ســلوك

---

(١) الاشارة الى جواهر لال نهرو ، وقد جرت الاحداث البشعة التى اشار اليها المؤلف خلال الاعوام ١٩٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ولم ينشر عنها شىء بفضل التآمر العالمى ( المراجع ) .

طريق الحق ، فاذا افترضنا أن بعض أفراد المجتمع قد منحوا سلطة سياسية من أجل تحقيق هذا الهدف ، فمن الممكن أن يمتنع الرعايا خوفا من العــذاب . ولكن ما الذى يدفــع أولئك الذين يتمتعون بالسلطة السياسية الى تحقيق العدل والانصاف؟ ولو اننا استنجدنا القانون ، واستصرخنا المحكمة ، فكيف اذن يمكن أن نبلغ بهما تلك الأماكن والجوانب التى لا تخضع للشرطة والقانون ؟ ولو اننا خضنا معارك الدعاية ، وناشدنا أهل الشر أن يكفوا عن الجرائم ، فمن ذا الذى ينصت الينا ؟ ويتخلى عن فائدة يجنيها دون كلفة ؟ أن رهبة عقاب الدنيا لن تنجح فى قمع انحرافات الانسان ، فنحن جميعــا نعرف أن الكذب ، والرشوة ، والمحسوبية ، واستغلال النفــوذ ، وما الى ذلك من الوسائل المعروفة ، سوف تحول دون أى امكان للعقاب .

انه لن يفلح شيء فى قمع الجرائم غير الدافع المنبعث من داخــل قلب الانسان ــ الضمير الذى لو دخــل ارادة الانسان فلن يسقطه عامل خارجى أيا كان، وهذه الميزة غير متاحة الا فى عقيدة الآخرة . . فان دافعا قويا يكمن فى هذه العقيدة ، ويجعل من اتقاء الجرائم مصلحة ذاتية لكل انسان . انها مصلحة يهتم بها الجميع، فالكل رئيسا كان أم مرءوسا ، فى الظلام كان أو فى الضوء ــ ينطلق ويفكر فى أنه لابد من يوم للقاء الله ، والكل يشعر بأن الله يراه، وسوف يحاسبه حسابا عسيرا . وهذه الأهمية الكبرى فى عقيدة الآخرة هى التى جعلت القاضى ماتيو هالوس (Mathew Halos) وهو من كبار قضاة القرن السابع عشر يقول :

« ان القول بأن الدين خدعة ، هو بمثابة ابطال لجميع المسئوليات التى تقع على عاتقنا لاستقرار النظام الاجتماعى » (١) .

الا ما أهم هذا الجانب من نظرية الآخرة !!

---

(١) Religion Without Revelation, p. 115.

وانا لنستطيع أن ندرك ابعاد هذه النظرية لو تأملنا أن كثيرا من علمائنا الملحدين، الذين لا يعتقدون أن الآخرة امر واقع، قد اضطروا ـ بناء على تجارب التاريخ ـ الى القول بأنه لا يوجد شيء غير « الآخرة » لمراقبة الانسان ، واخضاعه لسلوك طريق الحق والعدل فى جميع الظروف .

لقد انكر الفيلسوف الالمانى « كانت » فكرة ( الاله ) ، قائلا ( انه لا يجد أدلة شافية على وجوده ) . فهو ينكر « الصواب النظرى » فى الدين ، ولكنه فى نفس الوقت ، يضطر الى أن يسلم « بالصواب العلمى » فى الدين ، من الناحية الأخلاقية (١) .

و ( فولتير ) ايضا لا يؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة ، ولكنه يرى :

« أن اهمية الاله والحياة الآخرة عظيمة جدا ، حيث انهما اساسان لاقامة « المبادىء الاخلاقية » .. وهو ( فولتيرا) يرى ان هذه العقيدة وحدها كفيلة بايجاد اطار اخلاقى افضل للمجتمع. ولو ان هذه العقيدة زالت فلن نجد دافعا للعمل الطيب . وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعى » (٢) .

ان الذين يرون أن « الآخرة » فكرة خيالية ينبغى أن يفكروا : كيف اصبحت فكرة خيالية ذات أهمية قصوى بالنسبة الى واقع حياتنا ؟

لماذا لا نستطيع بدونها اقامة نظام اجتماعى سليم ؟

ولماذا تنهار قيم حياتنا عندما نتخلى عن هذه الفكرة ؟

هل يمكن ان تحتل فكرة خيالية هذه الاهمية الكبرى فى الحياة ؟

---

(١) Story of Philosophy, N.Y., 1954, p. 279.

(٢) Windelband, History of Philosophy, p. 496.

هل وجدتم مثالا ما فى الكون لفكرة خيالية غير كائنة ، اصبحت تتمتع بهذه الاهمية الحقيقية فى الحياة ، رغم أنها لا علاقة لهـــا بواقعنا ؟ !

ان حاجتنا الملحة الى الآخرة لتنظيم الحياة ، واقامتها على اسس عادلة حقيقية ، هى ـ فى حد ذاتها ـ تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون ، ولست أبالغ اذا قلت : ان هذا الجانب المنطقى من الاستدلال يثبت حقية هذه النظرية ، على مستوى التحقيق المعملى العلمى ..

**( د ) الضرورة الكونية :**

ولننظر الى هذه القضية من جهة ثالثة ، تلك التى أسميها : « الضرورة الكونية » . لقد تكلمت فى الصفحات الماضية عن وجود الاله فى الكون ، وقد ثبت جليا ان الدراسة العلمية والفكرية هى التى تدعونا الى القول بوجود اله لهذا الكون . وبقى ان نسأل : لو كانت هناك علاقة بين الاله والانسان لما كان بد من ظهورها ، فمتى ستظهر هذه العلاقة جليا ؟

اما بالنسبة الى عالم اليوم ، فمن الممكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر بعد ، فالرجل الذى لا يؤمن بالاله ، يصيح قائلا : « اننى لا أخاف من الله » ، ثم هو لا يصاب بأذى ، بل قد يحصـــل على الزعامة ، ويتسلم مقاليد الحكم ! !

اما الذين يبلغون رسالات الله ، فان السلطات توقف نشاطهم بحجة انه « غير شرعى » وهنالك أيضا مكاتب ومؤسسات تشغلها ـ ليل نهار ـ الدعاية الأولئك الذين يقولون : « لقد ذهب صاروخنا الى القمر ولم يتشرف بلقاء الهكم ! » ، وجميع أجهـــزة الدعاية الرسمية تدعم هذه المؤسسات فاذا ما نهض أصـــحاب الدعوات برسالتهم ردهم علماء العصر قائلين : انكم رجعيـــون تتخبطون فى الظلمات !

يولد الأطفال ، ثم يشبون ، ويموتون .
تصل الشعوب الى أوج مجدها ، ثم تنقرض .
تقع الثورات ، ثم تزول .

تشرق الشمس وتغرب ، ولكن لا تظهر آيات وجود الله .

وفى هذه الحالة تطالبنا عقولنا وقلوبنا بالايمان بوجود الله ، أو انكار هذا الوجود . فلو آثرنا الايمان بالله ، فلا مناص لنا من الايمان بالآخرة . فليست هناك طريق أخرى لتبين علاقة الانسان بالاله .

لقد سلم ( داروين ) بأن لهذا الكون « خالقا » . ولكن « تفسير الحياة » الذى قدمه لا يتضمن ادنى ربط بين الخالق ومخلوقه ، كما أنه لا يحس بالحاجة الى «نهاية» لهذا الكون ، حاجة تدفعه الى تقرير هذا الربط ، ولست أدرى كيف سيملأ ( داروين ) هذا الفراغ الكبير فى نظريته البيولوجية ؟ ان عقلى يستنكر الها لا علاقة له بأمور الكون ، ولا يشهده عباده فى مظهر الخالق ابدا . وما أعجب « خالق داروين » ـ هذا الذى يأتى يكون عملاق هكذا ، ثم ينهيه ، دون ابداء الأسباب التى دفعته الى هذا الخلق ، ودون تعريف مخلوقيه بصفاته العديدة ! !

اننا لو أعطينا هذه المسألة الخطيرة شيئا من تفكيرنا ، فسوف نجد قلوبنا تصرخ « ان الساعة آتية لا ريب فيها » (١) بل اننا لو تأملنا فسنراها مسرعة الينا سوف نراها ثقيلة ، وشيكة الانفجار ، كأنها الوليد فى بطن الحامل . وما أقرب ما تفتك بنا ـ فجأة ـ ذات عشية وضحاها :

**« يسألونك عن الساعة ايان مرساها . قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو . ثقلت فى السموات والارض . لا تأتيكم الا بغتة » (٢) .**

---

(١) غافر : ٥٩ .
(٢) الاعراف : ١٨٧ .

## رابعا ـ الشهادة التجريبية :

نواصل الآن بحثنا فى الجانب الآخر من هذا الموضوع : (الآخرة) وهو : هل هناك شهادة تجريبية تثبت الحياة بعد الموت ؟

ان أول دليل على الحياة الثانية هو حياتنا الاولى فى حد ذاتها، فان الذين ينكرون الحياة الثانية يقرون ، بداهة ، الحياة الأولى . والحياة ، تلك التى ظهرت مرة واحدة ، كيف تعجز عن اعادة نفس العملية مرة أخرى ؟ هذه التجربة التى نعيشها نحن اليـوم ، كيف يستحيل حدوثها ثانية ؟؟ انه لا شىء اكثر عداء للمنطق والعقـل الانسانى من أن نسـلم بوقوع حادث فى « الحـال » ، وننكره فى « المستقبل » !!

ياله من تناقض عجيب . . أن الانسان يدعى أن « الآلهة » التى اخترعها هو بقدراته الخارقة لتفسير الكـون تستطيع اعادة وقائع الكون مرة اخرى ، ولكنه يرفض بعناد تلك النظـرية المماثلة التى يتقدم بها الدين ، ويعبر « السير جيمس جينز » عن نظرية هـؤلاء القوم قائلا :

« لا غرابة اذا كانت أرضنا قـد جاءت صدفة نتيجـة بعض الحوادث . واذا بقى كوننا على حاله الراهنة لمدة طويلة مماثلة ( لمدة حدوثه صدفة ) ، فلا نستبعد حدوث أى شىء يمكننا قياسه على الأرض » (١) .

وترى نظرية النشوء والتطور ان جميع انواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائى واحد، وانها ارتقت الى ماهى عليه الان خلال مراحل تطورية متطاولة . وبناء على هـذا التفسير الذى قام بوضـعه « داروين » ـ صاحب هذه الفكرة ـ فان «الزراف» ، الموجود حاليا

---

(١) Modern Scientific Thought, p. 3.

كان فى بدء الامر من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف ، ولكن هذا الحيوان ، من خلال العمليات الطـــويلة التى أعقبت التوالد والتناسل ، والتغيرات والفوارق الصغيرة التى طرأت على الجنس الحيوانى ، استطاع أن يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادى، الذى نشهده اليوم .

يقول « داروين » موضحا نظريته فى الباب التاسع من كتابه :

« ومن الأمور الحتمية عندى انه ـ اذا ما اجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل ، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذى ظلف عادى حيوانا مثل الزراف » (١) .

وهكذا اضطر جميع العلماء ، الذين حاولوا شرح الكون والحياة بطريق طبيعية ، الى أن يسلموا بانه لو هيئت نفس الاحوال ـ التى ساعدت فى خلق الحياة الاولى ـ فمن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرة اخرى . ان امكان حدوث الحياة الاخرى أقوى ـ نظريا ـ من امكان الحياة الاولى ، الذى قد وقع فعلا ، وأى شىء نسلم به انه خلق الحياة ـ مهما كان هذا الخالق ـ فلا بد لنا من الاقرار بصفة بدهية بأن ذلك الخالق يستطيع بالتأكيد اعادة نفس الحوادث التى انشأها للمرة الأولى ، ولا بد لنا من هـــذا الاعتراف ، اللهم الا اذا انكرنا الحياة الاولى ( الموجودة الآن ) .. فنحن نفقد جميع الأسس التى قد نبنى عليها دعائم انكارنا للحياة الأخرى ، عندما نسلم بوجود الحياة الأولى !

## خامسا ـ البحث النفسي :

لقد أثبت البحث النفسي ، الذى ذكرناه آنفا ، أن جميع أفكار الانسان ـ أو بعبارة أخرى : جميع خلايا مخه ـ تبقى بصفة دائمة

(١) Origin of Species, p. 169.

وهذا الواقع يثبت بصراحة أن عقل الانسان ليس بجزء من جسمه، فان جميع خلايا وانسجة الجسم تتغير تغيرا كاملا فى بضعة أعوام ، ولكن سجل اللاشعور لا يقبل اى تغير او مغالطة أو شبهة على رغم مرور مئات السنين . ولو كان هذا السجل الحافظ كائنا فى الجسم فلا ادرى أين مكانه منه ؛ وفى اى جزء يكمن على وجه الخصوص ؟ ولو كان فى أحد أجزاء هذا الجسم ، فلماذا لا يزول عنـــدما تزول هذه الاجزاء بمدسنوات عديدة ؟ **ما اعجب هذا السجل الذى تتحطم جميع لوحاته تلقائيا ، ولكنه لا يفنى ولا يزول ؟ !**

ان هذه البحوث الجديدة فى علم النفس تؤكد ، بصفة قاطعة، ان الوجود الانسانى لا تنحصر حقيقته فى ذلك الجسم المادى الذى يخضع دوما لعمليات التحطم والاحتكاك والفناء ، بل هو شىء آخر غير هذا كله ، وهو لا يفنى ، بل يبقى مستقلا ، ولا يزول .

ويعلم من هذا أيضا أن الحواجز وقوانين الزمن لا وظيفة لهـــا الا فى عالمنا هذا ، ولو كان هناك عالم آخر ، يبدأ عند فناء جسمنا المادى، فهو يخلو تماما من هذه الحواجز والقوانين . ان كل مانباشره من الأعمال والأفعال الشعورية يخرج فى نطاق هذه القوانين والحواجز ولو كانت هناك « حياة عقلية أخرى » ــ كما يعتقد فرويد ــ فمعناه أن هذه الحياة الجارية لن تفنى ابدا ، بل ستستأنف مسيرتها بعد الموت ، وسوف نكون على قيد الحياة ، فان هــــذا الموت لم يكن الا نتيجة من نتائج هذه الحواجز والقوانين الزمنية . أما وجودنا الحقيقى ــ وهو اللاشعور ، كما يقول فرويد ــ فهو حر مستقل عن هذه الحواجز والقوانين ، ولا يطرأ عليه الموت ، بل يأتى ( الموت ) على الجسد العنصرى المادى ، ويبقى ــ اللاشعور ــ وهو الانسان الحقيقى ــ كما هو . . ومثاله أن حادثا وقع قبل ربع قـــرن ، أو فكرا خطر ببالى قبل عشرين سنة ، وقـــد نسيت كليهما قاطبة ، ومع ذلك فانى أراهما فى أحـــلامى اليوم . وتفسير ذلك عند علماء

النفس هو انهما كانا محفوظين فى « اللاشعور » بأكمل صورهما وجزئياتهما ، كأنما حدثا بالأمس !!

وقد نتساءل هنا : وأين هذا اللاشعور ؟ فلو كان منقوشا على الخلايا – كالصوت مسجلا على الاسطوانات – فان تلك الخلايا ، التى سجلت ذلك الحادث قبل ربع قرن، أو هذه الفكرة قبلعشرين سنة ، قد تحطمت وزالت منذ سنين طويلة ، ولا علاقة لها ، فى أى صورة ، بجسدى الموجود الآن . فأين هذا الفكر من جسدى ؟ تلك شهادة تجريبية تثبت – قطعيا – أن هناك عالما آخر خارج أجسامنا المادية ، مستقلا بذاته ، ولا يفنى بفناء الجسم ، أو جزء من اجزائه .

## سادسا – البحوث الروحية :

أثبتت « البحوث الروحية » Psychical Researches الحياة بعد الموت ، على المستوى التجريبى والعملى . ان الأمر الذى يدفعنا الى ابداء مزيد من الاعجاب بهذه البحوث هو أنها لاتثبت « بقاءا محضا» لروح ما ، بل انها تثبت أيضا بقاء الشخصيات التى كنا نعرفها بذاتها قبل أن تموت !!

ان هناك خصائص كثيرة يتمتع بها الانسان من قديم الأزمان ، ولكننا لم نلق الضوء عليها الا حديثا . ومن هذه الخصائص : «الرؤيا» ، التى تعد من أقدم مميزات الجنس البشرى . والحقائق المثيرة التى كشفها علماء النفس عن هذه الميزة لم يكن قدماؤنا على علم بها .

وهناك مظاهر اخرى درسناها أخيرا ، واجرينا بحوثا واحصاءات فى مختلف انحاء العالم حولها وجاءت البحوث بنتائج غاية فى الأهمية .

ومن هذه البحوث ما نسميه « بالبحوث الروحية » .. وهى فرع من علم النفس الحديث ، وهدفها محاولة الكشف عن المميزات الانسانية غير العادية ، وقد اقيم أول معهد لاجراء هذا النمط من البحوث عام ١٨٨٢ م فى انجلترا . وبدأ علماء المعهد عملهم سنة ١٨٨٩ م ، بعد أن قاموا بمسح واسع النطاق على ١٧ الفا من المواطنين ، ولا يزال هذا المعهد موجودا باسم « جمعية البحوث الروحية» . وقد انتشرت الان معاهد كثيرة فى مختلف بلدان العالم . واثبتت هذه المعاهد ، بعد بحوثها وتجاربها الواسعة النطاق ، أن الشخصية الانسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادى ، فى صورة غريبة .

كان وكيل متنقل لشركة امريكية يسجل طلبات عملائه . جالسا فى حجرته فى فندق سانت جوزيف ، بولاية ميسورى ، فاذا به يشعر أن أحدا يجلس عن يمينه . ويقول الرجل :« فحولت وجهى بسرعة فوجدت أنها أختى ! » .

وكانت أخته هذه قد ماتت منذ تسع سنين .. وبعد برهة اختفى وجه أخته . وكان الوكيل قد أفزعه هذا الحادث ، لدرجة انه بدلا من أن يستأنف جولته ، قرر مغادرة ( ميسورى ) الى بيته فى بلدة ( سانت لويس ) . وفى البيت ذهب يقص على أقربائه الحادث بالتفصيل كما رآه ، وعندما وصل أثناء كلامه الى هذه الجملة : « وشاهدت على خدها الايمن جرحا واضحا أحمر اللون » .. فاذا بأمه تصرخ وتقوم مرتعدة ، وهى تقول : « أننى أنا السبب فى ذلك الجرح الذى رأيته ، وقد حدث ذلك عن غير قصد منى ، وقد ندمت لذلك الحادث وآلمنى المنظر ، فازلت كل آثار الجرح ، ووضعت فى مكانه شيئا من البودرة ! » وأضافت الأم قائلة :

« ومنذ ذلك اليوم لم أفض بهذا السر الى أحد أبدا » (١) .

ان هذه الوقائع وأمثالها لاتختص بأمريكا وأوروبا، وانما تحدث بكثرة فى كل منطقة من العالم . ولكن حيث أن اكثر البحوث العلمية الحديثة قد أجريت فى تلك المنطقة من العالم ، فلا بد لنا أن نأتى بالشهادات التجريبية من تلك المناطق أيضا . ولو كان عند بعض علمائنا شيء من الطموح والثقة بالنفس ، وبدأوا هذا العمل فى مناطقهم، فمن الممكن أن نجمع شهادات لاحصر لها فى بلادنا الآسيوية والأفريقية . وأنا شخصيا على علم بكثير من وقائع مماثلة تدعم هذه النظرية بصفة مدهشة ، ولكنا بكل اسف تعوزنا الهمم للقيام بمثل هذه البحوث العلمية ، وما يلزمها من قدرة على الانفاق ، وبذل الوقت المطلوب .

ان هناك وقائع لا تحصى من هذا القبيل ، وهى تؤكد وجود « شخصيات معروفة » بعد موتها . ولا سبيل أمامنا لاعتبار هذه الوقائع والحقائق : « أوهاما وخيالات » ، كما اعتاد بعض الناس القول ببساطة فى مثل هذه المسائل ، فان سر الجرح على خد الفتاة الايمن — وقد ماتت منذ حقبة من الزمن — لم يكن أحد يعرفه غير الفتاة وأمها ..

وهناك وقائع أخرى تؤكد بقاء الحياة بعد الموت ، وهى وقائع تتعلق بأولئك الذين نسميهم : « بالمتحركين آليا » Automatists (٢) ويطلق هذا الاسم على الذين تصدر عنهم أفعال رغم ارادتهم الذاتية وهذه الوقائع تدل على أن أرواحا — لأشخاص قد ماتوا — تسكن فى أجسام هؤلاء الأحياء . ويكشف هؤلاء الناس أثناء أعمالهم عن جزئيات لا يعرفها الا الموتى، أصحاب الارواح.. ثم يظهر بعد شهور وسنين أن تلك الجزئيات كانت حقائق واقعية ..

(١) Human Personality and its Survival of Bodily Death. FWH Myers, N.Y., 1903, Vol. II, pp. 27 - 30.

(٢) ربما كان من بين هؤلاء من نصفهم بلغتنا الدارجة بانهم : ( ركبهم الجن ) فهم مسلوبو الارادة ، يتكلمون بلسان غيرهم من العفاريت . **( المراجع )** .

وهناك أيضا رجال يتكلمون ويكتبون فى آن واحد ، ولا يكون للمكتوب أية علاقة بالقول ، كما ان الكاتب لا يعلم بنفسه ماذا كتب، الا بعد الاطلاع على ما كتبه ، « وهذا الواقع يثبت أن روحا ــ غير روحه الشخصية ــ تسكن فى جسده ، وهى التى تجعله يكتب» (١) .

ان كثيرين من علمائنا المحدثين يرتابون فى قبول هذا الاستدلال كما يقول « براد » .

« ان أى فرع من فروع العلوم الحديثة لا يؤكد امكان الحياة بعد الموت ، اللهم الا ذلك الاستثناء المشتبه فيه من البحوث الروحية » (٢) .

بيد أن الاستدلال يشبه عندى ان أقول : « أن « التفكير » استثناء مشتبه فى أمره ، لأن أحدا من ملايين الحيوانات على سطح الأرض لم يصدق هذه الظاهرة غير الانسان !! » .

ان بقاء الحياة وفناءها يتعلق بعلم النفس ، لكونه مسألةنفسية بحتة . فلا تصلح دراسته الا فى علم النفس ، أما أن نبحث عنه فى أقسام أخرى من العلوم فهو بمثابة أن نطالب **علمى** ( النبات ) و ( الفلزات ) باثبات ظاهرة التفكير . ولا نستطيع ــ أيضا ــ أن نجعل دراستنا داخل الجسم الانسانى **حكما** فى هذه المسألة الخطيرة وسببه ان الجزء الذى ندعى بقاءه واستمراره فى الحياة ــ وهو الروح ــ لا يوجد فى هذا الجزء المادى ، بل فى جسم آخر سواه .

وهذا هو الأمر الذى دفع الكثيرين من علمائنا الى الاعتراف بأن « الحياة بعد الموت « واقع حقيقى ، بعد أن قاموا بأبحاث علمية

(١) A Philosophical Scrutiny of Religion, pp. 407 - 10.

(٢) Religion, Philosophy & Physical Researches, London, 1953, p. 235.

طويلة غير منحازة . وقـــد ألقى « البروفيسور دوكاس » ، وهو أستاذ الفلسفة بجامعة براون ، ضــــوءا على الجوانب النفسية والفلسفية من مسألة الحياة بعد الموت ، فى الباب السابع عشر من كتابه . والدكتور دوكاس لا يؤمن بالحياة بعد الموت كعقيدة دينية، وانما وجد ــ اثناء بحوثه ــ شواهد كثيرة ، اضطر ــ على أثرها ــ أن يؤمن بالحياة الاخرة ، مجردة عن قضايا الدين . وهو يكتب فى آخر الباب السابع عشر من كتابه قائلا :

« لقـــد قام رهط من أذكى علمائنـا واكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة ، وفحصوها بنظرة نقد ثاقبة ، وقـد توصلوا آخر الأمر الى أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة « بقـاء الروح » نظرية معقولة ، وممكنة الحدوث .. وهم يرون أنه لا يمكن تفسير تلك الشواهد الا على هذا النحو . ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع ان نذكر : الاساتذة الفريد راســـل واليس ، والسير وليام كروكس ، وف . و.هـ .مايرز ، وسيزار لومبرازو ، وكميل فلاماريون ، والســــير أوليفر لوج ، والدكتور ريتشارد هوجسن ، والمستر هنرى سيدويك ، والبروفيســـور هيسلوب » ــ ويستطرد الدكتور دوكاس قائلا :

« ويتضح من هذا ان عقيدة بقاء الحياة بعد الموت ــ التى يؤمن بها الكثيرون منا كعقيدة دينية ــ ليس من الممكن أن تكون واقعـا فحسب ، وانما لعلها هى الوحيدة ، من عقائد الدين الكثيرة ، التى يمكن اثباتها بالدليل التجريبى . ولو صح هذا فمن الممكن أيضـا أن نجد معلومات قطعية فى هذا الموضوع ، بغض النظر عن الأفـكار التى افتراها رجال الدين عن نوعية الحياة بعد الموت ، ولن نحتاج حينئذ الى الايمان بالوجهة الدينية من هذه النظرية (١) .

---

(١) A PhilosophicalScrutiny of Religion, p. 412.

ويكاد الدكتور دوكاس ـ بعد الوصول الى هذا الحد من وضوح قضية الحياة بعد الموت ، ثم الجحود بوجهتها الدينية ـ إن يكون مثله مثل الفلاح الذى يصر على انه لا سبيل الى الحديث بينه وبين احد أقربائه، الذى يسكن فى بلدةنائية .. فاذا وصلت خط التليفون مع قريبه هذا فى البلدة النائية ، وأعطيته السماعة .. اذا به يقول لك ، بعد فراغه من الكلام : « ليس من الضرورى انه كان صوت قريبى ، فمن الممكن انه كان يخرج من احدى الماكينات ! » .

# الباب السادس

## اثبات الرسالة

من العقائد الهامة فى الدين ، بعد الايمان بالله ، عقيدة الايمان بالرسالة ، أو الوحى والالهام . ومعناها : ان الله تعالى **ينزل** كلامه على انسان يختاره من بين الناس ، ليخبر النـــاس بما يرضى الله تعالى .

وحين عجزنا عن رؤية أى **خط اتصال ساخن** ، بين الله سبحانه وبين الرسول ، انكرناه . ولكنا اليوم نستطيع أن نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة .

أن هناك وقائع كثيرة جدا تجرى من حولنا فى كل لحظة ، ونحن نعجز عن ادراكها ، أو سماعها ، أو الاحساس بها بوساطة أجهزتنا العصبية ، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا ادراكها بفضل الأجهزة العلمية التى اخترعناها . وهذه الاجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعـــد بضعة أميال ، وكأنه يطير عنـــد اذنك !

ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه الى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية فى الفضاء ! !

لقد اخترعنا آلات كثيرة اثبتت انها تستطيع ادراك كثير جدا من الأحداث التى لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية .

وهذه الطاقة غير العادية للسماع لاتخص الآلات العلمية الحديثة وانما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضا . ومما لا شك فيه أن جهاز سماع الانسان محدود جدا ، ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف

كل الاختلاف ، فالكلب مثلا ، يستطيع ان يشم ريح الحيوان الذى مر من الطريق ، ومن ثم استغلت الكلاب فى البحث عن الجـــرائم والمجرمين .. فالقفل الذى كسره اللص يشمه الكلب المدرب ، ثم ينطلق مقتفيا اثر الرائحة المعينة التى وجدها عند القفل المكسور، وفجأة نراه يمسك باللص من بين الألوف .

وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتا تخرج عن نطاق اسماعنا ، ولقد اثبتت البحوث فى هذا الميدان أن بعض الحيوانات تتمتع بقوة « الاشراق » Telepathy . فلو انك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth) ، أو ( العثة ) وهى حشرة مجنحة ـ على نافذة مفتوحة فستحدث صوتا يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جدا ، ولسوف يجيبها هذا الزوج ايضا بطريقته .

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى « الجندب » ، يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريق غير عادية ، ويسمع على مبعـــدة نصف ميل ، وهو يحرك فى هـــذه العملية ستمائة طن من الهواء ، ليدعو زوجه ، وهذه الزوج ترسل أيضا وهى ساكنة بلاحراك جوابا لا نعرفه ، وانما يعرفه الجندب الذكر ، ثم يلحق بها أينما كانت .

و قد أثبتت البحوث أيضا أن « أبو النطيط » العادى Grasshoper لديه قدرة خارقة على السماع ، حتى انه يستطيع ان يسمع ويحس الحركة التى تحدث فى نصف قطر من ذرة الهيدروجين !

وهناك امثلة اخرى كثيرة تؤكد امكان وجود وسائل غير مرئية لدى ذوى الحواس الخاصة ، واذا كان الأمر كذلك ، فمـا وجه الغرابة فى ادعاء انسان انه يسمع صـوتا من لدن ربه ، ولا يدركه عامة الناس ( ؟ ) ما دام من الممكن أن توجد فى هذا العالم حركات واصوات لا تسمعها آذان الانسان ، ولكن تسجلها الآلات؟ وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى ؟

ما هو جانب التعجب والاستبعاد ؟

ان الله تعالى ــ لحكمة يعلمها ــ يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية الى الانسان المختار للرسالة ، بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها. فليس هناك من تصادم فى الحقيقة، بين مشاهدتنا وتجاربنا العلمية ، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التى نشاهدها ونجربها فى أمكنة وطرق مختلفة ، فالوحى امكان وجدناه فى شكل الواقع بعد التجربة .

وقد تبين أن تجارب الاشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات ، وانما توجد فى الانسان « بالقوة » ، يقول الدكتور اليكسيس كاريل (١) : « ان حدود الفرد فى اطار الزمان والمكانهى مجرد افتراض » (٢). فيستطيع عامل الاشراق أنيجعلك تنام ، وتضحك ، أو تبكى ، كما يستطيع ان ينقل اليك كلمات أو خواطر ، لست على علم بها . أنها عملية لا تستعملفيها أية وسائل ولا يشعر بها غير عامل الاشراق وصاحبه .

كيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربه ؟ اننا بعد الايمان بالله ، والاطلاع على هذه التجارب الكثيرة بما فى ذلك الاشراق ، لا نجد أساسا لانكار الوحى والالهام .

وقد حدث سنة ١٩٥٠ ان المسئولين فى « بافاريا » رفعوا قضية ضد أحد النمسويين ، واسمه ( فرنتر ستروبيل ) ، بتهمة التدخل فى برامج الاذاعة عن طريق الاشراق .

وكان فرنتر ستروبيل يستعرض اعماله فى فندق ريجنا ، بميونيخ ، عندما ناول أوراق لعب الكوتشينة الى أحد المتفرجين ، وطلب اليه اختيار ورقة ما ، وادعى أنه سوف ينقل اسم تلكالورقة

---

(1) Man the Unknown, p. 244.

(٢) أى لا نهاية لهذه الحدود من حيث الامكان . ( المعرب .

واسم الفندق مع ترتيبهما ، كما هما فى ذهن المتفرج ، الى المذيع الذى كان يقرأ الاخبار من اذاعة ميونيخ المحلية ، ذلك دون أن يعرف المذيع نفسه شيئا من هذا !!

بعد ثوان سمع الناس صوت مذيع مرتعش ، وهو يقول : « فندق ريجنا ـ بنت البستونى » وكان الترتيب واسم الورقة صحيحين ، كما اراد المتفرج .

وكان الارتعاش والرهبة واضحين فى صوت المذيع ، ولكنه واصل قراءة الاخبار . استغرب الكثيرون من المستمعين من سكان ميونيخ ، واتصل مئات منهم تليفونيا بالاذاعة يستفسرون عن السر الغامض .. فكان من الصعب عليهم ادراك علاقة الاخبار « بفندق ريجنا ـ بنت البستونى » : وحضر طبيب الاذاعة للكشف على المذيع فوجده فى حالة اضطراب خطيرة ، وادلى المذيع ببيانه قائلا : « اننى شعرت بصداع شديد فى رأسى ، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك ! » .

وقد عرض العلماء نظريات عديدة لشرح هذه الصور من عملية الاشراق ، ومنها ان أمواجا تصدر من المخ وتنتشر فى العالم أجمع بسرعة فائقة . ولذلك سموها بنظرية الموجة المخية (١)
Brain Wave Theory

ونحن نقول : أنه لما كان الانسان يستطيع تحويل الأفكار بأكملها الى انسان آخر ، على بعد غير عادى ، وبدون استعمال اى واسطة مادية ظاهرية ، فلماذا تستحيل نفس العملية بين الاله وعباده ؟ ان هذا المظهر من كفاءة قوى الانسان ـ وأمثلته كثيرة لا تحصى ـ ليس الا قرينة تجريبية تجعلنا نفهم علاقة الالفاظ والمعانى التى تربط العبد بالاله عندما يرسل رسالاته .

ان الاشراق امر معروف لدى الناس ، وهو يدلنا على فهم ذلك النظام الاشراقى العظيم بين الاله والعباد ، والذى يكون فى أكمل

---

(١) Religion, Philosophy and Physical Research. C.D. Broad, pp. 47 - 48, Man the Unknown, pp. 244 - 49.

صوره حين يبلغ درجة « الوحى » ، وهذا الوحى لا يعدو أن يكون « اشراقا كونيا » ، من نوع الاشراقات التى عهدناها فى حياتنا على مستويات محدودة .

**اولا — ضرورة الرسالة :**

وينبغى — بعد وضوح امكان الوحى والالهام — أن نبحث عما اذا كان « ضروريا » أن يخاطب الله انسانا ، ليبلغ كلامه الى الناس ؟

أن أكبر دليل على هذه الضرورة هو أن الأمر الذى يخبرنا عنه الرسول من اهم الأمور التى تتعلق بحياة الانسان ومصيره ، والانسان لا يستطيع ان يصل الى تلك الحقائق بجهوده الشخصية ، انه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون كى يفهم أسرار بدء الحياة ونهايتها وحقائق الشر والخير ، وكيفية صوغ الانسان من أجل الانسانية ، وتنظيم أجهزة الحياة حتى تستطيع هذه الجهود الانسانية ان تسير قدما فى طريق الخير والرفاهية .. ولم تكلل هذه الجهود بالنجاح الى يوم الناس هذا . فقد كشفنا عن أسرار الحديد والبترول ، وتعرفنا على حقائق الطبيعة بعد جهد قصير ، ولكنا عاجزون عن كشف « علم الانسان » ، رغم أن جهود أعظم عقولنا العبقرية تواصل البحث عن هذا العلم ، ولم تستطيع ، حتى الآن ، تحديد مبادئه وأسسه . أن هذا هو أكبر دليل على أن الانسان يحتاج الى هدى الله من أجل أن يعرف نفسه !

ومن المسلم عند الانسان الجديد انه لم يفلح بعد فى كشف لغز الحياة ، ولكنه على كل حال يأمل فى ان يساعده القدر يوما لرفع القناع عن هذا السر المعقد ، ولا ريب أن عجز مجتمع العلم والصناعة عن اشباع الحاجات النفسية للانسان يؤكد الفكرة التى تقول : «اننا أعطينا أهمية غير عادية للعلوم المادية ، على حين تركنا العلوم الانسانية فى مراحلها البدائية» ، أما الذين دفع بهم طموحهم الجارف الى العمل فى هذا المجال ، مجال ( العلوم الانسانية ) فهم كذلك لم

يستطيعوا كشف شيء ما ، بل لجوا فى ضلالهم يعمهون ، يقول الدكتور الكسيس كاريل ( الحائز على جائزة نوبل للعلوم ) .

« أن مبادىء الثورة الفرنسية ، وافكار ماركس ، ولينين ، لا تنطبق الا على الانسان العقلى المثالى . ومن الواجب أن نشعر بصراحة تامة بأن قوانين العلاقات الانسانية لم تكشف بعد . أما الاجتماع والاقتصاد وما اشبههما ، فهى علوم افتراضية محضة ، بدون أدلة يمكن اثباتها » (١) .

ولا شك ان علومنا الجديدة قد فتحت مجالات أمام الانسان، ولكنها فى نفس الوقت جعلت المسألة أكثر تعقيدا ، ولم تساعد فى حل الأزمة فى أية مرحلة .

ويقول الاستاذ ج.و.ن. سوليفان :

« أن الكون الذى كشفه العلم الحديث هو أكثر غموضا وابهاما من التاريخ الفكرى بأكمله ، ولا شك فى أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أى عصر مضى ، ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعة ، فنحن نواجه اليوم الابهام والمتناقضات فى كل ناحية » (٢) .
هذه الكارثة المؤسفة التى نقف أمامها ، بعد بحث طويل فىالعلوم المادية عن سر الحياة ، تدلنا على أن ادراك سر الحياة لن يتاح للانسان (٣) .

أن أحوالنا تحتم علينا معرفة سر الحياة ، اذ اننا لا نستطيع مواصلة الحياة فى أكمل صورها دون معرفته ، ولذلك كان خير ما نتمنى بقلوبنا أن ندركه ، ولا يرضى اسمى جزء من شخصيتنا ،

---

(١) Man the Unknown, p. 37.

(٢) Limitations of Science, p. 1.

(٣) انظر للتفصيل كتاب الدكتور كيريل ، ص ١٦ ــ ١٩ .

وهو العقل ، أن يطمئن بدونه . فحياتنا مبعثرة لفقداننا هذه الحقيقة

سر الحياة هو ضرورتنا الكبرى ، هذا من ناحية ، ولكننا ، من ناحية أخرى ، لا نستطيع أن نظفر به بجهودنا وحدها .

هذه الحالة وحدها تكفي لنتبين حاجتنا الشديدة الى «الوحي» فاهمية سر الحياة ، ثم خروج هذا السر عن دائرة قوى الانسان ، يدل على انه لابد أن تأتي المعرفة من الخارج أيضا ، كالضوء والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الانسان ، ولكنهما هيئا من الخارج (١) .

ان مهمتنا ، بعد التسليم بامكان الوحي وضرورته ، هي أن نبحث عن الانسان الذي يدعي أنه نبي .. هل هو صاحب الوحي في الحقيقة ؟ .. لقد نصت العقيدة الدينية على مجيء عدد كبير من الأنبياء ، ولكننا سوف نبحث في هذا الباب عن نبوءة رسول الاسلام: سيدنا محمد بن عبد الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، فان نبوة سائر الأنبياء من قبله تثبت تلقائيا لو ثبتت نبوته ، لكونه آخر الأنبياء ، ولأنه يصدقهم ولا ينكرهم ، ولان نجاة البشرية ، أو هلاكها في معركة الحياة رهن بايمانها بهذا النبي ، أو تكذيبها اياه .

لقد ولد الطفل بمكة صبيحة يوم ٢٩ أغسطس من عام ٥٧٠ م، وعندما بلغ الأربعين من عمره ، أعلن ان الله تعالى أرسله خاتما للنبيين ، وكلفه بابلاغ رسالته الى جميع فئات الجنس البشري ، وأن من أتبعه نجا في الحياة الآخرة ، ومن كذبه فهو في خسران مبين .

ان أصداء هذا الصوت تمر فوق رؤوسنا اليوم بأشد قوتها ، وهو ليس بصوت عادي تتجاهله الآذان .. فهو أكبر نداء في تاريخنا يدعونا الى تفكير دقيق ، وعلينا أن ندرسه بدقة ، فاما قبلناه وهو صادق ، وأما رفضناه لو وجدناه كاذبا .. وهيهات .

---

(١) سوف نبحث هذه المسألة بتوضيح أكثر في الفصول القادمة .

**ثانيا ـ مقياس الرسالة :**

كل فكر يمر بثلاث مراحل ، حتي يصبح حقيقة علمية :

المرحلة الأولى : الفرض Hypothesis

المرحلة الثانية : الملاحظة Observation

المرحلة الثالثة : التحقق Verification

والمرحلة الأولى من الحقائق هى أن نفترضها ، ثم نشاهدها وندرسها، لنتبين صدقها أو كذبها ، فان وجدناها صحيحة فى ضوء الدراسة ، قبلناها ، لتصبح حقيقة علمية ، وقد ينقلب هذا الوضع فاننا فى بعض الأحيان نشاهد أشياء نتوصل بها الى نظرية ، ثم نبدأ البحث فى ضوئها .

وبناء على هذا الأساس فان دعوى النبوة ( فرض ) . وعلينا أن نفتش عما اذا كانت ( الملاحظات ) تؤيد هذا الفرض ؟ فاذا أيدته المشاهدات أصبح ( حقيقة ) مصدقة ، يلزمنا قبولها ..

ولكن ما الملاحظات التى نحتاج اليها لاختبار هذا الفرض ؟

وما المظاهر الخارجية التى تؤيد كون محمد ( صلى الله عليه وسلم ) نبيا حقا ؟

وما الخصائص والميزات التى اجتمعت فى الرسول ، ولا نجد لها تفسيرا الا اذا قلنا : انه كان نبيا !

فى رأيى انه لا بد من **مقياسين لاختبار** الانبياء :

**أولا :** أن يكون رجلا مثاليا بصورة غير عادية ، فان الذى يصطفى ليكون كليم الله ، وليكشف للانسان برنامج الحياة وسرها، لابد أن يكون اسمى شخصية فى النوع الانسانى ، كما لا بد أن يكون حاملا مثل الحياة العليا . فاذا كانت حياته الذاتية متصفة بهذه الصفات فهى أكبر دليل على ما يقول ، اذ لو كانت دعواه باطلة لما

كان ممكنا أن تتجلى هذه الحقيقة الكبرى فى حياته الذاتية ، حتى تسمو به فوق سائر الانسانية ، خلقا وشمائل .

**ثانيا :** ان يكون كلامه ورسالته مملوئين بجوانب يستحيل حصولها للانسان المادى ، ولا تؤمل الا ممن ظفر بمعرفة رب الكون ، بحيث لا يمكن للعامة محاكاة ما جاء به النبى من وحى الله .

اننا سوف نبحث عن الرسول فى ضوء هذين المقياسين .

لقد شهد التاريخ بكل قطعية ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يتمتع بسيرة غير عادية ، ومن الممكن للمتعصبين انكار اية حقيقة مهما كانت واضحة ، كما أن من الممكن للمنكرين ادعاء اى شيء فى سبيل الاستغلال ، اذا كانوا غير راضين بالنتيجة ، مهما كانت صادقة وبدهية ! وحسبنا أن نذكر على ذلك موقفا من حياتنا الحديثة ! فقد شاهدنا منذ سنين قليلة مثالا ساخرا لهذا المبدأ ، عندما هاجمت الصين الشعبية حدود الهند الدولية ، وأخذت الصين ازاء احتجاج الهند تتهم الهند نفسها بالعدوان !!

وفى الخطاب الذى أرسله رئيس وزراء الصين الى الهند ، والذى اذيع نصه بدلهى فى يناير عام ١٩٦٠ ، ادعت الصين ان لها حقا فى أرض هندية تبلغ مساحتها ٢٢٠٫٠٠٠ كم مربعا !! ويقول رئيس وزراء الصين : ان القوات الصينية لم تتقدم الا لتدفع بالقوات الهندية المحتلة الى الوراء !!

اليس هذا منطق التعصب والاستغلال !!

اما الذى لا يشكو من داء التعصب ، ويهيىء عقله لمطالعة الحقائق بقلب مفتوح واع ، فانه سيسلم بعد دراسته بأن حياة محمد صلى الله عليه وسلم كانت أرقى ، وأحلى حياة شهدها البشر .

لقد أخبر محمد بن عبد الله بالنبوة ، وهو فى الأربعين من عمره ، وكان قد اشتهر قبل هذا بدور اخلاقى ممتاز . حتى لقبه الناس

« بالصادق الأمين » ، وكانت قريش قد اجمعت على انه يستحيل ان يكذب ، أو يخون الأمانة .

ومن الاحداث التي جرت قبل اعلانه النبـوة بخمس سنين ان اهل مكة أرادوا بناء الكعبة من جديد ، وكانت قريش هي صاحبة الأمر ، فاختلفت فيمن سيضع الحجر الأسود في مكانه ، واستمر الخلاف اربعة أيام أو خمسة ، وأوشكت السيوف أن تبرز ، وكاد القوم أن يتناحروا ، ثم اتفقوا على أن يكون الفيصل في هذه القضية اول من يدخل البيت الحرام صباح غد ، وفي اليوم التالي شاهدوا أن الانسان الأول الذي دخل البيت كان محمدا ، فنادوه قائلين : « هذا الأمين ، رضينا » (١) .

اننا لا نعرف شخصية في التاريخ الانساني تمتعت بهذا الاجلال والتكريم والتقدير ، وبهذه السيرة غير العادية ، ثم اصبحت موضع نزاع بعد مضي أربعين سنة من عمرها .

وعندما نزل عليه الوحي لأول مرة ، وهو في غار حراء ، اعتبره حادثا غريبا لم يعهده من قبل ، فرجـــع الى بيته يرجف فؤاده ، وقص كل ما حدث على زوجه : خديجة التي كانت أكبر منه سنا، فقالت : « يا أبا القاسم والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » .

وكان أبو طالب عم النبي ، قد أبى أن يؤمن ، ولكنه حين عـلم أن ابنه « عليا » أسلم ، قال له : أي بني ما هذا الدين الذي انت عليه ؟ فقال : يا أبت : آمنت بالله ، وبرسول الله ، صليت معـــه واتبعته، فقال أبو طالب: اما انه لم يدعك الا الى الخير فالزمه»(٢).

(١) صحيح البخاري باب ما ذكر في الحجر الاسود .
(٢) Ideal Prophet, p. 58. ، وانظر سيرة ابن هشام ١\٢٦٥ .

وعندما جمع الناس لأول مرة بعد النبوة فى رحاب «جبل الصفا» سألهم : « يا بطون قريش ! ارأيتم لو أخبرتكم أن خيـلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ » فعلت الأصـــوات من كل الحناجر ، وهى تقول : « نعم ، ما جربنا عليك كذبا ! » .

ان هذا السجل التاريخى الممتاز لحياة الرسول قبل اعـــلان النبوة ، ليس له مثيل فى العالم ، ولم يسبق أن أحرز مثله اى شاعر او فيلسوف ، او مفكر ، أو كاتب !!

وعندما اعلن محمد ( صلى الله عليه وســـلم ) النبوة ، لم يكن صدقه موضع شك ، أو بحث مطلقا لدى أهل مكة ، فانهم كانوا على علم تام بحياته الكاملة ، ولذلك لم يرمه أحد بتهمة الكذب أو الاحتيال ، بل ذهبوا يدعون انه قد فقد وعيه ، أو انه شاعـر أو ساحر، أو أن الجن استولت على اعصابه، وما الى ذلك من الدعاوى التى تحفل بذكرها الكتب التاريخية ، ولكن هذه الكتب لا تشير الى اية محاولة جرؤ صاحبها على النيل من أمانته وصدقه . بل يسجل التاريخ أنه : « ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه الا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته » (١) .

وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة ، صمم بعض شبان قريش على قتله، وحاصروا بيته لاغتياله، وفى تلك الساعة الخطرة الحرجة قرر الهجرة الى يثرب ، ولكنه أوصى ابن عمه ( عليا ) أن يرد جميع الأمانات الى أصحابها فى الصباح ! .

وهذا النضر بن الحارث ، وقد كان أكبر المعارضين للنبى ،وكان يعد من الخبراء المحنكين بمكة ــ وقف يوما ، فالقى خطبة فى جمع من قريش ، وقال :

« يا معشر قريش ، أنه والله قد نزل بكم أمر ما اتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ، ص ٩٨ .

حديثا، وأعظمكم امانة، حتى اذا رايتم فى صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ، ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم : كاهن ، لا والله ، ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم وقلتم شاعر لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر ، وسمعنا اصنافه كلها ، هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون ، لا والله ، ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه . يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فانه ، والله ، لقد نزل بكم أمر عظيم » .

« وكان هذا النضر من شياطين قريش: وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة » (١) .

وكان أبو لهب عم النبى من الد أعدائه ، وقال له ذات مرة : « يا محمد ، انني لا أقول : انك كاذب ، ولكن الامر الذى تقوم بتبليغه باطل » (٢) .

ان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت عامة لسائر أهل الأرض ، غير مقصورة على الجزيرة العربية ، ولذلك ارسل كتابات ملوك البلاد القريبة ، وقد تلقى أمبراطور الروم « هرقل » كتابا من الرسول ، يدعوه الى اعتناق الدين الجديد ، فأمر رجاله باحضار رجل من قوم الرسول فى ديوانه (٣) . وكان بعض التجار من قريش يقومون برحلة تجارية فى بلاد الشام ، فجيء بهم الى ديوان القيصر، وسألهم هرقل عمن كان أقربهم نسبا بالرسول، فأجاب ابو سفيان: « أنا أقربهم نسبا » . ثم جرى حديث تاريخى هام بين هرقل وابى سفيان ، نقتبس هنا منه شيئا :

---

(١) المرجع السابق ١\٣١٩ .

(٢) الترمذى .

(٣) كان قيصر الروم هرقل حينئذ فى بيت المقدس يشكر الله لغلبته على الفرس ، وقد تلقى هذا الكتاب هناك .

« هرقل : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟

ابو سفيان : لا .

هرقل : هل يغدر ؟

أبو سفيان : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

فقال هرقل : قد أعرف انه لم يكن ليذر الكذب على النـاس ، ويكذب على الله .

وعندما دار هذا الحديث لم يكن أبو سفيان قد آمن بالرسول بعد ، بل كان من خصومه ، الذين ألبوا عليه العرب ، وشنوا ضده الحروب ، وقال ، وهو يروى هذا الحادث : « والله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه (١) .

ان التاريخ على طوله لم يشهد رجلا أدلى خصومه بآراء مثالية عن سيرته وحياته مثلما أدلى به خصوم رسول الاسلام .

ان هذا الواقع هو الآخر دليل فى حد ذاته على حقيقة دعوة النبى العربى . وسوف انقل هنا ما قاله الدكتور ليتز عن الرسول :

« اننى لأجرؤ بكل أدب أن أقول : ان الله هو مصـــدر ينابيع الخير والبركات كلها ، لو كان يوحى الى عباده فدين محمد هو دين الوحى ، ولو كانت آيات الايثار ، والامانة ، والاعتقاد الراسخ القوى ووسائل التمييز بين الخير والشر ، ودفع الباطل هى الشاهد على الالهام ، فرسالة محمد هى هذا الالهام » (٢) .

لقد عانى محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، من صنوف الاذى ، وضروب العنت والاضطهاد عندما بدأ دعوته ، وحاربه قومه اشد

---

(١) صحيح البخارى : كيف كان بدء الوحى .

(٢) Life of Mohammad, by Abul Fadl.

الحرب واقساها، فوضعوا فى طريق مروره الاشواك ، وصبوا، على جسمه الطاهر أكواما من النجاسة .. بل ووجدناه ذات مرة بينما كان يؤدى صلاته ، واذا ( عقبة بن ابى معيط ) يلببه بردائه بشدة حتى وقع النبى على الأرض ..

ولكن هذه الاستفزازات لم تؤثر فى مهمة النبى ، فاتبعوا معه اسلوبا آخر ، وذلك حين قاطعوه هو وعشيرته من بنى هاشم ، واجبروهم على أن يعتزلوا الناس ، فلجأوا الى شعب بنى هاشم ، ومنعوا عنهم الطعام ، وحرموا التعامل معهم ، ومضى على هذه المقاطعة والحصار التاريخى ثلاث سنين ، وهم يأكلون أوراق شجر ( الطلح ) الجبلية المرة، لسد حاجة البطن الى الطعام. ويروى أحد الصحابة فى هذا الحصار انه حصل مرة على قطعة جافة من الجلد، فغسله بالماء ووضعه على النار ، ثم بلله بالماء ثانية واكله .

وبعد الخروج من هذا الحصار ذهب النبى صلى الله عليه وسلم الى أهل الطائف ، وكانت تبعد اربعين ميلا عن مكة ، وكان يقطنها الاعيان والاثرياء من ثقيف ، واستخدم هؤلاء لغة بالغة السوء مع الرسول . وذهب أحدهم يقول متحديا : « هو يمرط ( يمزق ) ثياب الكعبة ، وان كان الله أرسلك » ، وقال الاخر : اما وجد الله احدا يرسله غيرك » . وقال الثالث : « والله لا اكلمك ابدا ، لئن كنت رسولا من الله، كما تقول ، لأنت اعظم خطرا من ان ارد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن اكلمك » .

ولم يكتف هؤلاء بهذا الاستهزاء ، بل اغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس يرمونه بالاحجار ، الى ان سقط على صخرة مثخنا بالجراح ، وحين جلس ليستريح من الجراح والعنت ، رموه حتى نهض مبتعدا عنهم ، وهم يتابعونه بالسب والايذاء والتصفيق .. ولم يزل هذا المشهد حتى اقبل المساء ، وأوى الرسول الى حائط لعتبة بن ربيعة ، فجلس فى ظل

كرمة، وهو جريح ملطخ بالدماء، وهذا هوالواقع الذى كان الرسول يذكره للسيدة عائشة فى قوله :

« لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة » (١) .

وعلى الرغم من هذا الأذى الشديد ، فقد ظل الرسول يدعوالى الحق ، حتى اجتمعت قريش على أنه لا سبيل الى التخلص منه الا بالقتل . وبناء على مؤامرة دبروها ، أحاط عدد من رؤسائهم وشبيبتهم ببيت الرسول، وفى أيديهم سيوفهم المسلولة، استعدادا لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما يخرج من بيته لتأدية صلاة الصبح ، ولكنه باذن من الله ، خرج من البيت دون أن يصاب بأذى ، وهاجر الى المدينة المنورة .

ثم أعلنت قريش قتالا منظما ضد النبى واعوانه ، وجروه الى الحرب ، وورطوه فى هذه الحروب زهاء عشر سنين ، وقد سقطت فى معاركها أسنانه الكريمة ، وكسرت رباعيته ، كما استشهد عدد كبير من صحابته، وعانى مع أصحابه كل ماتعانيه الشعوب الضعيفة بعد اعلان الحرب عليها .

وهكذا دارت رحى التاريخ خلال ثلاثة وعشرين عاما من الكفاح وقبيل نهاية رسالته بعامين فتحت مكة ، ويومها وقف أمامه ألد خصومه ، لا يجدون نصيرا ولا معينا .. فهم يعرفون كيف يعامل

---

(١) نص هذا الحديث : قالت عائشة : يارسول الله ، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، اذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى الى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق الا بقرن الثعالب . فرفعت رأسى فاذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فاذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : ان الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث اليك ملك الجبال ... الخ ـ المراجع .

المنتصر المغلوبين ، ولكن الذى لقبه ربه بانه « رحمـــة للعالمين» سألهم :

— « يا معشر قريش ، ما تظنون انى فاعل بكم ؟ » .
— فقالوا : « خيرا ، أخ كريم ، وابن اخ كريم » .
— فاعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم :
« اذهبوا فانتم الطلقاء ! » .

ذلكم ، ولا شك ، اعظم مثل للرحمة والعفو ، وهو معجزة من معجزات التاريخ الانسانى ، ولو كان هذا الحدث من أحداث ماقبل التـــاريخ ، أو لم يكن مسلما به تاريخيا ، لكذبه المكذبون الذين فى قلوبهم زيغ ، وقالوا : انها أسطورة من اساطير التاريخ ، فلم يخلق انسان بهذه الشيم !

وما أصدق ما قاله البروفيسور بورسورث سميث :

« عندما القى نظرة اجمالية استعرض فيهـــا صفاته وبطولاته ما كان منها فى بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذى نفخ فيهم روح الحياة ، وكم من البطولات المعجـــزة احدثوا ــ أجده أقدس الناس ، واعلاهم مرتبة ، حتى ان الانسانية لم تعرف له مثيلا (١) .

ان المثل الأعلى الذى ضربه النبى فى حياته الكاملة ، من الاخلاق العالية ، والزهد فى الأموال والملذات ، شىء لا مثيل له فى التاريخ .

لقد كان تاجرا ناجحا فى مكة ، وكانت زوجه السيدة خديجةمن اثرى نساء العرب، ولكن كل تجارته ، وثراء زوجته، ذهبا فى سبيل الدعوة ، ثم ابتلى ببلاء شديد ، حتى انه قال مرة :

---

Mohammad & Mohammadanism p. 340.

« لقد أخفت فى الله ، وما يخاف أحد ( أى مثـل ما أخفت ) ، ولقد أوذيت فى الله ، وما يؤذى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين ليلة ويوم ، ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد ، الا شيء يواريه ابط بلال » (١) .

وما عانى النبى كل هذا الا لأجل دعوته ، لقد كان من الممكن ان يعيش حياة أخرى ، تختلف كل الاختلاف عن الحياة البائسة التى عاشها فى سبيل رسالته ، ولقد عرضت عليـــه ، حين كان بمكة ، عروض مغرية تكفل له العيش الرخى ، والمجد السنى ، فأوفد اليه رؤساء قريش « عتبة بن ربيعة » ، الذى جاء ليقول له :

« يا ابن أخى ، أنك منا ، حيث قد علمت من السلطة فى العشيرة والمكان فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمـــر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، فاسمع منى ، أعرض عليك أمورا ، تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . فقال له : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : يا ابن أخى : ان كنت تريد ، بما جئت به من هذا الأمر ، مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا ، سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منـــه » . حتى اذا فرغ عتبة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال: لقد افرغت يا أبا الوليد ؟ ، قال نعم ، قال :

فاستمع منى ، فقال : أفعل .. فقرأ عليه الآيات الأولى من سورة ( فصلت ) فلما وصل الى قوله تعالى : « مثل صاعقة عاد وثمود » أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم أن يكف » (٢) .

---

(١) الترمذى عن أنس رضى الله عنه .

(٢) سيرة ابن هشام ١\٣١٣ – ٣١٤ .

وفى المدينة المنورة، كان النبى صلى الله عليه وسلم رئيسا لدولة المسلمين ، وكان يتمتع بمساعدين مثاليين ، يبذلون حياتهم لأجله، ولم يعرف لهم نظراء على مدى التاريخ ، ولكن الوقائع التاريخية اثبتت أنه ــ حتى فى آخر أيام حياته ، حين أظلت رايته الجزيرة العربية كلها ــ بقى رجلا عاديا ، غير ملتفت الى شهوات الدنيا ومغرياتها ، حتى لحق بالرفيق الأعلى .

وقد روى سيدنا عمر بن الخطاب انه دخل حجرة النبى صلى الله عليه وسلم : » فاذا هو مضطجع على رمال حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد اثر الرمل بجنبه ، متكئا على وسادة حشوها ليف .. قلت : يا رسول الله أدع الله ، فليوسع على امتك ، فان فارس والروم قد وسع عليهم ، وهم لا يعبدون الله . فقال : او فى هذا أنت ، يا ابن الخطاب ؟ أولئك عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، وفى رواية ، أما ترضى عن أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة » (١) .

ومما تحكى السيدة عائشة انه « كان يمر الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهله فى شهرين ، وما توقد فى أبيات الرسول صلى الله عليه وسلم نار ، فسألها عروة بن الزبير : فما كانت معيشتكم، يا خالة ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء . وقالت: وكان لنا جيران من الأنصار ، لهم ربائب يسقوننا من لبنها ، جزاهم الله خيرا » . وقد جاء فى حديث آخر : انها ذكرت « أن آل محمد لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بر ، حتى مضى النبى صلى الله عليه وسلم لسبيله » (٢) .

لقد عاش النبى هذه الحياة القاسية ، رغم كونه قادرا ، كل القدرة ، على أن يعيش حياة النعيم والترف . وعندما انتقل الى

---

(١) متفق عليه .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١\٤٠٠ وما بعدها .

رحمة الله لم يورث أهله شيئا ، لا دراهم ولا دنانير ، ولا غنما ولا ابلا ، حتى انه لم يكتب أية وصية . بل ان النبى العظيم ، الذى كان على معرفة تامة بأن حدود دولته الاسلامية سوف تمتد عابرة أفريقية وآسيا ، حتى تصل الى قلب أوروبا ــ قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا صدقة » .

ان هــــذه الوقائع التى أوردناها ، من الايثار ، والاخلاص ، وسمو الأخلاق ، ليست حوادث استثنائية فى حياة الرسول ، وانما هى حياته بأكملها ، بل هى بالحرى ، صــورة مصغرة وموجزة عن الوقائع التى كانت تحدث فى حياته المثالية ، لقد ارتفع بالانسانية الى أسمى قمة تحلم بها ، حتى انه لو لم يوجد ، لاضطر المؤرخون الى القول : بأنه لم يوجد انسان من هذا الطراز ، ولن يوجــد فى التاريخ .

فليس غريبا ، مطلقا ، ان يقال : انه كان نبى الله ، ولكن الغريب أن ينكره أحد منا عنادا وغرورا .

ونحن عندما نسلم بدعواه يمكننا ان نفسر سر حياته المعجزة .

أما اذا انكرنا نبوته ، فسنفقد اى أساس لتفسير منبع أوصافه العجيبة ، التى لم نجــد لها مثيلا فى التاريخ .. وقـــد اعترف البروفيسور « بوسورث سميث » بهذه الحقائق ، حتى انه ليدعو البشرية كلها الى الايمان برسالة النبى :

« لقد ادعى محمد لنفسه فى آخر حياته نفس ما ادعاه فى بداية رسالته ، وانى لأجدنى مدفوعا الى الاعتقاد بأن كلا من الفلســفة العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطران ، يوما ما ، الى التسليم بأنه كان نبيا .. نبيا صادقا من عند الله » (١) .

---

(1) Mohammad & Mohammadanism, p. 344.

أما الناحية الأخرى فى قضية اثبات الرسالة المحمدية ، فهى ذلك الكتاب الذى جاء به صاحب الرسالة ، مدعيا انه منزل من عند الله تعالى .

وهذا الكتاب يفيض بخصائص ومزايا تدل صراحة على انه كلام غير انسانى ، وانه من عند الله . ولما كان البحث فى هذه الناحية ذا طبيعة خطيرة ـ نظرا لأهميته ـ فقد قررنا أن ندرسه فى باب مستقل . .

# الباب السابع

# القرآن صوت الله

عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسـلم قال ، **(( ما من الأنبياء نبى الا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى اوتيت وحيـا أوحاه الله الى ، فارجو انى اكثرهم تابعـا يوم القيامة )) (١) .**

ان هذا الحديث النبوى يعين جوانب بحثنا الصحيحة ، فهـو يقول : ان أهم وسائلنا لمعرفة النبى هو الكتاب الذى جاء به، مدعيا أنه من عند الله ، والقرآن هو رسالة الرسول بين ظهرانينا ، كما انه يبرهن على صدقه .

**فما الخصائص التى تبرهن على ان القرآن من عند الله ؟**

انها متعددة الجوانب كثيرة ، نستطيع أن نلخصها فى الفصول التالية :

**أولا ـ اعجاز القرآن :**

أول خاصية يتنبه اليها الباحث فى العـلوم القرآنية هى ذلك التحدى الصريح الذى وجهه القرآن الى الناس كافة ، منذ أربعة عشر قرنا ، وبخاصة أولئك الذين ينكرون رسالة القـرآن ، ولم يستطع أحد من عباقرة البشر ان يرد التحدى الى الآن . لقد أعلن القرآن ، بصوت عال لا ابهام فيه ولا غموض :

---

(١) صحيح البخارى : الاعتصام .

**« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » (١) .**

انه أغرب تحد فى التاريخ ، واكثره اثارة للدهشة ، فلم يجرؤ أحد من الكتاب فى التاريخ **الانسانى** ــ وهو بكامل عقله ووعيه ــ أن يقدم تحديا مماثلا ، فان مؤلفا ما لا يمكن أن يضع كتابا ، يستحيل على الآخرين ان يكتبوا مثله ، أو خيرا منه .. فمن الممكن اصـــدار مثيل من أى عمل انسانى فى أى مجال ، ولكن حين يدعى أن هناك كلاما ليس فى امكان البشر الاتيان بمثله، ثم تخفق البشرية على مدى التاريخ فى مواجهة هذا التحدى ، حينئذ يثبت تلقائيا انه كلام غير انسانى ، وانها كلمات صدرت عن صميم المنبع الالهى Divineorigin وكل ما يخرج من المنبع الالهى لا يمكن مواجهة تحدياته .

وفى صفحات التاريخ بعض الوقائع ، غر أصـــحابها الغرور ، فانطلقوا يواجهون هذا التحدى .

وأولى هذه الوقائع ما حدث من الشاعر العربى لبيد بن ربيعة، الشهير ببلاغة منطقه ، وفصاحة لسانه ، ورصانة شعره . فعندما سمع ان محمدا يتحدى الناس بكلامـــه قال بعض الابيات ردا على ما سمع ، وعلقها على باب الكعبة ، وكان التعليق على باب الكعبة امتيازا لم تدركه الا فئة قليلة من كبار شعراء العرب ، وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة ، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم، وعلقها الى جوار أبيات لبيد ، ومر لبيد بباب الكعبة فى اليوم التالى، ولم يكن قد اسلم بعد ، فأذهلته الآيات القرآنية ، حتى انه صرخ

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ .

من فوره قائلا : ( والله ما هذا بقول بشر ، وانا من المسلمين ) (١) .

وكان من نتيجة تأثر هذا الشاعر العربي العملاق ببلاغة القرآن انه هجر الشعر ، وقدقال له عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما : يا أبا عقيل : انشدني شيئا من شعرك ، فقرأ سورة البقرة، وقال : ما كنت لأقول شعرا بعد اذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران (٢) .

وأما الحادث الثاني فهو أغرب من الأول ، وهو عن ابن المقفع

---

(١) هذا الخبر عن لبيد أورده المؤرخ ج . ساروار في Mohammed The Holy Prophet ص ٤٨٨ ــ كراتشي ، وهو على هذا النحو غير مسلم ، لان لبيدا لم يسلم الا في السنة التاسعة للهجرة ، حين وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ضمن وفد كلاب ( أنظر : الطبقات الكبرى ٦\٣٣ ، وأيضا ١\٣٠٠ ــ ط بيروت ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١\٢٧٥ ــ تحقيق الشيخ أحمد شاكر ) . وانما كان الذي حدث قريبا من هذا الذي ذكره المؤلف مع استبعاد رواية اسلامه . فقد ذكر الحافظ أبو نعيم في الحلية ١\١٠٣ أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه كان في أول الاسلام يعيش في جوار الوليد بن المغيرة ، فلما رأى ما يحدث لاخوانه من أذى المشركين عز عليه أن يعذبوا دونه ، فرد جوار الوليد ، ثم مضى الى الكعبة فوجد لبيد بن ربيعة في المجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان فقال لبيد وهو ينشدهم :

( الا كل شيء ما خلا الله باطل ) ...

فقال عثمان : صدقت . فقال :

( وكل نعيم لا محاله زائل )

فقال عثمان : كذبت ، نعيم أهل الجنة لا يزول ، فقال لبيد : يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث فيكم هذا ؟ الى آخر الخبر ، ومفهوم هذا ان لبيدا قد بقي على جاهليته حتى أسلم سنة تسع ، ويذكر ابن قتيبة انه لم يقل في اسلامه غير بيت واحد هو :

الحمد لله اذ لم يأتني أجلي .. حتى كساني من الاسلام سربالا

وقيل هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه .. والمرء يصلحه الجليس الصالح ( المراجع )

(٢) أنظر في هذا الخبر : الشعر والشعراء لابن قتيبة السابق .

أورده المستشرق ( ولاستن ) فى كتابه ، وعلق عليه قائلا :

« ... ان اعتداد محمد بالاعجاز الادبى للقرآن لم يكن على غير اساس ، بل يؤيده حادث وقع بعد قرن من قيام دعوة الاسلام »(١) .

والحادث كما جاء عن لسان المستشرق ، هـــو أن جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير فى عامة الناس ، فقرروا مواجهة تحدى القرآن ، واتصلوا لاتمام خطتهم بعبد الله بن المقفع ( ٧٢٧ م ) ، وكان أديبا كبيرا ، وكاتبا ذكيا . يعتد بكفاءته فقبـــل الدعوة للقيام بهذه المهمة .. واخبرهم أن هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة ، واشترط عليهم أن يتكفلوا بكل ما يحتاج اليه خـــلال هذه المدة ..

ولما مضى على الاتفاق نصف عام ، عادوا اليه ، وبهم تطلع الى معرفة ما حققه أديبهم لمواجهة تحدى رسول الاسلام ، وحين دخلوا غرفة الأديب الفارسى الأصل ، وجدوه جالسا والقلم فى يده ، وهو مستغرق فى تفكير عميق ، واوراق الكتابة متناثرة امامه على الأرض بينما امتلأت غرفته بأوراق كثيرة ، كتبها ثم مزقها .

لقد حاول هذا الكاتب العبقرى أن يبذل كل مجهود ، عساه أن يبلغ هدفه ، وهو الرد على تحدى القرآن المجيد .. ولكنه أصيب باخفاق شديد فى محاولته هــــذه ، حتى اعترف أمام أصحابه ، والخجل والضيق يملكان عليه نفســـه ، انه ، على الرغم من مضى ستة أشهر ، حاول خلالها أن يجيب على التحدى ، فانه لم يفلح

---

(١) Mohammad . His life & Doctrine, p. 143.

فى أن يأتى بآية واحدة من طراز القرآن ! وعندئذ تخلى ابن المقفع عن مهمته ، مغلوبا مستخذيا (١) .

وهكذا لا يزال تحدى القـــرآن الكريم قائما ومستمرا على مر القرون والأجيال ، وهى خاصة عظيمة ورائعة فى صالح القرآن ، تثبت ، دون مرية ، أنه كلام من هو فوق الطبيعة . وأى انســان يتمتع بكفاءة التفكير والامعان ، فى حقيقة الأمر ، يكفيه ذلك ليؤمن بهذا الكتاب .

ومما لا شك فيه أن العرب ــ وهم الذين لم يعرف لهم مثل فى التاريخ ، فى البلاغة والبيان ، حتى أطلقوا على غيرهم اسم «العجم» لشدة اعتزازهم ببيانهم ــ قـــد اضطروا أن يركعوا امام القرآن ، معترفين بعجزهم عن الاتيان بمثله ، فلزمتهم بذلك الحجة . .

ومما جاء فى كتب الحديث عن ابن عباس أن ( ضمادا ) قـــدم مكة . وكان من ازدشنوءة . وكان يرقى (٢) من هذه الريح ( الجنون ومس الجن ) . فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : أن محمـــدا مجنون . فقال : لو انى رأيت هذا الرجـــل ، لعل الله يشفيه على يدى . قال : فلقيه : فقال : يا محمد ! انى أرقى من هذه الريح ، وأن الله يشفى على يدى من شاء ، فهل لك ؟ فقـــال رسول الله : « أن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده ولا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد . » قال : فقال : أعد على

---

(١)وردت فى التاريخ أمثلة اخرى حاول أصحابها مواجهة هذا التحدى غير انهم اخفقوا اخفاقا ذريعا ، ومن هؤلاء : مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وطليحة بن خويلد الاسدى ، والنضر بن الحارث وابو الحسين احمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى وأبو الطيب المتنبى ، وابو العلاء المعرى ، صـــاحب كتاب « الفصـــول والغايات فى مجاراة السور والآيات » ، انظر للتفصـــيل كتاب الرافعى : اعجاز القرآن ــ **المترجم**

(٢) من الرقية ، وهى العوذة التى يرقى بها صاحب الآفة .

كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال : فقال : « لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر ( قعره الأقصى ) (١) .

ان هناك عـــددا لا يحصى من الاعترافات التى أدلى بها ارباب الشعر والادب والفكر، فى شأن القرآن الكريم ، سطرتفى صفحات التاريخ القديم ، كما انها توجد بكثرة فى تاريخ العصر الحاضر .

**ثانيا ــ نبوءات القرآن :**

الجانب الثانى من عظمة القرآن الكريم يتجلى فى تنبؤاتهالمختلفة التى ثبتت صحتها فيما بعد بطرق عجيبة .

ان عددا كبيرا من أذكياء الناس ، ومن العباقرة ، قد جرؤوا على أن يتنبأوا عن انفسهم أو عن غيرهم . ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه النبوءات مطلقا ، بل جاء يكذبها بكل قسوة ، ولقد تحفز الفرص المواتية ، والأحوال المســاعدة ، والكفاءات العالية ، وكثرة الأعوان والأنصار ، والنجاح الخارق فى البداية لكثيرين ــ وهم

---

(١) صحيح مسلم ٢\٥٩٣ ــ حديث رقم ٨٧٨ طبعة محمد فؤاد عبد الباقى . وبقية الحديث كما فى الصحيح : قال : فقال : هات يدك ابايعك على الاسلام ، قال : فبايعه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وعلى قومك » ، قال : وعلى قومى . قال : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فمروا بقومه ، فقال صاحب السرية للجيش : هل أصبتم من هؤلاء شيئا ؟ فقال رجل من القوم اصبت منهم مطهرة ، فقال : ردوها فان هؤلاء قوم ضماد .

وتفسير ( ناعوس البحر ) بأنه : قعره الاقصى ــ منقول عن صحيح مسلم ، من اضافة شارحة ، وهى كلمة غير معروفة من كلام العرب قال ابن الاثير فى ( النهاية فى غريب الحديث ٥\٨١ ) عن أبى موسى : « هكذا وقع فى صحيح مسلم ، وفى سائر الروايات : ( قاموس البحر ) أى : وسطه ولجته » أقول . ولعلها لهجة ضماد . ( المراجع )

يرون أنهم يسيرون تجاه نتائج مرضية ـ أن يتنبأوا بنتيجة معينة بكل يقين ، ولكن الزمن يبطل هذه الدعاوى ويكذبها دائما . . والزمن نفسه هو الذى اثبت صحة ما جاء فى القرآن من التنبؤات فى حين انها جميعا جاءت فى أحوال غير مواتية ، أن هذه التنبؤات ـ وقد وقعت فعلا على ما يحدثنا التاريخ ـ تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها . وما دمنا ندرسها فى ضوء علومنا المادية . فلن نستطيع ادراك حقائقها ، الا ان ننسبها الى مصدر غير بشرى .

كان نابليون بونابرت من أعظم قواد الجيوش فى عصره ، وقد دلت فتوحاته الاولى على أنه سوف يكون ندا لقيصر ، والاسكندر المقدونى . وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه الى راس نابليون فأصبح يتوهم أنه هو مالك القدر . وازداد هذا الشعور لديه . حتى أنه ترك مستشاريه ، وأدعى أنه لم يكتب فى قدره غير الغلبة الكاملة على من فى الأرض . ولكنا جميعا نعرف النهاية التى كتبت له فى لوح القدر .

سار نابليون من باريس يوم ١٢ من يونية ، سنة ١٨١٥ ، مع جحفله العظيم ، ليقضى على اعدائه وهم فى الطريق . ولم تمض غير ستة أيام حتى الحق « دوق ولنجتون » شر هزيمة بجيش نابليون الجبار ، فى « ووترلو » بأراضى بلجيكا . وكان ( الدوق ) يقود جنود انجلترا والمانيا وهولندا . ولما يئس نابليون ، وأيقن من مصيره المحتوم فر هاربا من القيادة الفرنسية متوجها الى أمريكا ولم يكد يصل الى الشاطىء حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه ، وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية ، وانتهى به القدر الى أن أرسل الى جزيرة غير معمورة بجنوب الأطلنطى ، هى جزيرة « سانت هيلينا » ، ومات القائد العسكرى فى هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء والوحدة ، فى ٥ مايو سنة ١٨٢١ .

**والبيان الشيوعى** المعروف ، الذى صدر سنة ١٨٤٨ ، تنبأ بأن أول البلاد التى ستقود الثورة الشيوعية هى ( المانيا ) ، ولكن المانيا

على الرغم من مضى مائة وعشرين عاما من هـــذه النبوءة ، لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة .

ولقد كتب **كارل ماركس** فى مايو ســـنة ١٨٤٩ قائلا : « ان الجمهورية الحمراء تبزغ فى سماء باريس ! » ورغم انه قد مر على هذه النبوءة أكثر من قرن ، فان شمس الجمهورية الحمراءالبازغة لم تشرق على أهالى باريس !

وقد قال **ادولف هتلر** فى خطابه الشهير الذى القاه بميونيخ فى ٤ من مارس سنة ١٩٣١ :

« اننى سائر فى طريقى ، واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لى » (١) . والعالم بأجمعه يعرف اليوم ان الذى كتب فى قدر الجنرال الالمانى العظيم كان هو الهزيمة والانتحار . .

وقـــد شاهدنا وقائع عديدة من هذه النبوءات المضحكة فى « الهند» . . فقد اعلن زعيم الشيوعيين: س.ب. جوشى، فى المؤتمر الثالث للحزبالشيوعى الهندى ، الذى انعقد فى (مدوراى) بجنوب الهند ، فى يناير سنة ١٩٥٤ ، بأن الحزب الشيوعى سوف يحكم ، مستقلا بنفسه ، فى الانتخابات العامة القادمة ، فى ولايات : تراونكو ـ كوتشين ( كيرالا ) ، ومدراس ، وآندهرا ، والبنغال الغربية ، وآسام . وقد أجريت ثلاثة انتخابات عامـــة ( وانتخابات تكميلية أخرى ) فى هذه المدة الطويلة ، ولم يستطع الحزب الشيوعى تأليف وزارة مستقلة فى أية ولاية من ولايات الهند (٢) .

**وسط هذه الجحافل من المتنبئين والنبوءات ، لا نجد غـــير « القرآن » الذى تحققت نبوءاته حرفا حرفا . وهذا الواقع يكفى**

---

(١) A Study of History ( Abridgment ) p. 447.

(٢) تمكن الحزب الشيوعى من تأليف وزارة ائتلافيـــة فى كيرالا فى الانتخابات العـامة لسنة ١٩٦٧ كما تمكنت الجبهة المتحـدة فى البنغال الغربيـة من تأليف وزارة ائتلافية فى الانتخابات التكميلية التى اجريت فى الولاية فى ١٩٦٩ ، وكان الشيوعيون يتمتعون بالاغلبية فى الجبهة المتحدة . ( المترجم )

**فى ذاته لاثبات ان هذا الكلام صادر من عقل وراء الطبيعة يمسك بزمام الاحوال والحوادث ، وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل الى الأبد .**

وسوف نورد هنا خبرين من التنبؤات الكثيرة التى أدلى بها رسول الاسلام ، وتحققت بكاملها . والشهادتان اللتان سنذكرهما، تتعلق احداهما بغلبة الاسلام نفسه ، على حين تتعلق بغلبة الروم مرة اخرى .

( أ ) عندما بدأ النبى صلى الله عليه وسلم دعوته وقفت الجزيرة العربية كلها ضده ، وكان على النبى مواجهة ثلاث جبهات فى وقت واحد :

أولاها : القبائل المشركة ، بعد أن أصبحوا أعداء حياته .

وثانيتها : الرأسمالية اليهودية .

وثالثتها : أولئك المنافقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم ، من داخل معاقلهم .

وكان الرسول يجاهد فى سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات : قوة المشركين ، والرأسمالية اليهودية ، والطابور الخامس ، وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغى وقفات رائعة لا مثيل لها ، ولم يسانده فى مواقفه غير حفنة من المهاجرين والأنصار ، وجماعة أسلمت من العبيد . ومما لا شك فيه أنه قد انضم اليه بعض كبار قريش ، ولكن سرعان ما انقطعوا عن اهلهم وذويهم ، وعادتهم قريش كمعاداتها للنبى .

وقد سارت هذه الحركة بمكة قدما ، تكافح وتناضل ، حتى أصبحت الأمور غاية فى السوء ، واضطر النبى وأصحابه أن يهاجروا الى جهات مختلفة ، حتى اجتمع شملهم فى المدينة المنورة ، وهم فى أشد حالات العوز والفقر ، بعد ماتركوا ثرواتهم فى مكة ــ موطنهم

الأصلى . ويمكن قياس بؤس هؤلاء المهاجرين بتلك الجماعة التى عاشت فى المسجد النبوى ، حيث لم تكن لديهم بيوت ، وكانوا ينامون على « صفة » فى فناء المسجد النبوى ، فأطلق عليهم : « أهل الصفة » . ومما روى فى كتب التاريخ أن تعداد هؤلاء الصحابة الكرام ، الذين عاشوا على « الصفة » بلغ فى بعض الأحيان أربعمائة صحابى .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون فى ثوب ، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك ، فاذا ركع أحدهم قبض عليه ، مخافة أن تبدو عورته .

وعنه ( أبى هريرة ) رضى الله عنه أنه قال : « لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها ، فيقول الناس : انه مجنون ، وما بى جنون ، ما بى الا الجوع ! » .

وفى هذه الحالة البائسة، حيث كان المسلمون فى أسوأ أحوالهم، مكشوفين فى عراء المدينة المنورة ، خائفين ، يترقبون الأعداء من كل جانب ، مخافة أن يتخطفوهم فى أى وقت ، فى هذه الحالة نجد القرآن يبشرهم مرة بعد أخرى :

**« كتب الله لأغلبن انا ورسلى » (١) .**

وقال أيضا :

**« يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » (٢) .**

ولم تمض على هذه البشرى أيام طويلة ، حتى وجد المسلمون

---

(١) المجادلة : ٢١ .

(٢) الصف : ٨ و ٩ .

الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم ، فقد انتصرت أقلية ضـئيلة لا تملك الخيول ولا الأسلحة ، على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة ، والعدة ، والعتاد .

وليس بوسعنا تفسير هذه التنبؤات فى ضوء المصطلحات المادية الا أن نسلم بأن صاحب هذا الاخبار بالغيب لم يأت به من عنـد نفسه ، وانما كان خليفة عن الله ، فلو أنه كان انسانا عاديا لاستحال كل الاسـتحالة أن تصنـع كلماته أقدار التـاريخ . وكمـا قال البروفيسور ( سـتوبارت ) « أنه لا يوجد مثال واحـد فى التاريخ الانسانى بأكمله يقارب شخصية محمد . »

وهو يضيف قائلا :

« ألا . . ما أقل ما امتلكه من الوسائل المـادية ، وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة ، ولو أننا درسـنا التاريخ من هـذه الناحية ، فلن نجد فيه اسـما منيرا هذا النور ، وواضحا هـذا الوضوح ، غير اسم النبى العربى » (١) .

ان هذا الأمر هوأعظم دليل على كونه صلى الله عليه وسلم مرسلا من لدن الحق تبارك وتعالى . وقد اعترف السـير وليام ميور ، ذلك العدو اللدود للاسلام ، بهذا الأمر بطريقة غير مباشرة ، حين قال :

« لقد دفن محمـد مؤامرات أعـدائه فى التراب ، وكان يثق بانتصاره ليل نهار ، مع حفنة من الأنصار والأعوان ، رغم أنه كان مكشوفا عسكريا من كل ناحية ، وبعبـارة أخرى : كان يعيش فى عرين الأسد ، ولكنه أظهر عزيمة جبارة ، لا نجد لها نظـيرا غير ما ذكر فى الانجيل ، من أن نبيا قال لله تعالى :

---

(١) Islam & Its Founder, p. 228.

« لم يبق من قومى الا أنا (١) ! » .

(ب) أما النبوءة الثانية التى وردت فى القرآن ، فهى الاخبار بغلبة الروم على الفرس وقد جاء فى أول سورة الروم قوله تعالى :

**«بسم الله الرحمن الرحيم . الم . غلبت الروم فى ادنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » .**

**كانت الامبراطورية الفارسية تقع شرقى الجزيرة العربية ، على** الساحل الآخر للخليج العربى ، على حين كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من غربى الجزيرة على ساحل البحر الاحمر الى ما فوق البحر الأسود . وقد سميت الأولى ـ أيضا ـ بالامبراطورية الساسانية ، والأخرى بالبيزنطية . وكانت حدود الامبراطوريتين تصل الى الفرات ودجلة ، فى شمال الجزيرة العربية . وكانتا أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر .

ويبدأ تاريخ الامبراطورية الرومانية ـ كما يرى المؤرخ « جبن » ـ فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وكانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى دولة حضارية فى العالم .

وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم ، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى (٢) . وليس يغنى كتاب من الكتب التى ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى ، ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ « ادوارد جبن » : « تاريخ سقوط واندحار الامبراطورية

---

(١) Life of Mohammad, p. 228. ربما يذكرنا هذا الاقتباس بقول القرآن حكاية على لسان موسى عليه السلام : « رب انى لا املك الا نفسى وأخى » ـ المائدة ٢٥ ( المراجع )

(٢) Western Civilization, p. 210.

الرومانية » (١) أكثرها تفصيلا وثقة ، وقد ذكر المؤرخ فى الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا .

اعتنق الملك « قسطنطين » الدين المسيحى عام ٣٢٥ م ، وجعله ديانة البلاد الرسمية ، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم . وعلى الجانب الآخر ، رفض الفرس ــ عباد الشمس ــ هذه الدعوة .

وكان الملك الذى تولى زمام الامبراطورية الرومانية فى أواخر القرن السابع الميلادى هو « موريس » ، وكان ملكا غافلا عن شئون البلاد والسياسة ، ولذلك قاد جيشه ثورة ضده ، بقيادة « فوكاس Phocas » . وأصبح فوكاس ملك الروم ، بعد نجاح الثورة ، والقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشية ، وأرسل سفيرا له الى امبراطور ايران « كسرى أبرويز الثانى » ، وهو ابن « أنو شيروان » العادل .

وكان « كسرى » هذا مخلصا للملك « موريس » ، اذ كان قد لجأ اليه عام ٥٩٠ ــ ٥٩١ م ، بسبب مؤامرة داخلية فى الامبراطورية الفارسية ، وقد عاونه « موريس » بجنوده لاستعادة العرش . ومما يروى أيضا أن «كسرى » تزوج بنت « موريس » ، أثناء اقامته ببلاد الروم ، وبذلك كان يدعوه « بالأب » .

ولما عرف بأخبار انقلاب الروم ، غضب غضبا شديدا ، وأمر بسجن السفير الرومى ، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة .

وأغار « كسرى أبرويز » على بلاد الروم ، وزحفت جحافله عابرة نهر الفرات الى الشام . ولم يتمكن « فوكاس » من مقاومة

(١) The History of the Decline and fall of the Roman. Empire, by Edward Gibbon.

جيوش الفرس التى استولت على مدينتى « انطاكية والقدس » ، فاتسعت حدود الامبراطورية الفارسية فجـأة الى وادى النيل . وكانت بعض الفرق المسيحية ـ كالنسطورية واليعقوبية ـ حاقدة على النظام الجديد فى روما ـ فناصرت الفاتحين الجدد ، وتبعهـا اليهود ، مما سهل غلبة الفرس .

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية الى الحاكم الرومى فى المستعمرات الافريقية يناشدونه انقاذ الامبراطورية ، فأرسل الحاكم جيشا كبيرا بقيادة ابنه الشـاب « هرقل » ، فسار بجيشـه فى الطريق البحـرية ، بسرية تامة .. حتى ان « فوكاس » لم يـدر بمجيئهم الا عندما شاهد الأساطيل ، وهى تقترب من السـواحل الرومانية ، واستطاع هرقل ـ دون مقاومة تذكر ـ أن يسـتولى على الامبراطورية ، **وقتل** « فوكاس » الخائن .

بيد أن هرقل لم يتمكن ـ برغم استيلائه على الامبراطورية ، وقتله « فوكاس » ـ من ايقاف طوفان الفرس .. فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد فى شرقى العاصمة وجنوبيها . لم يعد العلم الصليبى يرفرف على العراق والشـام وفلسطين ومصر وآسـيا الصغرى ، بل علتها راية الفرس : « درفش كاويانى » !! وتقلصت الامبراطورية الرومانية فىعاصمتها ، وسدت جميع الطرق فى حصار اقتصادى قاس ، وعم القحط ، وفشت الأمراض الوبائية ، ولم يبق من الامبراطورية غير جذور شجرها العملاق . وكان الشعب فى العاصمة خائفا يترقب ضرب الفرس للعاصمة ، ودخولهم فيها ، وترتب على ذلك أن اغلقت جميع الأسـواق ، وكسـدت التجارة وتحولت معاهد العلم والثقافة الىمقابر موحشة مهجورة .

وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية .. فبدأوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة ، ودمروا الكنائس ، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ ( مائة الف ) من المسيحيين المسالمين واقاموا بيوت عبادة النار فى كل مكان ، وارغموا

الناس على عبادة الشمس والنار ، واغتصـــبوا الصليب المقدس وأرسلوه الى « المدائن » .

ويقول المؤرخ « جبن » فى المجلد الخامس من كتابه :

« ولو كانت نوايـــا « كسرى » طيبة فى حقيقـــة الأمر ، لكان اصطلح مع الروم ، بعد قتلهم « فوكاس » ، ولاستقبل « هرقل » كخير صديق أخذ بثأر حليفه وصاحب نعمته « موريس » ، بأحسن طريقة ولكنه أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب(١)

ويمكن قياس الهوة الكبرى التى حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه « كسرى » الى « هرقل » ، من بيت المقدس ، قائلا :

« من لدن الاله كسرى ، الذى هو أكبر الآلهة ، وملك الأرض كلها ، الى عبده اللئيم الغافل : هرقل : انك تقول : انك تثق فى الهك ! فلماذا لا ينقذ الهك القدس من يدى ؟! » .

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة ، وقرر العودة الى قصره الواقع فى قرطاجنة » على الساحل الأفريقى .. فلم يعد يهمه أن يدافع عن الامبراطورية ، بل كان شغله الشاغل انقاذ نفسه . وأرسلت السفن الملكية الى البحر ، وخرج « هرقل » فى طريقه ليستقل احدى هذه السفن الى منفاه الاختيارى .

وفى هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أســاقفة الروم باسم الدين والمسيح ، ونجح فى اقناع « هرقل » بالبقاء ، وذهب «هرقل» مع الأسقف الى قربان « سانت صوفيا » يعاهد الله تعالى على انه لن يعيش أو يموت الا مع الشعب الذى اختاره الله له .

وباشارة من الجنرال الايرانى سين (Sain) أرسل « هرقل » سفيرا الى « كسرى » طالبا منه الصلح ، ولكن لم يكد القاصـــد

---

(١) كتاب جبن ، مجلد ٥ ص ٧٤ .

الرومى يصل الى القصر ، حتى صاح « كسرى » فى غضب شديد : لا أريد هذا القاصد ! وانما اريد هرقل مكبلا بالأغلال تحت عرشى ، ولن أصالح الرومى حتى يهجر الهه ، الصليبى ، ويعبد الشمس الهتنا » (١) .

وبعد مضى ستة أعوام على الحرب ، رضىالامبراطور الايرانى ان يصالح هرقل على شروط معينة هى أن يدفع ملك الروم « ألف تالنت (٢) من الذهب ، وألف تالنت من الفضـــة ، وألف ثوب (٣) من الحرير ، وألف جواد ، وألف فتاة عذراء » .

ويصف « جبن » هذه الشروط بأنها « مخزية » دون شك ، وكان من الممكن أن يقبلها « هرقل » ، لولا المدة القصيرة التى أتيحت له لدفعها من المملكة المنهوبة ، والمحدودة الأرجاء ، ولذلك آثر أن يستعمل هذه الثروة كمحاولة أخيرة ، ضد أعدائه .

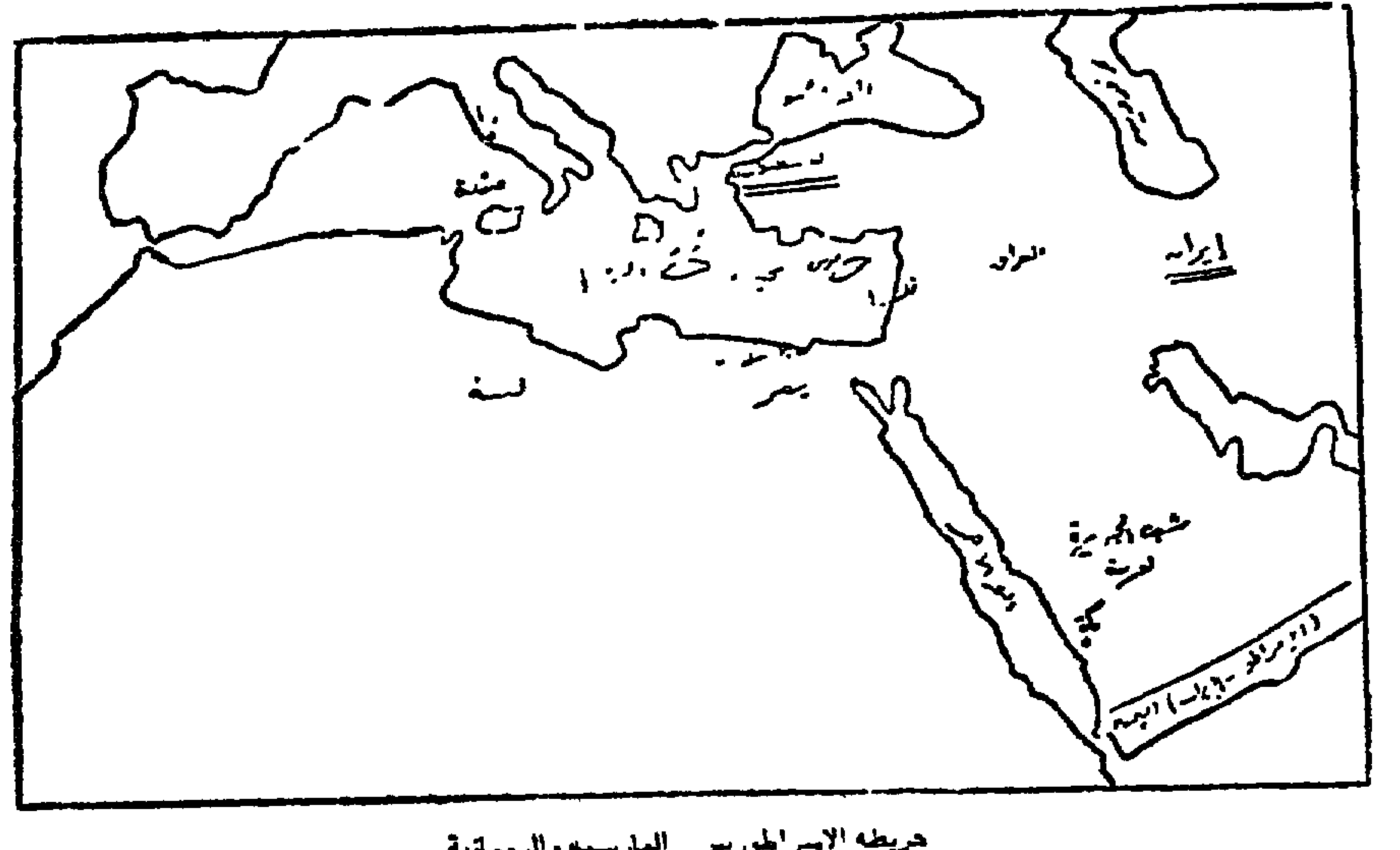
وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية والرومية هـــذه الأحداث ، فقد سيطرت على شعب العاصـــمة المركزية فى شـــبه الجزيرة العربية ــ وهى « مكة » المكرمة ــ مشكلة مماثلة : كان الفرس مجوسا من عباد الشمس والنار ، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح ، وبالوحى ، وبالرسالة ، وبالله تعالى . وكان المسلمون ــ مع الروم ــ نفسيا ــ يرجون غلبهم على الكفار والمشركين ، كما كان كفار مكة مع الفرس ، لكونهم من عبـــاد المظاهر المادية . وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزا خارجيا للصراع الذى كان يدور بين أهل الاسلام وأهل الشرك فى « مكة » . وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجى هى نفس مآل صراعهما الداخلى . فلما انتصر الفرس على الروم عام ٦١٦ م .

---

(١) ( ص ــ ٧٦ ــ ج ٥ ) .

(٢) Talent ميزان يونانى قديم حوالى ســتة وعشرين كيلو جراما ، لدى الاثينيين وقد يطلق على كمية النقود الذهبية او الفضية التى تزنه ــ المراجع

(٣) الثوب : ثلاثون مترا من القماش تقريبا ــ المراجع .




خريطة الامبراطوريتين الفارسية والرومانية

واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الــروم ، انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين ، قائلين : لقد غلب اخواننا على اخوانكم ، وكذلك سوف نقضى عليكم ، اذا لم تصطلحوا معنا تاركين دينكم الجديد !! وكان المسلمون بمكة فى أضعف وأســوأ احوالهم المادية ، وفى تلك الحالة البائسة ، صدرت كلمات من لسان الرسول صلى الله عليه وسلم :

**« بسم الله الرحمن الرحيم . الم . غلبت الروم فى ادنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون » ــ الروم : ١ ــ ٦ .**

وتعليقا على هذه النبوءة يكتب « جبن » :

« فى ذلك الوقت ، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة ، لم تكن اية نبوءة أبعــد منها وقوعا ، لأن الســنين الاثنتى عشرة الأولى من حكومة « هرقل » كانت تؤذن بانتهاء الامبراطورية الرومانية » (١)

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال ، ومن بيده قلوب الناس وأقدارهم ، ولم يكد جبريل يبشر النبى بهذه البشرى ، حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الامبراطورية الرومانية !! .

ويرويه « جبن » على النحو التالى :

« انها من أبــرز البطولات التاريخيــة ، تلك التى نــراها فى « هرقل » ، فقد ظهر هذا الامبراطور غاية فى الكسل والتمتــع بالملذات وعبادة الأوهام فى السنين الأولى والأخيرة من حكومته ،

---

(١) ص ٧٤ المجلد ٥ .

كان يبدو كما لو كان متفرجا أبله ، استسلم لمصائب شعبه ، ولكن الضباب الذى يسود السماء ساعتى الصباح والمساء ، يغيب حينا من الوقت لشدة شمس الظهيرة ، وهذا هو ما حدث بالنسبة الى هرقل ، فقد تحول « أرقاديوس (١) القصور » الى « قيصر ميدان الحرب » (٢) فجأة ، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنها ضد الفرس . وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة ، تبيانا لأسرار هذه اليقظة والنوم ، وبعد هذه القرون التى مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة ، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية ، فقد انقطع عن كافة الملذات ، حتى أنه هجر ابنة أخته « مارتينا » ــ التى تزوجها لشدة هيامه بها ، رغم أنها كانت محرمة عليه » (٣)

هرقل ــ ذلك الملك الغافل الفاقد العزيمة ــ وضع خطة عظيمة لقهر الفرس ، وبدأ فى تجهيز العدة والعتاد ، ولكن رغم ذلك كله ، عندما خرج هرقل مع جنوده ، بدا لكثيرين من سكان «القسطنطينية» أنهم يرون آخر جيش فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية .

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة ، ولذلك أعد بحريته للاغارة على الفرس من الخلف . وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود الى « أرمينيا » ، وشن على الفرس هجوما مفاجئا فى نفس الميدان الذى هزم فيه الاسكندر جيوش الفرس ، لما زحف على أراضى مصر والشام ، ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة المفاجئة ، فلاذوا بالفرار .

وكان الفرس يملكون جيشا كبيرا فى « آسيا الصغرى » ، ولكن « هرقل » فاجأهم بأساطيله مرة أخرى ، وانزل بهم هزيمة فادحة

---

(١) ارقاديوس ( ٣٧٧ــ ٤٠٨ م ) ، أحد أباطرة الرومان ، وهو الابن الاكبر لتيودوس الاول ، تولى العرش سنة ٣٩٥ م . واشتهر بالجبن ــ المراجع .

(٢) قيصر أو « سيزار » ( ١٤٤ ــ ١٠١ ق.م.) قائد وسياسى رومى عظيم .

(٣) ص ــ ٧٦ ــ ٧٧ ، المجلد الخامس .

وبعد احراز هذا النصر الكبير عاد « هرقل » الى عاصمته « القسطنطينية » عن طريق البحر ، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars) واستطاع بنصرتهم أن يسد سيل الفرس عند عاصمتهم .

وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما شن هرقل ثلاثة حروب أخرى ضد الفرس فى سنوات ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ م . واستطاع أن ينفذ الى أراضي العراق القديم ( ميسو بوتانيا ) عن طريق البحر الاسود واضطر الفرس الى الانسحاب من جميع الأراضى الرومية ، نتيجة هذه الحروب ، وأصبح « هرقل » فى مركز يسمح له بالتوغل فى قلب الامبراطورية الفارسية ، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية ـ تلك الحرب التى خاضها الفريقان فى « نينوا » على ضفاف « دجلة » فى ديسمبر عام ٦٢٧ م .

ولما لم يستطع « كسرى ابرويز » مقاومة سيل الروم ، حاول الفرار من قصره الحبيب « دستكرد » ، ولكن ثورة داخلية نشبت فى الامبراطورية ، واعتقله ابنه « شيرويه » ، وزج به فى سجن داخل القصر الملكى ، حيث لقى حتفه ، لسوء الاحوال فى اليوم الخامس من اعتقاله ، وقد قتل ابنه « شيرويه ثمانى عشرة من أبناء أبيه ( كسرى ) أمام عينيه .

ولكن « شيرويه » هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش اكثر من ثمانية أشهر ، حيث قتله أحد أشقائه ، وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكى ، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم فى غضون اربعة أعوام . ولم يكن من الممكن ، او المعقول فى هذه الأحوال السيئة ، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم .. فأرسل « قباد الثانى » ابن كسرى ابرويز الثانى يرجو الصلح ، وأعلن تنازله عن الأراضى الرومية ، كما أعاد الصليب المقدس ، ورجع « هرقل » الى عاصمته « القسطنطينية » فى مارس عام ٦٢٨ م ، فى احتفال رائع ، حيث

كان يجر مركبته اربعة افيال ، واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير، خارج العاصمة ، وفى ايديهم المشاعل واغصان الزيتون (١) !!

وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم فى مدته المقررة ، اى فى اقل من عشر سنين ، كما هو المراد فى لغة العرب من كلمة : « بضع » !

وقد ابدى « جبن » حيرته واعجابه بهذه النبوءة ، ولكنه كى يقلل من اهميتها ربطها برسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى « كسرى » .

يقول جبن :

« وعندما أتم الامبراطور الفارسى نصره على الروم وصلته رسالة من مواطن خامل الذكر ، من « مكة » دعاه الى الايمان بمحمد ، رسول الله ، ولكنه رفض هذه الدعوة ومزق الرسالة . عندما بلغ هذا الخبر رسول العرب ، قال : سوف يمزق الله دولته تمزيقاً ، وسوف يقضى على قوته .

« ومحمد ، الذى جلس فى الشرق على حاشية الامبراطوريتين العظيمتين ، طار فرحا ، مما سمع عن تصارع الامبراطوريتين وقتالهما ، وجرؤ فى ابان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة أن يتنبأ بأن الغلبة تكون لراية الروم بعد بضع سنين . وفى ذلك الوقت ، حين ساق الرجل هذه النبوءة ، لم تكن اية نبوءة أبعد منها وقوعا ، لأن الاعوام الاثنى عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تشى بنهاية الامبراطورية الرومانية » (٢) .

بيد أن جميع مؤرخى الاسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التى وجهها النبى الى « كسرى

---

(١) جبن : ص ـ ٩٤ ، ج ـ ٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

أبرويز » ، لأن تلك الرسالة انما أرسلت فى العام السابع من الهجرة بعد صلح الحديبية ، أى عام ٦٢٨ م ، فى حين ان آية النبوءة المذكورة نزلت بمكة عام ٦١٦ م ، اى قبل الهجرة بوقت طويل ، فبين الحدثين فاصل يبلغ اثنى عشر عاما (١) .

## ثالثا : القرآن والكشوف الحديثة :

والميزة الثالثة التى سوف أدرسها فى هذا الباب للابانة عن صدق القرآن وحقيته ، هى أنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة ، لم يتمكن أحد من اثبات أية اخطاء علمية فيه ، ولو أنه كان كلاما بشريا لكان هذا ضربا من المستحيل .

كانت بعثة لطلبة الصين تدرس بجامعة كاليفورنيا منذ بضع سنين ، وقد ذهب اثنا عشر من هؤلاء الطلبة الى كاهن « كنيسة بركلى » طالبين منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين المسيحى فى أيام الأحد ، وقالوا له بكل صراحة : اننا غير راغبين فى اعتناق المسيحية ولكننا نريد أن نعرف مدى تأثير هذا الدين على الحضارة الأمريكية واختار القسيس عالما فى الرياضة والفلك ، هو البروفيسور « بيتر و. ستونر » ، للتدريس لهؤلاء الشبان . وبعد أربعة أشهر من هذا الواقع اعتنقوا الدين المسيحى !!

أما الدوافع وراء هذا العمل المدهش ، فلنسمعها من الاستاذ نفسه :

« لقد كان السؤال الأول امامى : ماذا اقول لهم عن الدين ؟ انهم لا يؤمنون بالانجيل اطلاقا ، وتدريس الانجيل على الطريقة التقليدية لن ياتى بفائدة ما ، وفى ذلك الوقت تذكرت انى أثناء دراستى كنت الاحظ علاقة كبيرة بين العلوم الحديثة وسفر التكوين

(١) انظر : Encyclopaedia of Religion and Ethics جـ ١٠ \ ٥٤٠ ـ ٥٤٥

فى الأنجيل ، ولذلك رايت أن أعرض هذا الكلام أمام هذه الجماعة من الشباب .

« وكنا ــ أنا والطلبة ــ نعرف بطبيعة الحال أن ما جاء فى هذا الكتاب عن بدء الكون قد كتب آلاف السنين من كشوف العلوم الحديثة عن الأرض والسماء ، وكنا نشعر كذلك أن أفكار الناس فى زمن موسى ستبدو لغوا باطلا ، لو درسناها فى ضوء معلومات العصر الحاضر .

« وقد أمضينا فترة الشتاء كلها ندرس فى سفر التكوين، وكان الطلبة يكتبون الأسئلة حول ما جاء فى هذا السفر ، ثم يبحثون عن اجوبتها بكل جهد فى مكتبة الجامعة . وعند انتهاء الشتاء أخبرنى القسيس أن الطلبة حضروا اليه ليخبروه انهم يريدون اعتناق المسيحية ، وقد اقروا انه ثبت لهم أن الانجيل كتاب موحى من عند الله » (١) .

وعلى سبيل المثال يقول سفر التكوين عن حالة الأرض فى بداية الأمر :

« لقد غشى على الأغوار ظلام » (٢) .

وهذا هو أحسن تصوير للحالة التى وجدت فى الأرض فى ذلك الوقت ، كما عرفناها من العلوم الحديثة ، فكان سطح الأرض حارا جدا ، وتبخرت المياه بسبب هذه الحرارة ، ولم يصل النور الى سطح الأرض ، لأن مياه بحارنا كانت معلقة فى صورة سحب كثيفة، فى الفضاء ، وكان ظلام حالك يسود الأرض .

اننا نؤمن بأن الانجيل والتوراة من الكتب الالهية ، مثل القرآن الكريم، ولذلك توجد فيهما قبسات من العلم الالهى، ولكن النصوص

---

(١) The Evidence of God pp. 137 - 38.

(٢) تقول الترجمة العربية للتوراة ( المنقولة عن اليونانية ) : « وكانت الارض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة » . الاصحاح : ١ ــ (المراجع) .

الأصلية قد ضاعت ، وطرأ فارق كبير بين الانجيل الحقيقى وانجيل هذا العصر ، بعد مضى الفى عام حافلة بعمليات الترجمة من لغة الى اخرى ، ثم بأعمال التحريف البشرى Human Interpolation الذى أصاب النسخة الالهية أكثر ما أصاب ؛ على حد تعبير العالم الأمريكى « كريسى موريسون » (١) .

ولما كانت هذه الصحائف قد فقدت قيمتها ، نتيجة لما حدث ، فقد أرسل الله تعالى (( **طبعة جديدة** )) من كتابه الى البشر ، وهذا الكتاب هو « القرآن الكريم » وهو يحمل ، من أجل صحته وكماله ، كل الميزات والخصائص التى لا توجد منها سوى لمحات فى الكتب القديمة .

وسوف أستعرض هنا هذه الخاصة دليلا ثالثا من أدلتى على صدق القرآن الكريم ، ولقد أنزل القرآن قبل عصر النهضة ، ولكن أحدا من الناس لم يستطع ابطال شىء مما جاء به ، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر ، لعد ذلك ضربا من ضروب الاحالة .

نزل القرآن فى عصر لم يكن الانسان يعرف عن الطبيعة الا القليل النادر ، وكانوا يرون أن الامطار تنزل من السماء وأن الأرض مستوية ، كالفراش وأن السماء سقف الأرض ، وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة فى قبة السماء ، أو انها قناديل معلقة فى الفضاء ! وكان أهل الهند الاقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرنى « البقرة الأم » ، وهى حين تقوم بنقل أرض من قرن الى آخر يحدث زلزال على البسيطة (٢) . وكان

(١) Man does not stand None, p. 120 ومن الثابت أن الاناجيل لم تكتب فى حياة المسيح ، ولا حتى بعد وفاته بنصف قرن كما أن التوراة آخر ما كتب من عصر السبى البابلى ( ٥٨٦ ــ ٥٣٨ ق٠م٠ ) ( **المراجع** ) .

(٢) شاعت هذه العقيدة الخرافية كذلك فى أوساط العوام وأشباه المتعلمين فى شرقنا العربى ، وان كان تيار المعرفة العامة الآن يقضى على مثل هذه الخرافات ــ ( **المراجع** ) .

العلماء يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك ، وأن الأرض تدور حولها الى أن جاء « كوبر نيك » ( ١٤٧٣\١٥٤٣ م ) ، وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس .

وهكذا تقدم العلم رويدا رويدا ، الى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الانسان ، فكشف عن أسرار كثيرة ، والآن لا نجد جزءا ما من معلوماتنا عن أجزاء الجسم ، وشعب العلم المختلفة ، الا وقد تغيرت نظرتنا اليه كلية ، وثبت بطلان عقائد العصر القديم .

ويدل هذا بكل صراحة على انه لا وجود لكلام انسانى تدوم صحته كليا .. لأن الانسان يتكلم عماهو معروف من المعتقدات والعلوم فى عصره ، أنه سوف يسرد ماوجده فى زمنه ، سواء وقع كلامه فى دائرة الشعور أو اللاشعور . ولذلك لا نجد كتابا مضى عليه حين من الدهر الا وهو مملوء بالاغلاط والأخطاء من جميع نواحيه ، نظرا الى الكشوف الجديدة فى كل الميادين .

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية ! فهو حق وصادق فى كل ما قاله ، كما كان فى القرون الغابرة ولم يطرأ على مقاله أى تغير رغم مضى قرون وعصور طويلة ، وهذا فى نفسه دليل على أن منبعه عقل جبار يحيط بالأزل وبالأبد علما ، وهو يعلم جميع الحقائق فى صورها النهائية والحقيقية ، ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال . ولو كان هذا الكلام صادرا عن بشر محدودى النظر والعلم لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة ، كما يحدث لكل كلام انسانى فى مستقبله .

ان المحور الحقيقى لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية ، فهو بذلك لا يدخل فى دائرة أى من علومنا وفنوننا الحديثة . ولكن حيث أنه يخاطب « الانسان » فى حقيقة الأمر ، فهو يمس كل ما هو متعلق بالانسان ، وهى مسألة دقيقة ، وموقف جد خطير .. لأن المرء حين يكون جاهلا ، أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما ، ثم يتجرأ ليتكلم

من تلك المشكلة ـ ولو اجمالا ـ فلابد أن يكبو فى حديثه ، وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا علاقة لها بالواقع والحقائق !

وعلى سبيل المثال : قال ارسطو استدلالا على أسبقية الرجل على المرأة : ان فم المرأة يحوى اسنانا اقل عددا من أسنان الرجل !! ومن المعروف أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم الاجسام ، بل هو يدل على أن صاحبه جاهل بهذا العلم ، فان عدد الاسنان سواء لدى الرجل والمرأة . ولكن من المدهش حقا أن القرآن ـ حتى فيما يمس اكثر العلوم الحديثة من ناحية أو اخرى ـ لا يحتوى كلمة ما أثبت العلم فيما بعد ، أنها من صنع رجل جاهل بذلك الموضوع ، وهـذا يوضح صراحة أنه كلام موجود فوق الطبيعة ، وهو على معرفة تامة بكل شيء على حين لم يكن احد يعلم شيئا ، وهو يعلم أيضـا كل ما يجهله البشر فى هذا العصر ، مع تقدم العلوم ..

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التى تدل صراحة على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التى لم تعرف الا فى عصرنا هذا ، وأن كانت احاطته هذه ضمن اشارات غير مقصودة لذاتها .

ويجب أن اقول ، تمهيدا لهـذا البحث : ان مطابقـة كلمات « القرآن » والفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث ، فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الاشارات القرآنية فى ذلك الموضوع ، ولو ان دراسة المستقبل فى موضوع ما تبطل واقعـة من وقائع العلم الحديث كليا أو جزئيا فليس هذا بضائر مطلقا صدق القرآن ، بل معناه ان المفسر اخطأ فى محاولته لتفسير اشارة مجملة فى القرآن ، واننى لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر ايضاحا لاشارات القرآن ، وأكثر بيانا لمعانيه الكامنة .

## تقسيم لآيات القرآن :

ونستطيع ان نقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب الى نوعين :

الأول : ما عرف عنه الانسان ــ حتى ذلك العصر ــ أمورا جانبية وسطحية .

والثانى : ما لم يعرف عنه ذلك الانسان شيئا ، مطلقا .

ان هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية ، وكانت معرفتهم هذه ناقصة جدا بالنسبة الى المعرفة التى أتيحت للانسان اليوم ، بفضل الاختراعات الحديثة . وقد واجه القرآن فى هذا الصدد مشكلة كبرى . فهو لم يكن كتابا فى العلوم والهندسة ، ولذلك لو انه كان بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء فى القرآن ، ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف الحقيقى من نزول القرآن ، وهو اصلاح العقل الانسانى وتزكيته . فمن اعجاز القرآن انه تكلم فى لغة العلم ، قبل كشفه كما انه استعمل كلمات وتعبيرات لم يستوحشها أذواق الأقدمين ، ولا معارفهم ، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث !

**النوع الأول :**

( أ ) ذكر القرآن الكريم قانونا خاصا بالماء فى سورتين : هما الفرقان والرحمن . وجاء فى السورة الاولى :

**« وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات ، وهذا ملح اجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (١) .**

واما الآية التى وردت فى السورة الأخرى فهى تقول :

**« مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » (٢) .**

ان الظاهرة الطبيعية التى يذكرها القرآن فى هذه الآيات معروفة عند الانسان منذ أقدم العصور ، وهى انه اذا ما التقى نهران فى

(١) الفرقان : ٥٣ .

(٢) الرحمن : ٢٠ ــ ٢١ .

ممر مائى واحد فماء احدهما لا يدخل ( اى لا يذوب ) فى الآخر .
وهناك ، على سبيل المثال ، نهران يسيران فى « تشاتفام » بباكستان الشرقية الى مدينة « أركان » ، فى « بورما » ، ويمكن مشاهدة النهرين ، مستقلا احدهما عن الآخر ، ويبدو ان خيطا يمر بينهما ، حدا فاصلا ، والماء عذب فى جانب ، وملح فى جانب آخر . وهذا هو شأن الانهار القريبة من السواحل ، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث « المد البحرى » ، ولكنهما لا يختلطان ، ويبقى الماء عذبا تحت الماء الأجاج . وهكذا شاهدت عند ملتقى نهرى الكنج والجامونا ، فى مدينة « الله اباد » ، فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما ، ويبدو أن خيطا فاصلا يميز أحدهما من الآخر (١) .

ان هذه الظاهرة ، كما قلت ، كانت معروفة لدى الانسان القديم . . ولكنا لم نكتشف قانونها الا منذ بضع عشرات من السنين فقد أكدت المشاهدات والتجارب ان هناك قانونا ضابطا للاشياء السائلة ، يسمى « قانون المط السطحى Surface Tension وهو يفصل بين السائلين ، لان « تجاذب » الجزئيات يختلف من سائل لآخر ، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله فى مجاله ، وقد استفاد العلم الحديث كثيرا من هذا القانون ، الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه : « بينهما برزخ لا يبغيان » . وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء ، كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة ، ونستطيع ، بكل ثقة ، أن نقول : أن المراد من « البرزخ » انما هو « المط او التمدد السطحى » ، الذى يوجد فى الماءين ، والذى يفصل أحدهما عن الآخر .

ويمكن فهم هذا المط السطحى بمثال بسيط ، وهو : انك لو ملأت كوبا بالماء ، فانه لن يفيض الا اذا ارتفع عن سطح الكوب قدرا

---

(١) وهو ما كان يشاهد عند التقاء النيل بالبحر الابيض قبل بناء السد العالى ــ ( المراجع )

معينا .. والسبب فى ذلك أن « جزئيات » السوائل عندما لا تجد شيئا تتصل به فوق سطح الكوب ، تتحـــول الى ما هو تحتها ، وعندئذ توجد « غشاوة مرنة » Elastic Film على سطح الماء ، وهذه الغشاوة هى التى تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافـة معينة ، وهى غشاوة قوية لدرجـــة انك لو وضعت عليها ابرة من حديد فانها لن تغوص! وهذه الظاهرة هى مايسمى بالمط السطحى، الذى يحول دون اختلاط الماء والزيت ، والذى يفصل بين المـــاء العذب والملح .

(ب) وجاءت فى القرآن بيانات مماثلة ، وعلى سبيل المثال :

**« الله الذى رفع السموات ، بغير عمد ترونها » (١) .**

وهذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم، فانه كان يشاهد عالما كبيرا قائما بذاته فى الفضاء، مكونا من الشمس والقمر والنجوم ولكنه لم ير لها أية ساريات أو أعمدة ، والرجل الجديد يجد فى هذه الآية تفسيرا لمشاهدته، التى تثبت انالاجرام السماوية قائمة دون عمد فى الفضاء اللانهائى ، بيد ان هنالك «عمدا غير مرئية». تتمثل فى قانون « الجاذبية » Gravitation Pull ، وهى التى تساعد كل هذه الاجرام على البقاء فى أمكنتها المحددة .

(جـ) وقد قال القرآن عن **الشمس والنجوم :**

**« وكل فى فلك يسبحون » (٢) .**

وكان الانسان فى العصر الغابر يشاهد ان النجوم تتحرك وتبتعد عن امكنتها بعد وقت معين . ولذلك لم يكن هـــذا التعبير القرآنى موضع دهشتهم واستغرابهم ، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت

---

(١) الرعد : ٢ .

(٢) يس : ٤٠ .

على هذه التعبيرات ثوبا جديدا ، فليس هنالك تعبير أروع ولا أدق من « السباحة » لدوران الاجرام الســماوية فى الفضاء البسيط اللطيف !

( د ) وقال القرآن الكريم عن **الليل والنهار :**

**« يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا » (١)**

ان هذه الآية الكريمة تشرح للانسان القديم سر مجىء الليل بعد النهار . . ولكنها تحوى اشارة رائعة الى دوران الارض محوريا وهو الدوران الذى يعتبر سبب مجىء الليل والنهار، طبقا لمعلوماتنا الحديثة . .

وسوف أذكر القراء ــ هنا ــ بأن من بين المشاهدات التى أدلى بها رجل الفضاء الروسى «جاجارين» ، بعد دورانه فى الفضاء حول الأرض : انه شاهد « تعاقبا سريعا » Rapid Succession للظــلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحورى حول الشمس.
وهناك بيانات كثيرة جدا من هذا القبيل فى القرآن الكريم .

## النوع الثانى من الآيات :

واما النوع الثانى من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع ، فلم يعرف عنها الرجل القديم شيئا ما على الاطلاق ، وقد تناول القرآن تلك الموضوعات، كاشفا الغطاء عن أسرار بالغة الاهمية، ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة ، وسوف أعرض فى الصفحات التالية بعض الأمثلة من مختلف فروع العلوم الحديثة .

## اولا : علم الفلك :

يطرح القرآن الكريم فكرة معينة ومحدودة المعالم حول بداية الكون المادى ونهايته ، وكانت هذه الفكرة غير معروفة لدى الانسان

---

(١) الاعراف : ٥٤ .

الجديد قبل قرن من الزمان .. أما الانسان القديم فلا مجال للقول بانه كان من الممكن أن يتطرق عقله الصغير الى هذه الفكرة أو اجزائها ، وجاء العلم الجديد ليشهد على ما جاء فى القرآن الكريم .

يعبر القرآن عن **بداية الكون** على النحو التالى :

**« او لم ير الذين كفروا ان السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » (١) .**

اما عن **نهاية الكون** ، فهو يقول :

**« يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » (٢) .**

فالكون ، بناء على تفسير هذه الآيات كان منضما ومتماسكا ( الرتق : منضم الأجزاء ) ، ثم بدأ يتمدد فى الفضاء ، ويمكن رغم هذا التمدد تجميعه مرة أخرى فى حيز صغير .

وهذه هى الفكرة العلمية الجديدة عن الكون ، فقد توصل العلماء ، خلال ابحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون ، الى أن «المادة» كانت جامدة وساكنة فى أول الأمر ، وكانت فى صورة غاز ساخن ، كثيف ، متماسك . وقد حدث انفجار شديد فى هذه المادة قبل ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠٠ر٥ سنة على الأقل ، فبدأت المادة تتمدد وتتباعد اطرافها . ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمرا حتميا ، لابد من استمراره ، طبقا لقوانين الطبيعة ، التى تقول : أن قوة «الجاذبية» فى هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجيا بسبب تباعدها ( ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة ) .

ويعتقد العلماء أن دائرة المادة كانت ٠٠٠ر١ مليون سنة ضوئية فى أول الأمر . وقد أصبحت هذه الدائرة الآن ، كما يقول البروفيسور

---

(١) الانبياء : ٣٠ .

(٢) السابقة : ١٠٤ .

« ايدنجتون » : عشرة أمثال بالنسبة الى الدائرة الحقيقية . وهذه العملية من التوسع والامتداد مستمرة دون ما توقف . وكما يقول البروفيسور « ايدنجتون » :

« ان امثال النجوم والمجرات : كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط ، وهو ينتفخ باستمرار ، وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن اخواتهـا بحركاتها الذاتيـة ، فى عملية التوسـع الكونى » (١) .

وأما الأمر الآخر ، فقد ثبت لنا صدقه كمـا ورد فى القرآن . فكان الانسان القديم يرى ان النجوم يبتعد بعضها عن بعض رأى العين، ولكننا نراها متقاربة لبعدها الهائل عن الارض وهى فىحقيقة الأمر متباعدة بمسافات قياسية .

ولم يقف الأمر بنا عند هذا الحـد ، بل عرفنا أيضا أن تلك الأجسام والأجرام التى كنا نشاهدها فى قديم الزمن، وكنا نحسبها كاملة وسالمة ، اكثرها يحتوى على فضاء خال . وقد عرفنا ان كل جسم مادى يدور حول نظام له ، مثل النظام الشمسى الذى يدور حوله نجوم وسيارات كثيرة . ومن امثلته نظام « الذرة » . فنحن نشاهد الفضاء الخالى فى « النظـام الشمسى » ، ولكننا نعجز عن مشاهدة فضاء « النظام النووى » لصغر حجمه المتناهي .. حتى انه يستحيل مجرد مشاهدة هذا النظام (٢) . ومعنى ذلك أن كل شىء حتى لو بدا متماسكا ـ يحـوى حيزا من الفضاء فى داخله . ومثاله : اننا لو جردنا الفضاء أو المكان (Space) من الذرات المادية فى الجسم الانسانى ، ذات الستة الأمتار ، فلن نجد الا كمية قليلة جدا من المادة ، تكاد تكون متناهية الوجود .

---

(١) The Limitations of Science, p. 20.

(٢) أنظر التفصيلات عن « الذرة » فى الباب الرابع من هذا الكتاب .

وهكذا يرى علماء الطبيعة الفلكية (Astro-Physicists) اننا لو طوينا كل شيء في الكون بدون ان نترك للفضاء مكانا، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفا من حجم الشمس !! ويمكن قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الانسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين من السنين الضوئية عن النظام الشمسي .

٣ ـ لقد توصل العلماء، خلال أبحاثهم ، الى انه لابدفي المستقبل القريب ـ وطبقا لقانون دوران الاجرام السماوية ـ أن يقترب القمر من الأرض ، حتى ينشق من شدة الجاذبية ، وتتناثر اجزاؤه في الفضاء (١) . وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناء على نفس القانون الذي يحكم المد والجزر في البحار . فالقمر هو أقرب جيراننا في الفضاء ، ولا يبعد عن الأرض غير ٢٤٠٫٠٠٠ ميلا ، وهذا القرب يؤثر على البحار مرتين يوميا ، حيث ترتفع فيها أحيانا أمواج يبلغ طولها ستين مترا ، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصات .

أن المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماما لصالح أهل الأرض . ولو نقص هذا الفاصل الى خمسين الفا من الأميال ـ على سبيل المثال ـ فسوف يحدث طوفان شديد في البحار ، وسوف تغطي أمواجها أكثر مناطق الأرض الماهولة ، وسوف يغرق كل شيء ، حتى لتتحطم الجبال من شدة تموج البحار ، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من وطأة الجاذبية !!

ويرى علماء الفلك أيضا ان الأرض قد مرت بكل هذه الادوار أثناء عملية التكوين ، حتى وصلت الى بعدها الحالي من القمر ، بناء على قانون الفلك ، وهذا القانون هو نفسه سوف يأتي بالقمر قريبا من الأرض مرة أخرى . . ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل

(1) Man Does not Stand Alone, p. 24.

بليون سنة (١) . وعندئذ سوف ينشق القمر ، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض فى صورة حلقة .

اليست هذه النظرية من أعظم موافقات العــلم لتلك النبوءة الواردة فى القرآن الكريم ، حــول انشقاق القمر ، حين تقترب القيامة (٢) ؟

اقرأوا قوله تعالى :

« اقتربت الساعة وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » (٣) .

---

(١) هذا مجرد تعبير عن الامكان العلمى ، وحدوده الزمنية . وليس ببعيد أن تقع هذه الظاهرة فى وقت أقل مما حدده الفلكيون ، وكلامهم لا ينفى هذا .

(٢) رويت معجزة « انشقاق القمر » فى الصحيحين وكتب الحديث الاخرى ، بروايات صحيحة الاسناد ، ومنها ما رواه عبد الله بن مسعود (رضى الله تعالى عنه)، وهو من الشهود العيــان لذلك الحادث الخارق ، وبرغم ذلك لا تزال مســألة « انشقاق القمر » موضع خلاف شديد بين المفسرين والعلماء .. فيرى الجمهور أنه قد حدث فعلا ، « .. وقال بعض المفسرين : سينشق » كما يرى صــاحب التفسير « الكبير » ، ومن القائلين به الامام الحسن البصرى ، وقد نقل عنه أبو حيــان الاندلسى القول التالى : « ان المعنى اذا جاءت الســاعة وانشق القمر بعد النفخة الثانية » . البحر المحيط ، ج ـ ٨ ص ـ ١٧٣ وهناك فئة ثالثة من العلماء تؤثر « التوفيــق » بين الرأيين فهم يرون أن معجزة شــق القمر ، التى جاء ذكرها فى الاحاديث وقعت أمام جمع من المسلمين والمشركين « بمنى » فى مكة المكرمة . ويرى الامام الغزالى والشاه ولى الله الدهلوى أنهــا وقعت « بتصرف البصر » . ومن الممكن أن تكون قد حدثت فعلا نتيجة انشقاق فلكى . وهكذا ستكون الواقعة الاولى آية للاحداث التى سوف يجرى وقوعها قرب القيامة ، وفيها يقول المفسر الهندى الكبير العلامة شبير أحمد العثمانى فى تفسيره للقرآن :

« لقد كانت معجزة شق القمــر مثالا على أن كل شىء سينشق هكذا عنــد اقتراب القيامة » .

(٣) القمر : ١ و ٢ .

**ثانيا ــ علم طبقات الأرض :**

١ ــ جاء فى القرآن الكريم ، غير مرة ، ان الجبال ارسيت فى الأرض حفاظا على توازنها ، ومن ذلك قوله تعالى :

**« والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » (١) .**

ولقد ظل العلم جاهلا بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية ، ولكن دارسى الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيدا تحت‌اسم « قانون التوازن » Lsostasy ولا يزال العلم الحديث فى مراحله البدائية بالنسبة الى أسرار هذا القانون ، ويقول الأستاذ انجلن :

« من المفهوم الآن أن المادة ــ الأقل وزنا ــ ارتفعت على سطح الأرض، على حين اصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية، وهى التى نراهاالان فى شكل البحار. وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض ان يحافظا على توازن الأرض (٢) .

ويرى عالم آخر من باحثى الجغرافيا :

« وفى البحار ، ايضا ، توجد وديان مثل وديان البر ، ولكن وديان البحر أكثر غورا وابعد عمقا من تلك التى توجد فى البر ، كما أنها بعيدة عن المجال التجريبى للانسان . ويبدو انه قد حدثت مغارات عميقة فى البحار . ( ويبلغ عمق بعض هذه الوديان ٣٥الف قدم عن سطح البحر ، وهذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعا . ويبلغ من عمق هذه الوديان البحريةأحيانا انه لو وضعت فيها قمة « ايفرست » ، من سلسلة جبال « الهملايا » ، والتى يبلغ طولها ٢٩٠٠٢ ، فسيكون سطح البحر فوقها بمسافة ميل كامل ) .

---

(١) لقمان : ١٠ .

(٢) C.R. Von Angien, Geomovphology, pp. 26-27, (N.Y., 1948)

« ومن الظواهر المحيرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قـرب السواحل البرية بدل ان توجد فى أعالى البحار . ومن ذا يستطيع أن يعلم قدر ذلكم الضغط الهائل ، الذى أحدث هـــذه المغارات السحيقة فى قاع البحار . ولكن قرب هـــذه الوديان من الجزر والبراكين يدل على أن هنــاك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية . . وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق ( فى أجزائها المختلفة ) . ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر فى المستقبل وسببه أن الرواسب والمخلفات لكل من البر والبحر تترسب فى هذه الوديان ، وقد سويت مناطق كبيرة من هذه الوديان بعد أن ملأتهـا هذه الرواسب . ولهذا من الممكن ــ بناء على عــدم التوازن الذى يحدث عن هذه العملية ــ أن تبرز جبال جديدة فى أى وقت ، أو تظهر سلسلة جديدة من الجزر ، وممـا يؤكد ذلك انه قد وجدت آثار الرواسب البحرية فى بعض الجبال الساحلية .

وعلى كل حال ، لا توجد نظرية ــ فى ضـوء المعلومات الحالية للانسان ــ لتقوم بتفسير الوديان البحرية ، وهذه المغارات الدائمة البرودة ، والتى توجد فى ظلام حالك ، وتحت ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصـة ــ لازال ذلك كله لغزا أمام الانسان ، كألغاز البحر الاخرى (١) !! » .

٢ ــ وقد جاء فى القرآن الكريم انه قد مضى على الارض زمن طويل سواها الله خلاله ، قال تعالى :

**« والأرض بعد ذلك دحاها . اخرج منها ماءها ومرعاها » (٢) .**

وهذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشـــوف العلمية ، وهـــو : « نظـــرية تباعد القارات » أو انتشـــارها

---

(١) The World We Live In, N.Y., 1955.

(٢) النازعات : ٣٠ ــ ٣١ .

(Theory of Drifting Continents) ومغزى هذه النظرية : ان جميع القارات كانت فى وقت من الاوقات أجزاء متصلة، ثم انشقت وبدات « تنقذف » ، أو تنتشر من تلقاء نفسها ، وهكذا وجـــدت قارات تحول دونها بحار واسعة .

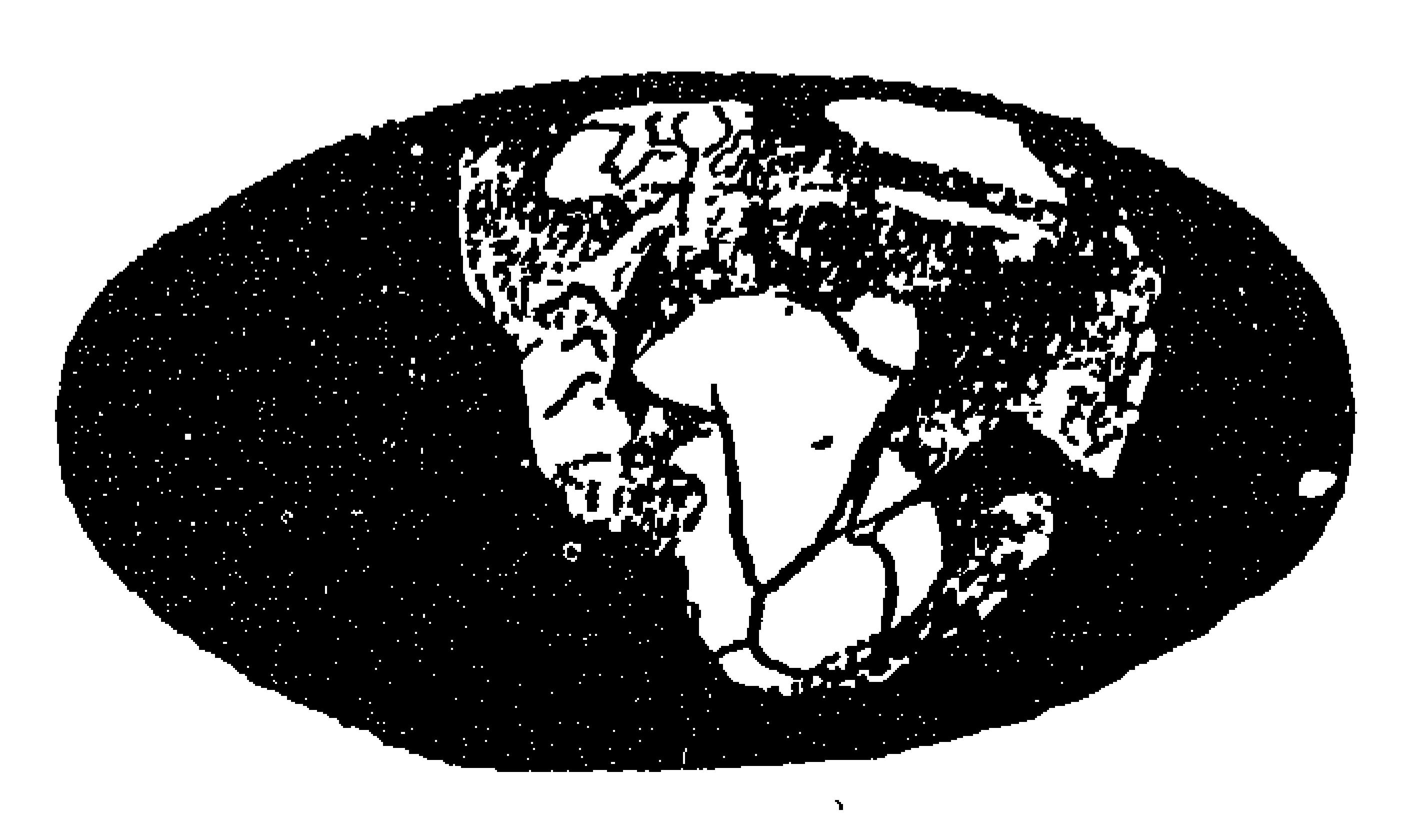
وقد طرحت هذه النظرية فى العالم عام ١٩١٥، لأول مرة، حين أعلن خبير طبقات الارض الالمانى الاســتاذ « الفريد واجنر » أنه لو قربت القارات جميعا ، فسوف تتماسك ببعضها ، كما يحدث فى ألعاب الألغاز التى تسمى Jigsaw Puzzle ويمكن مشاهدتها فى الاشكال الثلاثة ، التى تبين هذه النظرية « أنظر ص ١٣١ » .

وهناك شبه كبير يوجد على سواحل البحار المختلفة ، كأن نجد جبالا متماثلة عمرها الارضي ( واحد ) وكأن نجـــد فيها دوابا وأسماكا ونباتات متماثلة ايضا ! وهذا هو ما دفع عالم النبــاتات البروفيسور رونالدجود ( Rand Good ) فى كتابه : جغرافية نباتات الزهـــور ( Geography of Flowering plants ) الى أن يقول :

« لقد اتفق علماء النبــاتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة فى مختلف قارات العالم الا اذا سلمنا بأن أجزاء الأرض هذه كانت متصلا بعضها ببعض فى وقت من الاوقات » .

وقد أصبحت هذه النظرية علمية تماما بعد تصديق « الجاذبية الحجرية » لها ( Magnetism Fossil ، فان العلماء اليوم ـ بعـد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة ـ يستطيعون تحـــديد موقع أى بلد وجدت به هضبة تلك الحجارة فى الزمن القديم وقد اكدت هذه الدراسة فى « الجاذبية الأرضية » ان أجزاء الارض لم تكن موجودة فى القديم بالامكنة التى توجد بها اليوم ، وانما كانت فى ذلك المكان الذى تحـــدده « نظرية تباعد القارات » وفى هذا الامر يقـــول البروفيسور بلاكيت (١) :

(١) P.M.S. Blacket ، استاذ ( الطبيعة فى الكلية الملكية بلندن ) ـ المعرب .



الشـــكل الأول

يبين حالة الأرض فى بداية أمرها قبل ثلاثمائة مليون ســنة



الشــكل الثانى

يبين حالة الأرض أثناء عملية انتشار وتباعد قاراتها وقد بدات هذه العملية قبل خمسين مليون سنة



الشــكل الثالث

يبين الأرض بعد أن استقر أمرها قبـــل مليون سنة

« ان دراسة أحجار الهند تبين أنها كانت توجد فى جنوب خط الاستواء قبل سبعين مليون سنة ، وهكذا تثبت دراسة جبـــال جنوب أفريقيا أن القارة الافريقية انشقت عن القطب الجنوبى قبل ثلاثمائة مليون سنة » (١) .

لقد ورد فى الآية المذكورة آنفا لفظة « الدحو » ، ومعناه تسوية الشيء ونشره ، كما يقال « دحا المطر الحصى عن وجـه الارض » ، وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الانجليزية « Drift » التى استخدمت فى التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة .

لسنا نملك أمام هـذا التوافق المدهش بين ما ورد فى المـاضى البعيد ، وما اكتشف بالامس القريب ـ الا ان نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضى ، والحال ، والمستقبل ، على السواء .

**ثالثا ـ علم الأغذية :**

ان قائمة الأغذية التى يقررها لنا القرآن الكريم تحرم ( الدم)، وكان الانسان غافلا عن أهمية هذا التحريم ، ولكن التحليلات التى أجريت للدم قد أكدت ان هذا القانون كان مبنيا على أهمية خاصة بالنسبة الى الصحة فالتحليل يثبت أن ( الدم ) يحتوى كمية كبيرة من « حمض البوليك » Uric Acid ، وهو مادة سامة تضربالصحة لو استعملت غذاء . وهذا هو السر فى الطريقة الخاصة التى أمر بها القرآن فى ذبح الحيوانات . والمراد من «الذبح» فى المصطلحالاسلامى هو الذبح بطريقة معينـة حتى يخرج كل الدم من جسم الحيوان وهى أن نقطع الوريد الرئيسى . الذى يوجد فى العنق فقط . وان نمتنع عن قطع الاوردة الاخرى ، حتى يمـكن استمرار علاقة المخ بالقلب الى أن يموت الحيوان ، لكيلا يكون سبب الموت الصـدمة

---

(١) أنظر للتفصيل : ريدرز دايجست ، عدد يونية (حزيران) من عام ١٩٦١ .

العنيفة التي وجهت الى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية ، كالدماغ، او القلب ، او الكبد ، والمقصود من هـــذا هو أن الدماء تتجمد فى العروق ، وتسرى الى أجزاء الجسم ، لو مات الحيوان فى الحال ــ على أثر صدمة عنيفة ــ وهكذا يتسمم اللحم كله ، نتيجــة سريان « حمض البوليك » فى انحائه .

ولقد حرم القرآن لحم ( الخنزير ) ، ولم يعـرف الانسان فى الماضى شيئا عن اسرار هذا التحريم ، ولكنه يعرف اليـوم أن لحم الخنزير يسبب امراضا كثيرة ، لأنه يحتوى اكبر كمية من « حمض البوليك » بين سائر الحيوانات على ظهر الارض ، أما الحيـوانات الاخرى ، غير الخنزير ، فهى تفرز هذه المادة بصــفة مستمرة عن طريق البول . وجسم الانسان يفرز ٩٠ ٪ من هذه المادة بمساعدة ( الكليتين ) . ولكن الخنزير لايتمكن من اخراج « حمض البوليك » الا بنسبة اثنين فى المائة ( ٢ ٪ ) ، والكمية الباقية تصبح جزءا من لحمه ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل ، والذين يأكلون لحمه هم الآخرون ، يشكون من آلام المفاصل ، والروماتيزم (١)، وما الى ذلك من الأمراض المماثلة (٢) .

ان الباحث فى القرآن الكريم يجد أمثلة لاحصر لها من هـــذا القبيل الذى أشرنا الى بعضه فى الصفحات الماضية ، وهى دليل

(١) ليكن مفهوما هنا أنه عند وصف تأثير اى غذاء ، لا يمكن الا بيــان تأثيره الذاتى من المنافع والمضار ، وليس معناه أن تأثير ذلك الغذاء سوف يكون واحدا لدى كل انسان يأكله . والسبب فى ذلك أن الانسان لا يأكل شيئا بمفرده ، وانما يبتلعه مع مأكولات من انواع عديدة ، ولذلك قد ينقص تأثير ذلك الغذاء ، أو يزول فى بعض الاحايين ، نتيجة ردود الفعل والأغذية المضادة لتأثير ذلك الغذاء ، وعلى رغم ذلك كله فلا يمكننا وصف تأثير اى شىء الا بما عرف عنه بصفته الفردية .

(٢) لعل العلة الاخرى فى تحريم الخنزير أساسا أنه حيــوان قذر ، يأكل النجاسات ، فالى جانب التحريم القطعى النصى له ، يمكن أن نلحظ فيــه علة تحريم ( الجلالة ) التى تأكل النجاسة ، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكلها أو شرب البانها . أنظر : بداية المجتهد لابن رشد ــ ٢\٤٨١ ( المراجع )

قطعى على أن القرآن صادر عن عقل غير انسانى . وتؤكد البحوث التى اضطلع بها العلماء فى العصر الحاضر بطريقة مدهشة صدق تلكم النبوءة ، التى وردت فى القرآن الكريم .

**« سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » (١) .**

وسوف أختم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندى المغفور له الدكتور عناية الله المشرقى ، وهو يقول :

« كان ذلك يوم احد ، من أيام سنة ١٩٠٩ ، وكانت السماء تمطر بغزارة ، وخرجت من بيتى لقضاء حاجة ما ، فاذا بى أرى الفلكى المشهور السير جميس جينز ــ الأستاذ بجامعة كمبردج ــ ذاهبا الى الكنيسة ، والانجيل والشمسية تحت ابطه ، فدنوت منه ، وسلمت عليه ، فلم يرد على ، فسلمت عليه مرة اخرى ، فسألنى: « ماذا تريد منى ؟ » فقلت له : « أمرين ، يا سيدى ! الاول هو : أن شمسيتك تحت ابطك رغم شدة المطر ! فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور . فقلت له : « واما الأمر الآخر فهو . ما الذى يدفع رجلا ذائع الصيت فى العالم ــ مثلك ــ أن يتوجه الى الكنيسة ؟ » وأمام هذا السؤال توقف السير جميس لحظة ، ثم قال : « عليك اليوم أن تأخذ شاى المساء عندى » . وعندما وصلت الى داره فى المساء ، خرجت « ليدى جيمس » فى تمام الساعة الرابعة ، بالضبط ، واخبرتنى أن السير جيمس ينتظرنى. وعندما دخلت عليه فى غرفته ، وجدت امامه منضدة صغيرة موضوعة عليها ادوات الشاى . وكان البروفيسور منهمكا فى أفكاره . وعندما شعر بوجودى ، سألنى « ماذا كان سؤالك ؟ » ، ودون أن ينتظر ردى ، بدأ يلقى محاضرة عن تكوين الاجرام السماوية ، ونظامها المدهش ،

---

(١) فصلت \ ٥٣ .

وابعادها وفواصلها اللامتناهية ، وطرقها ، ومداراتها وجاذبيتها ، وطوفان انوارها المذهلة ، حتى انني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله . وأما ( السير جيمس ) فوجدت شـــعر راسه قائما ، والدموع تنهمر من عينيه ، ويداه ترتعدان من خشية الله ، وتوقف فجأة . ثم بدأ يقول « يا عناية الله ! عندما القى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الالهى وعندما اركع أمام الله وأقــول له : « انك لعظيم ! » أجد أن كل جـزء من كيــانى يؤيدنى فى هذا الدعاء ، واشعر بسكون وسعادة عظيمين . واحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين الف مرة ، أفهمت ، يا عناية الله خان لماذا أذهب الى الكنيسة ؟ » .

ويضيف العلامة عناية الله قائلا : لقداحدثت هـــذه المحاضرة طوفانا فى عقلى ، وقلت له : « يا سيدى لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التى رويتموها لى، وتذكرت بهذه المناسبةآية من آى كتابى المقدس ، فلو سمحتم لى ، لقراتها عليكم » فهز راسه قائلا : «بكل سرور » ، فقرأت عليه الآية التالية :

**« ومن الجبال جدد بيض وحمـــر ، مختلف الوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك . انمــا يخشى الله من عباده العلماء » (١) ..**

فصرخ السير جيمس قائلا :

ماذا قلت ؟ ـ انما يخشى الله من عباده العلماء ؟ ! مـدهش ! وغريب، وعجيب جدا!! ان الأمر الذى كشفت عنه دراسةومشاهدة استمرت خمسين سنة ، من انبأ محمدا به ؟ هلهذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكتب شــهادة منى أن القرآن كتاب موحىً من عند الله .

---

(١) فاطر ٥٣

ويستطرد السير جميس جينز قائلا :

لقد كان محمد أميا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن « الله » هو الذى أخبره بهذا السر .. مدهش .. ! وغريب، وعجيب جدا (١) » .

(١) مجلة « نقوش » الباكستانية ، العدد الخاص بالشخصيات العالمية ، شخصية ( المرحوم ـ العلامة عناية الله المشرقى ـ ص ١٢٠٨ ـ ٩ )

ـ والعلامة « المشرقى » هذا من أعظم علماء الهند فى الطبيعة والرياضيات ويتمتع بشهرة كبيرة فى الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة ، وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية ، غير أنه ترك الميدان العلمى ، فخاض غمار السياسة نظرا لسوء حالة المسلمين فى الهند (كان ذلك قبل الاستقلال) فأسس «حزب الخدام الالهيين » khaa ksar Party وكان رجاله (المتطرفون) يؤمنون بوجوب اقامة الفر الدينية بالقوة ، واتخذوا من « المعول » شعارا لحركتهم . ومن أهم مؤلفات العلامة « التكملة » ( لرسالة الاسلام ) ! ، وقد طلبت منه « لجنة جائزة نوبل » أن يترجم هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية لاعطائه جائزة العلم ، ولكن العلامة رفض الفكرة بشدة قائلا :
« لست فى حاجة الى جائزة لا تعترف لجنتها باللغة الاردية العظيمة ! »
العرب .

# الباب الثامن

## الدين ومشكلات الحضارة

### التشريع

السؤال الاساسي الذي يفرض نفسه عند البحث في المشـكلات الحضارية يكون دائما عن التشريع أو الدستور . فهذه المشكلات تنشأ عن علاقة الفرد بغيره ، والتشريع هو الذي يحدد هذه العلاقة على أساس من العدل والانصاف . ولكن من المذهل أن أقول : ان الانسان لم يفلح الى الآن في الكشف عن دستور حياته ! صحيح أن جميع الدول في العالم قائمة على أسس الدستور ، ولكن هـــذه الدساتير مخفقة تماما في الوصول الى أهدافها ، بل لا يوجد هنـاك ما يسوغ وجود هذه الدساتير سوى أنها تنفذ بالقوة والاجبار .

ومن الحقـائق المعروفة لرجال القانون أن جميـع الدساتير الرائجة في هذا العصر تفقد أية أسس علمية أو نظرية تجيز بقاءها. ويرى الاستاذ « فولر » L.L. Fuller أن « القانون لم يكشف عن نفسه بعد ! » .. وفولر هذا هـــو الذي وضع كتابا أسماه : « القانون يبحث عن نفسه » . « The Law in Quest of Itself »

وقد وضعت كتب لا حصر لها حول هـــذا الموضوع بالذات ، وبذلت عقول جبارة من علمائنا أوقاتها في سبيل البحث عن مقومات القانون . وكما يرى محرر « موسوعة تشامبرز » لقد أعطى القانون اهمية علم هام ، حتى رفع من شأنه الى أقصى الحدود » . ولكن كل هذه الجهود لم توفق في الحصول على صـــورة متفق عليها من القانون . وقد تشعبت بهم السبل ، حتى قال خبير في التشريع :

« لو طلبت من عشرة خبراء أن يعرفوا القانون ، فعليك ان تستعد لسماع أحد عشر جوابا !! » .

وقد انقسم خبراء التشريع الى مدارس فكرية كثيرة ، ولكننا ــ رغم تعدد هذه المدارس ــ قد لا نجد لبعض كبار علماء القانون فيها مكانا ! يقول البروفيسور « باتون » G.W. Paton عن « جون آستين » : « انه لا يصلح لاى من الأقسام العريضة Broad Divisions (١) » : للقانون

واما السبب وراء هذا الاختلاف بين خبراء التشريع، فهو عدم توصلهم الى أساس صحيح يمكن اقامة صرح التشريع عليه . انهم يجدون أن القيم التى يحاولون جمعها فى هيكل الدستور يستحيل وضعها فى ميزان واحد . ومثل رجل القانون في محاولته هذه كمثل الرجل الذى يزن مجموعة من الضفادع بمجموعة أخرى مماثلة فكلما وضع مجموعة فى كفة وجد أن ضفادع الكفة الثانية قد وثبت الى الماء مرة أخرى !!

ومن ثم باءت كل الجهود ــ التى استهدفت الحصول على الدستور المثالى ــ بالفشل الذريع .

ويعبر الأستاذ « و . فريدمان » عن هذه المشكلة قائلا :

« وانها لحقيقة : أن الحضارة الغربية لم تجد حلا لهذه المشكلة غير أن تنزلق من وقت لآخر ، من نهاية الى نهاية أخرى (٢) ! » .

وقد لاحظ « جون آستين » ان الدستور ــ اى دستور ــ لا يصبح نافذ المفعول الا اذا كانت تسنده قوة من ورائه ، فعرف

---

(١) A Text Book of Jurisprudence, 1905, p. 5.

(٢) W. Friedman, Legal Theory, p. 18.

« القانون في كتابه ، الذى نشر لأول مرة عام ١٨٦١ ، على النحو التالى :

« القانون هو الحكم الذى أصدره «رجل رفيع المنزلة سياسيا لمن هو ادنى منه فى المرتبة السياسية (١) » .

وقد أصبح التشريع بناء على هذا التعريف « مرسوما لصاحب السيادة (٢) » . ولذلك شن المحدثون من العلماء حملة شديدة على هذه الفكرة ، وقالوا : انه لا يمكن منع انحرافات الحكام الا اذا كان « رضا الشعب العام » دعامة اساسية فى التشريع .. وانكروا اى قانون أو دستور لايحرز رضا الجماهير ، وترتب على ذلك أن ضوابط كثيرة ، يجمع على صحتها وافادتها جميع أهل العلم ومعلمى الاخلاق ـ لا يمكن تنفيذها ، لان الشعب لا يوافق عليها . وعلى سبيل المثال لم يتمكن الامريكيون من ادخال مشروع قرار يحرم الخمر ، لأن الشعب لم يرض عنه . . كما اضطر البريطانيون الى ادخال تعديلات هامة فى قانون عقوبة القتل ، واضطروا الى اباحة انواع محرمة من العلاقات الجنسية ، على الرغم من ضجيج المثقفين ، واحتجاج علماء القانون !

وهناك مسألة أخرى اختلف حولها علماء القانون : هل القانون قابل للتغير أو لا ؟

لقد لقيت نظرية « القانون الطبيعى » رواجا كبيرا فى القرون الوسطى ، وفى العصور التى تلتها ، ومؤداها ان الطبيعة البشرية هى المصدر الحقيقى للتشريع :

« فالطبيعة تطالب أن يكون حق السيطرة والحكومة لمطالبها الطبيعية ودعائمها الرائدة . وقد اعطت الطبيعة هذه الدعائم

---

(١) A Text Book of Jurisprudence, p. 56.

(٢) المرجع السابق ـ ص ٤ .

للانسان فى صورة « العقل » ، ولذلك لا بد من اقامة حكومة بقوة العقل (١) » .

وقد أعطت هذه النظرية أساسا كونيا للشرعين ، فقيل : انه لا بد من دستور موحد صالح لكل العصور . وهذه هى نظرية علماء القرنين السابع والثامن عشر حول القانون . ثم جاءت مدرسة أخرى ادعت استحالة معرفة الأسس الكونية للدستور . ويقول ( كوهلر ) فى هذا :

« ليس هناك دستور ابدى ، وأى تشريع يصلح لعصر ماليس ـ بالضرورة ـ صالحا لعصر آخر ، وليس لنا الا ان نجهد انفسنا فى البحث عن دستوريلائم كل حضارة، على حدة . فقد يكون دستور ما خيرا لطائفة من الناس ، ثم يسبب هلاك طائفة أخرى (٢) » .

وقد قضت أفكار هذه المدرسة الاخيرة على تحكم القانون واستقراره، فهى تدعو الانسان الى فكرة التغيير العمياء، والنسبية Relativism وهى لن تنتهى الى حد ما ، حيث انها تفتقر الى الاساس . وقد قلبت هذه الفكرة جميع القيم الانسانية راسا على عقب .

وهناك مدرسة أخرى تدعو الى احراز اكبر قدر من مقومات العدل فى التشريع . ويكتب « اللورد رايت » Lord Wright معلقا على فكرة « دين راسكو باوند » :

« ان راسكو باوند يدعو الى فكرة ـ اطمأننت الى صدقها بعد جميع تجاربى ودراستى فى القانون ـ وهى أن الهدف الاساسى والابتدائى للتشريع هو « البحث عن العدل » (٣) .

---

(١) Boden Liener, Jurisprudence, p. 164.

(٢) Philosophy of Law, p. 5.

(٣) Interpretation of Modern Legal Philosophies, N.Y. 1947, p. 794.

فاذا سلمنا بهذه النظرية واجهنا سؤالا هاما هو : « ما العدل؟» « وكيف يمكن تعيينه ؟ » وهكذا مرة اخرى ، نرجع الى « جـون آستين » !

ومرة أخرى نقف امام ظاهرة أن الانسان لن يستطيع الكشف على أساس واقعى للتشريع ، رغم الجهـود الجبارة التى بذلت فى هذا الحقل منذ مئات السنين ، ويزداد يوما بعد يوم شعور بالمراره وخيبة الأمل بين رجال التشريع ، لأن الفلسفة الحديثة قد فشلت فى بحثها عن اهداف الدستور .

ويتساءل البروفيسور جورج هيتكروس باتون قائلا :

« ما ( المصالح ) التى لا بد للدستور المثالى ان يحافظ عليها ؟ انه سؤال يتعلق « بالقيم » ، ويدخل فى دائرة فلسـفة التشريع . وما أكثر ما نرجو من الفلسفة أن تساعدنا ، ولكن ما أقل ما هى مستعدة لبذله فى هذه السبيل . فقد فشلنا فى الكشف عن «ميزان للقيم » يمكن قبوله لدى جميع الأطراف .

والحقيقة انه ليس هناك من أساس لشىء من النظم الا للدين، ولكن الحقائق الدينية تصلح كعقيدة ووجدان ، ولا يمكن قبـولها على أساس الاستدلال المنطقى » (١) .

وقد نقل البروفيسور « باتون » رأيا لبعض علماء التشريع ــ يقول : ان جميع محاولات الدراسة الفلسفية للبحث عن «الاهداف» فى فلسـفة التشريع قد انتهت الى غيرما نتيجة (٢) . ويتسـائل

---

(١) A Text Book of Jurisprudence, p. 104.

(٢) المصدر السابق ــ ص ١٠٦ .

« باتون » : أهناك حقا « قيم مثالية » تحدد الأسس عند تطوير التشريعات ؟ لم يتمكن المشرعون من التوصل الى هذه القيم حتى الان ، غير انها لا بد منها » .

ويستطرد قائلا :

« لقد استخرج أصحاب نظرية ( القانون الطبيعى ) القديمة اسسهم من الحقائق الالهامية فى الدين . ولكن اذا ما أردنا نحن أن نأتى بتشريع علمانى ، فأين سنجد اساس القيم المتفق عليها ؟ »(١) .

وهذه التجربة المريرة تدعو الانسان للعودة الى الجهد التى انحرف عنها منذ قرون. فقد كان الدين يسهم اسهاما فعالا فى وضع دساتير الزمن القديم .. ويرى خبير القانون المعروف السير هنرى مين : انه « لا يوجد مثال واحد فى القوانين ، التى تم تسجيلها كتابة من قانون الصين الى بيرو ، الا وكان ذا علاقة بالطقوس الدينية والعبادات منذ بداية أمره (٢) .

لقد آن الأوان أن نعترف بالحقيقة القائلة : بأن البشر لايستطيعون وضع دستور لهم بدون هدى الله . وبدلا من المضى فى الجهود التى لا تأتى بنتائج مثمرة ، علينا أن نعترف بالواقع الذى يدعونا اليه « الدكتور فريدمان » ، حين يقول :

« يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة انه لا بد من هداية الدين لتقييم المعيار الحقيقى للعدل . والاساس الذى يحمله الدين لاعطاء العدل صورة عملية ينفرد هو به فى حقيته وبساطته » (٣) .

---

(١) المصدر السابق — ص ١٠٩ .

(٢) Sir Henry Maine, Early Law & Custom, p. 5.

(٣) Legal Theory, p. 450.

انّنا نجد فى الدين جميع الأسس اللازمة التى يبحث عنهـــا المشرعون لصياغة دستور مثالى ، ولكى يتضح صدق ما نقوله ، نأتى بالدراسة الوجيزة التالية فى أهم مشكلات التشريع الانسانى.

**اولا ــ مصدر التشريع :**

واول الأسئلة واهمها بالنسبة لأى تشريع هوالبحث عن مصدر هذا التشريع : من الذى يضعه ؟ ومن ذا يعتمده حتى يصبح نافذ المفعول ؟

لم يصل خبراء التشريع الى اجابة عن هذا السؤال حتى الان. ولو اننا خولنا هذا الامتياز للحاكم، لمجرد كونه حاكما، فليس هناك أساس نظرى وعلمى يجيز تمتعه ــ هو أو شركاؤه فى الحكم ــ بذلك الامتياز ، ثم ان هذا التخويل من ناحية أخرى لا يجدى نفعا ، فان اطلاق أيدى الحكام ليصدروا أى شىء لتنفيذه بوسيلة القوة ــ أمر لا تطيقه ولا تحتمله الجماهير .

ولو اننا خولنا سلطة التشريع لرجال المجتمع ، فهم أكثر جهالة وحمقا ، لأن المجتمع ــ أى مجتمع ــ اذا نظرنا اليه ككل ، لا يتمتع بالعلم والعقل والتجربة ، وهى أمور لابد منها عند التشريع . فهذا العمل يتطلب مهارة فائقة وعلما وخبرة ، وهو ما لا تستطيع العامة من الجماهير الحصول عليه ، كما أنها ، وان أرادت ، لن تجد الوقت الكافى لدراسة المشكلات القانونية وفهمها .

وللخروج من هذه المشكلة توصل رجال القانون الى حل وسط وهو أن يقوم ( البالغون ) من أفراد المجتمع بانتخاب ممثلين لهم ، وهؤلاء بدورهم يصدرون التشريعات باسم الشعب .

ومن الممكن أن ندرك حماقة هذا الحل الوسط ، حين نجد أن حزبا سياسيا لا يتمتع الا بأغلبية ٥١ ٪ من مقاعد البرلمان يحكم

على حزب الأقلية ، الذى يمثل ٤٩ ٪ من أفراد المجتمع البالغين . والأمر لا يقف عند هذاالحد ، بل أن هذا الحل يحتوى على فراغ كبير جدا تنفذ منه « أقلية » لتحكم على أغلبية السكان . وعلى سبيل المثال ، فان الحكومة التى تحكم الهند الان ، قد وصلت الى مقاليد الحكم عن طريق الانتخابات العامة الخمسية الثالثة ، التى اجريت فى البلاد عام ١٩٦٢ . وقد فاز حزب « المؤتمر القومى » بنسبة ٧٠ ٪ من مقاعد البرلمان ، فى حين أن نواب هذا الحزب لم يحصلوا الا على ٤٠ ٪ من أصوات الشعب ، فى الانتخابات . وهذا هو ما حدث فى الانتخابات الخمسية الاولى والثانية ، التى أجريت قبل سنة ١٩٦٢ (١) ، وحصل حزب المؤتمر فى كلتيهما على أقل من ٥٠ ٪ من مجموع الأصوات ! ولكنه رغم ذلك كان له الحق فى

---

(١) أجريت الانتخابات العامة الاولى والثانية فى عامى ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ ، وعام ١٩٥٧ ، كما أن الانتخابات العامة الرابعة اجريت فى عام ١٩٦٧ ، أى بعد صدور هذا الكتاب ، وفى هذه الانتخابات « فقد المؤتمر ، لاول مرة فى تاريخه ثمانى ولايات : غلبت فيها أحزاب أو مجموعة نيابية ائتلافية . وقد سبق فى انتخابات سنة ١٩٦٢ و ( ١٩٥٧ ) أن الف الشيوعيون حكومة ائتلافية بالاستعانة ببعض الاحزاب السياسية فى ولاية (كيرالا) . أما فى انتخابات ١٩٦٧ فقد انهزم حزب المؤتمر هزيمة فادحة فى ولايات : كيرالا ، ومدراس ، واوريسة ، وبيهار ، كما لم يتمكن من احراز أكثرية مطلقة ( تمكنه من تأليف الوزارة ) فى ولايات البنغال الغربية ، وأوتار براديش ، وراجستان وبنجاب » .

ومعناه : أن حزب المؤتمر فقد الحكم على نصف الولايات ( البالغ عددها ست عشرة ولاية ) . ورغم ذلك تمكن هذا الحزب من تشكيل الحكومة الاتحادية (المركزية) لان نوابه « الذين احرزوا هذه المرة أقل من نصف مقاعد البرلمان ! » يمثلون الاغلبية بالنسبة الى عشرات من الاحزاب الاخرى المتنازعة فيما بينها على المصالح والمناقشات الفقهية العقيمة ! ولو اتفقت هذه الاحزاب فيما بينها لكونت جبهة نيابية ائتلافية ( كما فعلته بعض الاحزاب فى الولايات الاقليمية ) لاحتلت مقاعد الحكم ولاضطر نواب حزب المؤتمر الى الجلوس فى مقاعد « المعارضة » !

ويتضح من هذا جليا : « كيف تنفذ أقلية فى الفراغ الدستورى الموجود فى تشريعاتنا فتحكم على الاغلبية ! » ـ المعرب .

تشكيل الحكومة ، لان اصوات الناخبين الأخرى كانت موزعة بين نواب الأحزاب ( المعارضة ) . ولم تكن بطولة حزب المؤتمر الا فى انه احرز أصواتا أكثر من أى حزب آخر « على حدة » .

ولاأستثنى من هذه القاعدة الا الانتخابات المزعومة، التىتجرى فى الدول الشيوعية فيفوز زعماؤها بأرقام خيالية للاصوات !

وهكذا نقف مرة أخرى أمام ظاهرة البحث عن أساس للقـــانون ومصدره .

والدين يستجيب لهذا التحدى الخطير ، الذى قد يدمر سعادة البشرية كلها .. انه يقول : ان مصدر « التشريع » هو «الله» وحده خالق الأرض والكون فالذى أحكم قوانين الطبيعة هو وحده الذى يليق أن يضع دستور حضارة الانسان ومعيشته . وليس هناك من احد غيره سبحانه ، يمكن تخويله هذا الحق .

أن هذا الجواب معقول وبسيط لدرجــة أنه يصرخ قائلا ، لو استطعنا أن نسمع نداءه : هل هناك احد غير الله سبحانه وتعــالى يستطيع ان يسوى هذه المشكلة المصيرية ؟

لقد وصلت بنا هــذه الاجابة الى مكانها الحقيقى من التشريع والمشرع ، بعد أن استحال علينا المضى خطوة ما فى ظلام الضــلالة عن الهدى الحقيقى .

انه لا يمكن قبول انسان حاكما ومشرعا للانسان ، ولا يتمتع بهذا الحق الا خالق الانســان ، وحاكمه الطبيعى : الله .

## ثانيا ــ العناصر الأساسية للتشريع :

ومن أهم الأسئلة لدى علماء القانون تحديد عناصر التشريع .. هل هى كلها اضافية ، أو أن هناك عنصرا أو عناصر أساسية لايمكن الاستغناء عنها فى أى دستور عند تعديله ، أو تجديده ، أو تغييره ؟

لم يستطع خبراء التشريع الوصول الى اتفاق فى هذا الصدد ، رغم البحوث الطويلة التى أجريت فى هذا الباب . وهم يسلمون ، نظريا ، بأنه لابد من عنصر فى التشريع يتمتع بالدوام والابدية ، مع عناصراخرى تتصف بالمرونة، فيمكن الاستغناء عنها عند الضرورة.

ويرون ايضا ان افتقار الدستور الى احد العنصرين : « الأبدى والاضافى » سوف يكون مصدر شقاء دائم للبشرية . وقد عبر عن هذه الحالة أحد قضاة الولايات المتحدة الامريكية ، وهو القاضى كاردوزو Caradozo على النحو التالى :

«ومن أهم ما يحتاج اليه التشريع اليوم : ان نصوغ له فلسفة للتوفيق بين الرغبات المتحاربة حـــول ثبات عنصر ، وتغير عنصر آخر » (١) .

ويقول خبير آخر فى شئون القانون، وهو البروفيسور «راسكو باوند » :

« لا بد من عنصر التحكم فى التشريع ، ولكن هـــذا لا يعنى ان يصبح التشريع جامدا . ولذلك بذل الفلاسفة قصـــارى جهودهم للتوفيق بين مقومات التحكم والتغير فى هذا المجال (٢) .

والحق انه لا يمكن التوصل الى أساس يميز بين عناصر القانون الذى وضعه الانسان ، بعضها وبعض ، فكل عنصر يدعى أنه صالح للدوام يلزمه ان يقدم دليلا على ذلك ، وهو عاجز تماما عن الاتيان بذلك الدليل ، فقد نرى اليوم عنصرا من الدستورصالحاللدوام ، ثم يأتى رجال الغد يعلنونالاستغناء عن ذلك العنصر من دستورهم

(١) The Growth of Law.
(٢) Interpratation of Legal History, p. 1.

ما دام الدستور يصاغ بناء على رغبات الشعب ، فقــد لا يعجبهم ذلك ، أو يرونه قد فقد صلاحيته بمضى الزمن .

أما الحل الوحيد لمشكلتنا فهو (( **الشرع الالهى** )) الذى يمنحنا جميع العناصر الأساسية الضرورية ، فهذا الشرع يضع جـوانب أساسية جذرية ، ثم يترك الباقى مفتوحا للاجتهادات المختلفة ، بحسب الزمان والمكان .

انه يحدد العناصر الأساسية وغــــير الأساسية بالنسبة الى دستور ما . ثم هو الى جانب ذلك يتصف ويتمتع بدليل الترجيح والتفضيل لصالحه ، حيث انه من عند الله سبحانه وتعالى ومن ثم لابد لنا أن نعتبره حقا وأن نعتده الكلام الأخير فى الموضوع ، الذى لا كلام بعــده . وتلك ميــزة هامة فى التشريع الالهى ، لا يستطيع الانسـان أن يأتى ببديل عنها .

## ثالثا ـ تحديد مفهوم الجريمة :

ومما لا بد أن يتوفر لأى دستور أن يكون لديه دليل معقـــول يستند اليه . لاعتبار عمل ما « جريمة » . ويقول الدستور الذى وضعه الانسان . أن الجريمة هى : « كل عمل يضر بالأمن العام ، أو نظام الحكم القائم » ، والتشريع الانسانى لا يجد أساسا غير هذا لاعتبار عمل ما جريمة . وقد دفع هذا الاساس القانون الجديد الى اقرار أن جريمة « الزنا » ليست بجريمـــة ، الا اذا تمت جبرا أو اكراها لاحد الطرفين . فالقانون الجديد لا يعتبر « الزنا » جريمة، وانما الجريمة الحقيقية عنــــده هى الجبر والاكراه الذى سبق « الزنا » .

ان الاستيلاء على أموال أحد المواطنين حرام ، وكذلك اهدار عصمتهم والنيل من عفتهم . ولكن أموال انسان من الناس تصبح مباحة لرجل آخر ، اذ تم ذلك برضاء ( الطرف الاول ) ـ صاحب

المال! وكذلك يرى القانون أن عصمة أحد الطرفين تباح للثانى مادام راضيا ، فعند رضا الجانبين يصبح القانون حاميا لهما ، ومدافعا عنهما ، ولو حاول « طرف ثالث » التدخل فى الأمر ، فهـــو الذى سوف يعد مجرما ، وليس الطرفان الأولان !

أن جريمة « الزنا » تفشى فسادا كبيرا فى المجتمع ، فهى تخلق مشكلات أطفال الحرام ( غير الشرعيين ) ، وتضعف روابط الزواج ، وهى كذلك تصدر عن عقلية تفضـــل اللذات السطحية فى الحياة ، وتربى عقلا خائنا ، وتخلق السرقة واللصوص ، وتروج الاغتيالات والانتحار والخطف ، ومن ثم تفسد المجتمع كله ، ولكن القانون ــ رغم ذلك ــ لا يستطيع تحـــريمها ، فهو لا يجد أساسا لتحـــريم « الزنا » الذى تم بالرضا المتبادل !

ولم يستطع القانون الجديد ان يحرم « الخمـــر » ، لانه يؤمن بأن الاكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للانسان ، وهو حر فى اقتناء كل ما يريد ان يأكله ويشربه ، وليس للقـــانون أن يتدخل فى حقوقه الطبيعية ، ومن ثم لم يكن شرب الخمر والسكر الذى يتبعه جريمة فى الواقع ، الا اذا اعتدى شارب الخمر على احد المواطنين فى هذه الحالة من السكر ، أو خرج الى الشارع وهو سكران ، فالجريمة ليست هى حالة السكر ، بل الاعتداء على الآخرين فى تلك الحالة !

والخمر تضر بالصحة ، وتبدد أموال الناس ، وتؤدى بمدمنيها الى كوارث اقتصادية محققة ، وتضعف الشعور الاخلاقى ، حتى ان الانسـان يتحول الى حيوان رويدا رويدا . والخمر خير مساعد للمجرمين ، فهى تشل الاحساسات اللطيفة، حتى يستطيع الانسان اقتراف أية جريمة من السرقة والقتل ، وهدر العصـــمة . ولكن القانون الانسانى رغم هذه المعايب الشنيعة ــ لم يتمكن من تحريم الخمر ، لانه لا يجد جوابا يسوغ تدخله فى حق من حقوق الانسان الطبيعية ! !

ولن نجد حلا لهذه المشكلة الا فى قانون الله ، أن قانونه يبين رضا حاكم الكون ، فان كون أى قانون قانون الله يحمل معه أولوية تنفيذه ، ولا يحتاج بعد ذلك دليلا آخر. وهكذا يسد القانون الالهى فجوة عميقة ، فتمكن بعدها من احالة اى عمل الى دائرة القانون .

**رابعا ــ القانون والأخلاق :**

لا يستطيع القانون ان يستقل بذاته فى أى وقت من الاوقات ، بل لا بد له أن يقترن بالاخلاق . ولتوضيح هذه النقطة نقول :

١ ــ لو طرحت قضية أمام القانون ــ على سبيل المثال ــ وتعمد الفريقان وشهودهما الكذب فلم يتبين الصدق أمام القاضى فسوف يقضى على العدل ، ولن يتمكن القاضى من الحصول عليه مهما حاول . ولذلك كان لا بد من قانون آخر « وراء القانون » ، يحرك الناس ، ويحملهم على الادلاء بالبيانات الصادقة للوصول الى العدل . وقد اعترفت جميع محاكم العالم بهذا المبدأ ، حتى انها تلزم كل شاهد ( أن يقسم بالله ان يقول الحق) قبل الادلاء بشهادته .. وهو دليل واضح يؤكد أهمية العقائد الدينية لصون حرمة القانون . بيد ان المجتمع الجديد قد قضى على أهمية المعتقدات الدينية ، حتى اصبحت ايمان المحاكم اضحوكة ، وتقليدا لا يأتى بنفع ، اى نفع !

٢ ــ ومما لا بد منه أن يكون أى « عمل » يعاقب عليه القانون ( جريمة ) فى نظر المجتمع أيضا ، وأى بند من قانون مكتوب لايمكنه أن يخلق نفسية فى المجتمع، ترى فى عمل ما جريمة،كما يراه القانون اذ لا بد من أن يشعر مرتكب الجريمة بأنه «مذنب» ويعتبره المجتمع مذنبا . ويقبض عليه رجال الشرطة بكل اقتناع ، ثم يصدر قاضى المحكمة ــ وهو فى غاية الاطمئنان ــ حكما ضد ذلك الرجل . ولذلك كان لابد أن تكون كل جريمة « ذنبا » أيضا . وهذا هو ما يراه أصحاب المدرسة التاريخية من رجال القانون :

« أن أى تشريع لن يصيب هدفه الا اذا كان مطابقا للاعتقادات السائدة عند المجتمع الذى وضع له ذلك القانون ، ولو لم يطابق التشريع اعتقادات المجتمع ، فلا بد من فشله » (١) .

هذا الرأى الذى عبرت عنـــه « المدرسة التاريخية » لرجال القانون غير صائب فى مغزاه الحقيقى الذى يرمى اليه اطلاقا، ولكنه ذو صدق خارجى .

٣ ـ ان خوف الشرطة والمحكمة لا يكفى لدرء الجرائم ، وانما لابد ان يكون هناك وازع فى المجتمع يمنع الناس من ارتكاب الجرائم لان الرشاوى والمحسوبيات ، وخدمات المحامين البارعين ، وشهود الزور ـ كل هذه العوامل تكفى لحماية المجـــرم من اية شرطة أو محكمة انسانية ، والمجرم لا يرهب عقابا ، أى عقاب ، لو استطاع ان يفلت من أيدى القانون .

ان الشرع الالهى يستوفى كل هذه الامور ، فعقيدة « الآخرة » التى يحملها الشرع الالهى، هى خير وازع عن ارتكاب الجرائم، وهى تكفى لتبقى احساسا بالجريمة واللوم يعتمل فى قرارة ضمير الانسان لو أدلى بشهادة كاذبة امام القاضى .

لقد أقيم فى فناء محكمة « ويسترن سركيت» نصب من حجر ، يذكر الناس بشاهد ادلى بشهادة زور فى فناء الدار، ثم قال : «وان كنت كاذبا ، فليمتنى الله ، هنا ، فى الحال ! ولم تكد هذه العبارة تخرج من فم الشاهد حتى سقط على ساحـة الارض ، ومات فى الحال » (٢) !

وهناك وقائع أخرى من هـــذا النوع حدثت لشدة احساس أصحابها باللوم والذنب .

(١) A Text Book of Jurisprudence, p. 16.

(٢) Sir Alfred Denning, The Changing Law, p. 103, (1953).

ان قرارات البرلمانات لن تخلق فى الجماهير شعورا بشناعة فعل ما ، الا اذا كانت معتمدة من القانون الالهى ، وراسخة فى معتقدات المجتمع .

والوازع الذى يمنع من ارتكاب الجرائم ليس هو الدين فى حد ذاته ، فانه لا يقدم لنا تشريعا فحسب ، وانما يخبرنا أن صاحب هذا التشريع يشاهد كل أعمالنا من خير وشر .. فنياتنا وأقوالنا وحركاتنا بأكملها تسجل بواسطة اجهزة هذا المشرع ، ولسوف نقف بعد الممات امامه ، ولن نستطيع أن نفرض ستارا على أدنى أعمالنا.

ولو اننا استطعنا الهروب من عقاب محكمة الدنيا ، فلن نتمكن بالتأكيد ــ من ان نفلت من عقاب صاحب التشريع السماوى .

ولو اننا حاولنا تفادى عقاب الدنيا . فسوف نذوق عذابا مضاعفا يوم القيامة ، يفوق عقاب الارض ملايين المرات ، قسوة وعنفا .

## خامسا ــ القانون والفرد :

ورد فى التاريخ الانجليزى ان الملك « **جيمس الاول** » اصدر مرسوما يقول بأنه ( الملك ) يستطيع أن يحكم البلاد مطلق العنان ، كما ان من حقه اصدار أحكام دون أن تخضع للمرافعة أو الاستئناف فى المحاكم .

وكان رئيس القضاة حينئذ هو القاضى الشهير « **اللورد كوك** » Coke وكان شديد التمسك بالدين حتى اعتاد ان يقضى ربع يومه فى الكنيسة وذهب اللورد كوك ليقول للملك « ليس من حقك أن تحكم فى اى شىء ولا بد لجميع القضايا ان تذهب الى المحكمة للنظر فيها » .

فقال له الملك : « أننى ارى ــ وهو ما سمعته ــ أن القوانين قد وضعت على أساس العقل ، فهل أنا أقل من قضاتك عقلا » ؟

فأجابه رئيس القضاة : « انه مما لا شك فيه أنكم تتمتعون بعلم وكفاءة مثاليين، ولكن القانون يتطلب تجربة طويلة ودراسة عميقة. وفوق ذلك هو الميزان الذهبى الذى يزن حقوق الرعية، وهو الذى يصون شخصيتكم » .

فغضب الملك بشدة وقال : « هل أنا أيضا أخضع للقانون ؟ أن هذا المقال بمثابة تمرد وخيانة » !

وكان جواب « اللورد كوك » ان ذكر الملك برأى « براكتون » Bracton الذى قال :

« ان الملك لا يخضع لأحـــد من الناس ، ولكنه خاضـــع لله وللقانون » (١) . وهنا ــ لو جردنا القانون من « الله » ، فلن نجـــد أساسا معقولا للقول بأن : « الملك خاضـــع للقانون » ــ لأن الذين صاغوا القانون، وأصدروه بارادتهم، يستطيعون ــ فى الوقت نفسه ــ تعديله وتغييره اذا ما أرادوا ذلك ، فكيف ــ اذن ــ سيخضعون لذلك القانون (٢) ؟ . .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧ ــ ١١٨ .

(٢) ومن أمثلته ما حدث فى الهند عقب الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧ ، بعد أن أفلحت مجموعات نيابية ائتلافية فى الحصـــول على مقاليـــد الحكم فى كثير من الولايات الاقليمية ، فحينئذ أجرت الحكومة المركزية ( التى يحكمها حزب المؤتمر تعديلات هامة فى كثير من المجالات ، لتقييد حركة الحكومات ( المعارضه ) ، ومنها ــ على سبيل الذكر ــ منع تقديم الهبات والمعونات المالية الى الاحزاب السياسية. وكانت هذه المعونات المقدمة الى الاحزاب السياسية معفاة من الضرائب ، فضلا عن أصحابها كانوا يتمتعون بتسهيلات عديدة عنـد دفع الضرائب . وكان حزب المؤتمر ، كحزب حاكم يحصل على هذه الهبات بأكثر من ثمانين فى المائة ، بينمـا كانت الاحزاب الاخرى لا تتمتع الا بنسب ضئيلة جدا من هذه المعونات ، ولكن بعد

ان الانسان اذا كان هو المشرع ، فهل يحل محل القانون والاله معا ، وحينئذ يستحيل احتواؤه داخل دائرة القانون ، بأى صورة من الصور .

وقد ادى هذا العيب فى القوانين الحديثة الى انه ــ على الرغم من أن كل الجمهوريات تقر مبدأ المساواة المدنية ــ فان هذه المساواة لا تنفذ فعـــلا فى أية دولة ، فلو انك كنت تريد أن تحاكم رئيس جمهورية الهند ، أو أحد حكام الولايات ، فلن تستطيع ذلك ، كما تستطيع أن تحاكم المدنيين العاديين ، اذ كان لابد لك من الحصول على موافقة الدولة . قبل الذهاب الى المحكمة، فقد أضفى الدستور الهندى ( فى المادة ٣٦١ ) على رئيس الجمهـــورية ونائبه وحكام الولايات هالة وامتياز ، بحيث لا تمكن محاكمتهم الا بعد موافقة البرلمان المركزى . وكذلك لا بد من الحصول على موافقة الحكومة ، لمحاكمة الوزراء !

---

نجاح الاحزاب الاخرى فى الوصول الى مقاعد الحكم فى كثير من الولايات تحولت مصالح الرأسماليين الى الحكام الجدد فاغدقوا على أحزابهم المعونات ، مما آل بأضرار بالغة بالنسبة لحزب المؤتمر ، فمنعت الحكومة المركزية التسهيلات التى كانت تقدم الى أصحاب الهبات ، وبالتالى حرمت الاحزاب الاخرى من جنى فوائد كبرى ! لقد أصبح نفس الشيء الذى كان مباحا فى الماضى ــ محظورا فى الحال ، لان مصالح واضعى الدستور ( الذين يتمتعون بأغلبية ضئيلة تمكنهم من فرض آرائهم على الاقلية الكبيرة ) لم يعد لها وجود ، بسبب تصاريف الزمن !

ومنها كذلك أن « الجمعية التشريعية » فى ولاية ( أوريسه ) الهندية أصدرت قانونا يحرم على المواطنين تغيير الديانة ، وهــذا ــ كما هو واضح بكل جلاء ــ لمنع الهندوس ، وخصوصا المنبوذين ، من قبول الاسلام !! وهذا البنـد المستحدث يتعارض تعارضا كليا ، بل يصادم الدستور الهندى الذى يعطى للمواطنين الحرية الكاملة فى الشئون المماثلة . ولكن هذا التشريع الجـديد جاء ليرضى الرجعيين الهنادك . وهؤلاء يشجعون ، علانية ، مثل هذه الحركات الشنيعة لمنع الاهالى من قبول الدعوة الاسلامية ، وهؤلاء الرجعيون هم المسئولون عن الاضطرابات الطائفية التى يذهب ضحيتها الكثيرون من المسلمين المسالمين ، ثم لا يقـدم مثيرو الشغب والفساد الى المحاكمة ــ اطلاقا ــ لتمتعهم بعطف ووصاية الرجعيين ( **المعرب** ).

والأمر لا يقف بنا عند هذا الحد ، بل تنص المادة ١٩٧ ، من ( لوائح العقوبات الهندية ) على : « أن قاضيا ، أو وكيلا للنيابة العامة ، أو أحد الموظفين الحكوميين ( من الذين لا يجوز فصلهم من الخدمة الا بعد موافقة الحكومة المركزية ) لو اتهم أحدهم بارتكاب جريمة ما ، فليس من شأن المحاكم النظر فى قضية احدهم ، الا بعد الحصول على موافقة الحكومة المركزية أو المحلية . التى تتعلق بها وظيفة المتهم المطلوب محاكمته » !

وبكلمة أخرى : لو أردت أن تحاكم سياسيا كبيرا ، أو أحد أعضاء السلطة التنفيذية العليا ــ فعليك أن تسأل هؤلاء أنفسهم : « هل تبيحون لنا محاكمتكم » ؟ !

وليس هذا عيب الدستور الهندى بالمرة ، بل هو عيب القانون البشرى بعامة ، وهو عيب موجود ، حيث يوجد هذا النوع من الدساتير الوضعية .

ليس من الممكن أن يتحقق العدل الكامل الا فى ظل **القانون الالهى** حيث يكون كل انسان مساويا للاخرين امام الدستور . وحيث تمكن مقاضاة أية سلطة سياسية وتنفيذية ، كما **يحاكم** ابن الشعب لأن الحاكم فى هذا القانون هو (( **الله** )) سبحانه وحده ، والمحكومون هم سائر أفراد المجتمع دون أدنى تمييز (١) .

---

(١) لذلك أمثلة رائعة فى العصور الاولى لخلافتنا الاسلامية ، حتى كان العاديون من أفراد الشعب يحتكمون الى القضاة ضد الخلفاء وعمال الاقاليم وعمال رجال الدولة . بل وهناك أمثلة فى العهود القديمة جدا ، ومنها ، على سبيل المثال وليس الحصر ، أن أفراد الشعب العاديين احتكموا الى المحاكم ــ عدة مرات ضد الامبراطور المسلم المغولى « جهانكير » ابن الامبراطور « اكبر » ــ الذى حكم الهند فى القرن السابع عشر ــ **(المعرب)** .

أقول : أليس هذا أثرا من آثار المبادىء المحمدية السامية ، وانعكاسا لقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدوية فى سمع الزمان : أتشفعون فى حد من حدود الله ؟ والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ! **( المراجع )** .

## سادسا ــ القانون والعدل :

ان أهم وأكبر أساس فى هيكل القانون هو «العدل» الذىيبحث عنه خبراء القانون من قرون طويلة ، وهو موجود في القانون الالهى فى أتم الصور وأكملها . والقول بأن : عــدم اهتداء الانسان الى أساس العدل يرجع الى أن بحوثنا لازالت ناقصة ، وتتطلب المزيد من البحث ــ قول باطل . فهذا الكلام يثبت انه ليس فى مستطاع انسان أن يحصل على هذا الاساس أبدا .

لقدقطعنا شوطا كبيرا فى مضمار البحوث الطبيعية بنتائجباهرة فى كل مجال ، ولكنا ، رغم جهودنا المضاعفة فى البحث عن القوانين المدنية ، لم نحرز نجاحا ، ولو بنسبة واحد فى المائة من الدرجــة المطلوبة . وهذه الخيبة تؤكد ان اخفاقنا لا يرجع الى نقص الجهود وانما سببه الحقيقى أن هذا الامر خارج ــ على الاطلاق ــ عننطاق بحث الانسان .

لقد صور الانسان اول صــورة فوتوغرافية فى عام ١٨٢٦ م . وقد بذل العالم الفرنسى ، الذى اخترع الجهــاز ، ثمانى ساعات متواصلة لتصوير شرفــة المنزل .. والآن تستطيع آلات تسجيل الأفلام أن تصور أكثر من ألف صورة فى الثانية الواحــدة ، ومعنى ذلك اننا نستطيع اليوم أن نصور أكثر من ستين مليون صورة ، فى نفس الوقت الذى استغرقته عملية التصوير الاولى، اى أن سرعتنا قد زادت ستين مليون مرة ، فى ١٤٠ سنة فقط !

وعند بدء هذا القرن العشرين لم يكن يوجد فى شوارع الولايات المتحدة غير اربع ســـيارات ، على حين تمرق الآن على شوارعها الفسيحة عشرة ملايين سيارة .

ويمضى الاعجاز العلمى بالانســـــان الى أن يقسم الزمن الى

١
―――――
١ر٠٠٠ر٠٠٠

جزء من اجزاء الثانية ! وتستطيع المراصــد العلمية أن تكشف عن ادنى فارق فى حـــركة دوران الارض ــ حتى ولو بلغ فى مـــدته

١
―――――
١ر٠٠٠ر٠٠٠

لقـــد اخترعنا آلات حساسة يمكنها الكشف عن فارق الوزن الذى يطرأ على كتابة ( حرفين ) بالحبر ، على ورقـــة من اوراق موسوعة من ثلاثين مجلدا !

هذه هى حال الانسان فى حقل البحث العلمى ، على حين لم يتمكن من احراز اى تقدم ــ ولو بمقدار ( بوصـــة ) ــ فى مجال القوانين المدنية .

وسوف أورد هنا بعض الامثلة من مختلف مجـالات الحياة ، لنتبين مدى صدق القول : بأن الدستور الالهى هو وحده الاساس الحقيقى ، الذى يصلح لأن يكون مصدرا لقوانين الحياة الانسانية.

## المراة والمجتمع :

ان الاسلام لا ينظر الى المراة والرجل نظرة واحدة ، فهو يحرم العلاقات الحرة بينهما ، وقد أخذ العلماء عنـــد بدء العصر العلمى يسخرون من هذه القوانين ، واطلقوا عليهـــا : « مخلفات العصر الجاهلى » .

وقالوا بشدة : أن الرجل والمراة متساويان ، ويرثان النســـل الانسانى بطريقة متساوية ، ولسوف تكون جريمة كبرى لو اقمنا العقبات فى طريق علاقاتهما الحرة .

وقد انتجت هذه الفكرة مجتمعا جـــديدا فى الغرب . بيد أن التجارب الطويلة المريرة التى مرت بها الانسانية بعد هذه الاباحــة الجنسية هى أقسى ما عاناه البشر ، فقد ثبت بعد هذه التجارب ان المرأة والرجل لا يتساويان فطريا ، ولا طبيعيا ، وأى مجتمع يقوم على أساس مساواتهما سوف يسبب خرابا ودمارا عظيمين للحضارة البشرية .

( أ ) أن أول حقيقية فى هذا الامر هى ان الرجل والمرأة يختلفان كل الاختلاف فى نوعية كفاءاتهما الطبيعية ، واعتبارهما متساويين انما هو مخالفة كبرى لقوانين الطبيعة فى حد ذاتها .

كتب الدكتور « الكسيس كيريل » ، الحائز على جائزة نوبل للعلم ـ وهو يبين الفارق العضوى بين الرجل والمرأة ـ يقول :

ان الأمور التى تفرق بين الرجل والمرأة لا تتحدد فى الأشــكال الخاصة بأعضائهما الجنسية والرحم والحمل ، وهى لا تتحدد أيضا فى اختلاف طرق تعليمهما ، بل ان هذه الفوارق هى ذات طبيعــة أساسية ، من اختلاف نوع الأنسجة فى جسم كليهما ، كما أن المرأة تختلف عن ( المرء ) كليا ، فى المــادة الكيماوية التى تفرز من مبيض الرحم داخل جسمها . والذين ينادون بمســاواة الجنس اللطيف بالرجل يجهلون هذه الفوارق الأساسية فيدعون أنه لابد أن يكون لهما نوع واحد من التعليم والمسئوليات والوظائف . ولكن المرأة فى الواقع تختلف عن الرجل كل الاختلاف ، فكل خلية من جسمهـا تحمل طابعا انثويا ، وهكذا تكون اعضاؤها المختلفة بل واكثر مـن ذلك هذه هى حال نظامها العصبى .

**ان قوانين وظائف الاعضاء محدودة ومنضبطة كقوانين الفلك ، حيث لا يملك احداث ادنى تغيير فيهما بمجرد الامنيات البشرية ، وعلينا ان نسلم بها ، كما هى ، دون ان نسعى الى ما هو غير طبيعى**

**وعلى النساء أن يقمن بتنمية مواهبهن بناء على طبيعتهن الفطرية ، وأن يبتعدن عن تقليد الرجال » (١) .**

ولقد صدقت التجارب العلمية نتائج هذه الفوارق الطبيعية ، فقد فشلت المرأة فى أنتحرز أية مساواة مع الرجل فى أى ميدان. . حتى أن الرجل يتقدم المرأة فى الميادين التى كانت تعتبر حكرا على المرأة فى الماضى . ومن ذلك ان المرأة فشلت فى المساواة مع الرجل فى حقل السينما . وليس الرجل هو الذى يدير اليوم كل ما هو متعلق بالسينما ، ومع ذلك فهو يتقاضى أجرا أكثر من المرأة . فممثل كبير يتقاضى اليوم ستة ملايين روبية (٢) فى السنة، على حين لا يزيد دخل أعظم ممثلة هندية على أربعة ملايين روبية !!

وليس هذا هو كل ما فى الأمر .. فاننا لو أنكرنا القوانين الطبيعية ، والضوابط الفلكية ، وبدأنا نعمل على عكسها فسوف نكسر رؤوسنا بأيدينا . وهكذا جلب النظام الذى صاغه الانسان ـ متجاهلا الحيثيات الفارقة بين الجنسين ـ صنوفا من الامراض والجرائم الى داخل المجتمع . أن شباب هذا المجتمع الجديد يشكو انواعا من الأمراض الجنسية والخلقية والنفسية، فضلا عن العصمة التى اهدرها المجتمع ، نتيجة هذا الاختلاط المروع .

ومن الظواهر التى تتكرر مرارا أمام أطباء هذا المجتمع أن تدخل فتاة غرفة الطبيب ، وهى تشكو من الصداع وقلة النوم ، وتمضى

---

(١) Man the Unknown, p. 93.

(٢) عملة هندية كانت تساوى عشرة منها جنيها مصريا ( عند صدور هذا الكتاب ) ، وأما الان فستة عشر ( ١٦ ) منها تساوى الجنيه المصرى الواحد ، بعد تخفيض قيمة العملة الهندية عام ١٩٦٦ ، وبالتالى قفزت دخول الممثلين الهنود الى ارقام خيالية ، فجاء فى احدى الاحصائيات الحديثة أن أكبر ممثل هندى ، دليب كومار ، واسمه الحقيقى يوسف خان ) يتقاضى ١٠ر٦٠٠ر٠٠٠ روبية للاشتراك فى فيلم واحد ، بينما كبر ممثلة لا تتقاضى الا أقل من نصف هذا الاجر ـ **المعرب** .

بعض الوقت تتحدث عن الآلام .. ثم لاتلبث ان تتكلم عن شاب التقت به صدفة منذ مدة .. وحينئذ يشعر الطبيب أنها تتعثر وتتلعثم فى كلامها ، فيقول لها :

« Well, then he asked you to his flat, what did you say ? »

حسنا ! ثم دعاك الى شقته ، فماذا قلت له ؟
وتقول الفتاة فى دهشة :

« كيف عرفت ذلك ، لقد كنت أريد أن أقول لك ذلك حالا !» .

ومن الممكن قياس كل ماستقول الفتاة للطبيب بعد هذا الحديث وهذا هو الذى دفع علماء الغرب الى الشعور بخيبة الأمل ، فانتهوا الى أن الحفاظ على العفة والعصمة « كلام فارغ » فى ظل مجتمع العلاقات الحرة . وقد قال طبيب غربى :

« من الممكن أن يصل الرجل والمراة الى نقطة يستحيل عندها التحكم فى الأعصاب ، والاحساس بالعواقب » .

وقد بدأت حملة شديدة ضد هذه الظواهر فى صورة المقالات والكتب . وبدأ بعض علماء الغرب يشعرون بالكارثة التى تهدد حضارتهم . ولكنهم ، رغم ذلك كله ، غير قادرين على فهم جذور الموقف .

« ولقد نشرت الطبيبة المعروفة (( **ماريون هيليارد** )) مقالا عنيفا ضد الاختلاط الحر . فقالت : « اننى لا استطيع أن أسلم ، كطبيبة بأن العلاقات الطاهرة ممكنة بين رجل وامراة ، ينفردان برضاهما وقتا طويلا » .

ولكن الدكتورة « هيليارد » تستطرد قائلة :

« ولست على هذه الدرجة من الغباء ، حتى أنصح الشبان

والفتيات أن يمتنعوا عن التقبيل . ولكن أكثرية الامهات لا تخبرن أولادهن أن القبلة لا تبرد العواطف ، وانما تلهبها » (١) .

وتسلم الدكتورة « هيليارد » ، بهذا القول ، بالقانون الالهى الذى يحرم هذه الظواهر ، حتى لا يصل الانسان الى حافة الجرائم الجنسية القبيحة، ولكن الطبيبة لاتعرف : كيف تحرم هذهالظاهرة التى تنتمى الى الاعمال الشيطانية لا محالة ؟ !

(ب) لقد أباح مشرع الاسلام « تعدد الزوجات » ، واثيرت ضجة كبرى ضد هذا التشريع ، وأطلق عليه ـ هو الآخر ـ أنه « تذكار العصر الجاهلى» ولكن جاءت التجارب العملية لتثبتأنه كان تشريعا مناسبا للطبيعة الانسانية ، لان سد باب تعدد الزوجات انما هو فتح لعشرات الأبواب الفاجرة ، غير الشرعية .

وسوف أشير هنا الى النشرة الاحصائية التى نشرتها هيئةالأمم المتحدةفى عام ١٩٥٩ . لقد اثبتتهذه النشرة بالأرقام والاحصائيات ان العالم يواجه الآن مشكلة « الحرام أكثر من الحلال more out than in شأن المواليد ! وجاء فى هذه الاحصائية أن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت الى ستين فى المائة . وأما فى بعض البلاد . وعلى سبيل المثال « بناما » فقد جاوزت هذه النسبة الخمسة والسبعين فى المائة ، اى أن ثلاثة عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد ، وأرفع نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة فى امريكا اللاتينية .

وتثبت هذه النشرة أيضا أن نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل الى «العدم» فى البلدان الاسلامية . وتقول النشرة : ان نسبة هؤلاء الأطفال اقل من واحد فى المائة فى جمهورية مصر العربية ، مع انها أكثر البلاد الاسلامية تأثرا بالحضارة الغربية .

---

(١) مجلة « ريدرز دايجست » عدد ديسمبر عام ١٩٥٧ .

فما الأسباب التى تحمى الدول الاسلامية من هذه البلية ؟

يقول محررو هذه النشرة الاحصائية : ان البلدان الاسلامية محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام « تعدد الزوجات » (١) .

لقد استطاع هذا القانون الالهى الحكيم أن يحمى بلادنا الاسلامية من كارثة محققة فى هذا العصر .

فقد أكدت تجارب الانسانية ان القانون الالهى القديم هوالذى كان مبنيا على الحق ، والرحمة بالانسانية (٢) .

**التمـدن :**

شرع الاسلام القصاص ممن قتل عمـدا ، الا ان يرضى ورثة القتيل بالدية ، ولقـد تعرض هذا القانون لنقد شديد من جانب رجال القانون فى العصر الحاضر ، وأهم ما يستدلون به : ان معنى هذا التشريع أن تضيع نفس اخرى ، بعد ان ضاعت الاولى بالفعل، ودفعهم هذا الى الغاء نظام ( الاعدام شنقا ) فى كثير من البلاد .

ان القانون الذى يقرره الاسلام له فائدتان هامتان :

---

(١) جريدة Hindustan Times عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠ .

(٢) لم يستطع محررو النشرة الاحصائية أن يشيدوا بالدين الاسلامى وروحه ( وذلك راجع الى تعصبهم أو جهالتهم بالحقائق ، أو الى الاثنين معا ) ، فمن مزايا الاسلام أنه يحرم « الزنا » ، وتحريمه هذا هو الذى يحمى المسلمين ، سواء أكانوا من متعددى الزوجات أم من غيرهم ، وذلك لان ظاهرة تعدد الزوجات آخذة فى الاختفاء من المجتمع الاسلامى ، بسبب الحملات السخيفة التى تعرضت لها من جانب علماء الغرب ، والمتفرنجين من أبناء الشرق المبهورين بالحضـارة الغربية ( والذين يطلق عليهم مؤلف هذا الكتاب كلمة « الانجليز السود» المتحمسون للحضارة الغربية أكثر من أصحابها ) . وترتبت على هذا الوضع مشكلات خطيرة ـ من عائلية واجتماعية الى حضارية ـ بسبب عدم اكتفاء الكثيرين من الازواج بزوجة واحدة ، وكثرة الفتيات والارامل الطالبات للزواج ، وقلة الشبان ، وهذه مشكلات يعانى منها مسلمو الهند وباكستان بشدة أكثرمن اخوانهم العرب ـ **المعرب**

**أولاهما :** أن تستأصل جذور هذه الجريمة ، لأن أحـــدا من الآخرين لن يندفع الى ارتكابها مرة أخرى نظرا للعاقبة الوخيمةالتى لقيها أحد أفراد المجتمع (١) .

**وأما الثانية :** فهى « الدية » وقد راعى المشرع النتائج مراعاة تامة ، فلو قتل الابن الوحيد لشيخ ، فعلى القـــاتل أن يدفع لوالد المقتول مبلغا من المال يرضيه ، فيعفو عن الجريمة لقاء المبلغ الذى تقاضاه . وقد جعل التشريع الاسلامى حقا للدولة أن تأمر برفعمبلغ الدية ، اخمادا لنار « الثأر » .

ان هذا التشريع حكيم لدرجة عظيمة ، وتجربته تؤكد أن غريزة القتل قد قضي عليها فى اى بلاد طبقته ، كما اكدت التجارب ايضا أن أى بلاد ألغت هذا التشريع قفزت فيها جرائم القتل الى نسب خيالية حتى ان نسبة الاغتيالات قد ارتفعت فى بعض هذه الدول الى اثنتى عشرة فى المائة.

وهناك أمثلة أخرى عديدة : بلاد ألغت عقوبة القصاص ، ولكنها عادت فأقرته مرة أخرى ، نظرا للعواقب ، فقد أصـــدر البرلمان السيلانى قانونا سنة ١٩٥٦ يحرم القصاص فى حدود سيلان . . فارتفعت نسبة جرائم القتل ارتفاعا مخيفا بعد صدور القانون ، ولم يستيقظ السيلانيون من سباتهم الا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٥٩ ، عندما تسللرجل مسلح داخل منزلرئيس الوزراء السيد بندرانيكه وقتله بكل جراة فى غرفته ، وكان أول ما فعله أعضـــاء البرلمان السيلانى بعد دفن جثمان رئيس الوزراء المأسوف عليه ، أن عقدوا

---

(١) الدولة الوحيدة التى تطبق النظام الاسلامى فى هـذا المجال هى المملكة العربية السعودية ، ومن المعروف لكل المهتمين بالشئون السعودية أن نسبة القتل بها أقل نسبة فى العالم كله ، فالمعدل السنوى لحوادث القتل بالمملكة السعودية لا يزداد عن « بضع » حوادث ، وذلك راجع الى العقوبة التى يلقاها المجرمون ، وكذلك تنعدم حوادث السرقة بهذه المملكة ، للسبب نفسه — **المعرب** .

جلسة طارئة استغرقت أربع ساعات، واعلنوا عند ختامها ان سيلان قررت الغاء القانون ، واصدار قانون جديد بتشريع القصاص .

**المعيشة :**

ان النظام الذى يقره الاسلام فى المعيشة يسلم بالملكية الفردية لوسائل الانتاج الزراعى، وهيكل المعيشة فى الاسلام يقوم على أساس الملكية الفردية . وقد راج هذا النظام عصورا طويلة فى العالم (١) . ثم تعرض بعد الثورة الصناعية لنقد قاس ، حتى أن المثقفين رضوا بالغائه .

وقد راج فى أوربا ، فيما بين النصف الاخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، شعور بأن الملكية الفردية احد القوانين المجرمة التى تفشت فى عصر الجاهلية المظلم . . وانهم قد استطاعوا الآن ان يكشفوا عن نظام « الملكية الجماعية » ــ التى هى أقوى أساس لتنظيم المعيشة .

ثم بدأت أول تجربة للنظرية الجديدة ــ الملكية الجماعية، ونفذت على رقعة واسعة من الأرض، وبدأت دعاية كبيرة فى شأنها ، وعقدت عليها آمال كبار ، ولكن التجربة الطويلة أثبتت أن هذا النظام ، رغم الجهود الضخمة التى بذلت فى سبيله ، لم يأت الا بانتاج أقل من الانتاج الذى يأتى به نظام الملكية الفردية .

هذا ، فضلا عن نقائصه الكثيرة التى تتلخص فى كونها غير طبيعية ، الى استخدام العنف لتنفيذها ، وانها تمنع التقدم الانسانى ، وانها أكثر من الأنظمة الرأسمالية تركيزا ، واستغلالا ، ودكتاتورية .

---

(١) نظام الملكية الفردية الذى راج فى العالم هو اثر من آثار الدين . ولذلك خالف « ماركس » وأتباعه الاديان بشدة ، حتى يتمكنوا من طرد فكرة الملكية الفردية من أذهان الافراد .

وسوف أضرب هنا مثالا لروسيا: لقد نفذت الحكومة الروسية نظام ( الملكية الجماعية ) فى جميع أنحاء البلاد ، والدولة تملك جميع الأراضى الزراعية ، فهى تقوم بزراعة أراضيها فى صورة « المزارع الجماعية » . وقد منح القانون الزراعى الذى أصدرته الدولة عام ١٩٣٥ الفلاح حقا بملكية الثلث أو نصف الفدان ، أو فدانين فى بعض الأحوال الاستثنائية ، وسمح له أن يربى بعض الانواع من الحيوانات مثل الأبقار والأغنام والدجاج .

وتثبت الاحصائية الرسمية التى نشرت عام ١٩٦١ أن الأراضى الزراعية فى روسيا فى ذلك الوقت كانت ٢٠٤ مليون هيكتار ، منها اراضى قدرها ستة ملايين هيكتار فى حوزة الملكية الفردية، أى ثلاثة فى المائة من مجموع مساحة الأراضى الزراعية، ولكن نسبة المحصول الزراعى للبطاطس عام ١٩٦١ كانت كما يلى :

| | نسبة الأراضى المزروعة ( بالفدان ) | نسبة المحصول ( بالطن ) |
|---|---|---|
| المزارع الجماعية | ٤ر٣٥٢ر٠٠٠ | ٣٠ر٨٠٠ر٠٠٠ |
| الأراضى الفردية | ٤ر٥٢٦ر٠٠٠ | ٥٣ر٥٠٠ر٠٠٠ |

وتؤكد هذه الاحصائية أن المحصول الزراعى كان أحد عشر طنا من البطاطس فى الأراضى الفردية ، مقابل سبعة اطنان فى الأراضى الحكومية . وهذه النسبة توجد كذلك فى المحاصيل الأخرى ، على حين أن الأراضى الفردية لا تتمتع بتسهيلات الآلات الزراعية ، والسماد ،والكفاءات التى تتمتع بها المزارع الجماعية الحكومية .

وأما الماشية فهى أسوأ حالا فى المؤسسات الحيوانية الحكومية فهى تموت بكثرة بسبب نقص الكلأ ، والاستهتار فى الرعاية ، وقد

مات ۰۰۰ر۱۷۰ من الرءوس فى اقليم واحد ، فى مدة أحد عشر شهرا عام ۱۹٦۲ .

واما حيوانات الملكية الفردية فهى آخذة فى الازدياد والنمو يوما بعد يوم، رغم العقبات العديدة، وهى كذلك أكثر انتاجا من غيرها. فالمؤسسات الحكومية التى تملك سبعين فى المائة من الحيوانات والدجاج لم تقدم للسوق من اللحوم الا ما يزيد على عشرة فى المائة بالنسبة الى أصحاب الملكية الفردية ، الذين لا يملكون أكثر من ثلاثين فى المائة من الحيوانات والدجاج : ويقدمون انتاجهم للحكومة ، وهو ما تبقى لديهم بعد استهلاكهم الذاتى . وقد تخلفت المؤسسات الزراعية الحكومية كثيرا فى انتاج البيض . ويمكن استنتاج هذه الفوارق من احصائية رسمية لعام ۱۹٦۱ :

| المحصول | النسبة الحكومية ( بالطن ) | النسبة الفردية ( بالطن ) |
|---|---|---|
| اللحم | ۰۰۰ر۸۰۰ر٤ | ۰۰۰ر۹۰۰ر۳ |
| اللبن | ۰۰۰ر٤۰۰ر۳ | ۰۰۰ر٥۰۰ر۲۸ |
| الصوف | ۰۰۰ر۳۸۷ | ۰۰۰ر۷۹ |
| البيض | ۳۰۰ر٦ ( مليون بيضة ) | ۰۰۰ر۷۹ ( مليون بيضة ) |

انه لمن الطريف أن يقوم الأفراد بسد حاجات حكومة تملك ، بل تحتكر كل وسائل الانتاج ! أن الاحصائية تدلنا على أن احدى الجمهوريات السوفيتية حصلت من الأفراد على ستة وعشرين فى المائة من البطاطس ، واربعة وثلاثين فى المائة من البيض ، لسد احتياجاتها المحلية ، وهكذا اضطرت الى شراء أشياء أخرى مماثلة من الأفراد ، لاستهلاكها محليا (۱) .

---

(۱) Bulletin (Germany) Nov. 1963.

ومن العواقب الوخيمة لهذه الملكية الجماعية أن روسيا ــ التى كانت من بين الدول الكبرى المصدرة لانتاجها الزراعى فى عهـــد القيصرية ــ اضطرت الى شراء خمسة عشر مليونا من أطنان القمح، من كل من : استراليا ، وكندا، والولايات المتحدة الامريكية. وهذه الحال مستمرة فى التدهور ، فقد اشترت روسيا ۱٫۲٥۰٫۰۰۰ طنا من القمح من الولايات المتحدة ، فيما بين ١٩٤١ ــ ٥٦ وهـــذا هو الذى يجرى فى الصين الشيوعية (١) .

وتؤكد هذه التجارب القاسية التى خاضتها البشرية أن **العقل الالهى** ــ الذى هو منبع القانون الحقيقى ــ هو أعرف بالطبيعـــة الانسانية ، وأكثر فهما لمسائلها ومشكلاتها .

أن فى الدين جوابا محددا لكل الأسئلة التى تؤرقنا فى كفاحنـــا الحضارى . انه يوجهنا الى المشرع الحقيقى الطبيعى ، وهو يضـــع لنا الأساس النظرى للقانون . . فهو يمنحنا أساسا صائبا لكل مسألة فى الحياة البشرية حتى يمكن لها الوصول الى أعلى درجات الازدهار والرقى ، وهو الصورة الوحيدة للمساواة الكاملة بين الحاكم والرعية وهو يهيىء الأساس النفسى ، الذى يصبح القانون بدونه مشـــلولا بلا حراك ، وهو يخلق لنا ذلك المناخ المناسب الذى لا بد منه لتطور أى مجتمع تطورا حيويا وفعالا .

وهكذا يعطينا الدين كل ما نحتاج اليه لبناء الحضارة ، فى حين لا يتيح لنا الالحاد والكفر شيئا ما ، سوى الضياع والفاقة ، فهو عقيم لا يجدى نفعا .

*  *  *

---

(١) Ibid, Oct., 1963.

# الباب التاسع

## الحياة التى ننشدها

كتب « **فريدرك انجلز** » :

« لا بد للانسان أن يجد لباسا يستر به جسده ، وخبز يشبع به بطنه ، حتى يستطيع الخوض فى الفلسفة والسياسة » .

والواقع أن الأسئلة الأولى التى يسعى الانسان الى معرفةجواب عنها فى حياته هى :

من أنا ؟

وما هذا الكون ؟

وكيف بدأت حياتى ؟

والى أين ستنتهى ؟

انها أسئلة الفطـــرة الأساسية . فالانسان يفتح عينيه فى عالم يحوى كل شىء غير جواب هذه الأسئلة ، فالشمس توصـل اليـه الحرارة اللازمة ، ولكن الانسان غافل عن حقيقتها ، وعن أســباب قيامها بهذه العملية لخدمته ، والهواء يعطى الحياة للانسان ، ولكن الانسان غير قادر ان يؤثر فيه ليجيب عن السؤال : من أنت ؟ ولماذا تقوم بهذا العمل ؟

انه يمعن فى وجوده ، ولكنه لا يفهم من هو ولمـاذا جاء الى هذه الدنيا ؟

والذهن الانسانى غير قادر على وضع اجابات هـــذه الأسئلة الأساسية فى حياة البشر ، ولكنه لن يتخلى عن بحثه ، ولن يمل هذا البحث عن جواب .

هذه الأسئلة ، وان وردت الفاظا على ألسنة الجماهير ، فانهـا تؤلم روحها ، وهي ترد أحيانا بطريقـــة يصاحبها الانفعال ، حتى يصبح الانسان مجنونا .

لقد عرفنا « انجلز » مفكرا ملحدا ، ولكن الحاده أتى عن طريق المجتمع المصاب بالبلبلة وعدم الاستقرار . لقد كان شغوفا بالدين، وكان يقضى وقتا طويلا فى الكنيسة ، ولكنه بعد ما كبر وتوسع نظره فى الدراسة أعرض عن الدين التقليدى ، وهو يكتب أحوال هـذه الفترة فى خطاب له الى أحد أصدقائه ، قال :

« اننى أدعو كل يوم ، واقضى اليوم كله داعيا أن تنكشف لى الحقيقة . لقد أصبح الدعاء هوايتى ، منذ وجدت الشكوك طريقها الى قلبى ، اننى لا أستطيع أن اقبل عقـــائدكم . أن قلبى يفيض بالدموع الغزار وأنا أكتب هذه السطور ، قلبى يبكى ، عينى تبكى، ولكننى أشعر أننى لست بطريد من رحمة الله ، بل آمل أن أصـل الى الله الذى اتمنى رؤيته بكل قلبى وروحى . واقســم بحياتى أن عشقى وبحثى هذا لمحة من روح القدس . ولن اقلع عن تفكيرى هذا ولو كذبه الانجيل المقدس عشرة آلاف مرة ! ! » .

لقد اقلقت غريزة البحث عن الحق روح « انجلز » الشـاب ، ولكن الدين المسيحى التقليدى لم يمنحه السكينة التى كان ينشدها فانقلب متمردا عليه ، وانغمس فى الفلسفات السياسية ، والمـادية الالحادية .

وجذور هـذه الغريزة الانسانية هى احساس البشر بحاجتهم الى الرب الخالق ، ففكرة : « الله خالقى وأنا عبـده » منقوشة فى اللاشعور الانسانى ، وهى ميثاق سرى مأخوذ على الانسان منـذ يومه الأول ، وهو يسرى فى كل خلية من خلايا جسمه ، وعنـدما يفتقد انسان ما هذا الشعور يحس بفراغ عظيم ، وتطالبه روحه من

أعماقه أن يبحث عن الهه الذى لم يره قط ، والذى لو وجده لخر راكعا على ركبتيه ، ثم ينسى كل شيء .

وليس الاهتداء الى معرفة الله غير الوصول الى المنبع الحقيقى لهذه الفطرة الانسانية ، والذين لا يهتدون الى المعرفة يقبلون على أشياء أخرى . فان كل قلب يبحث عمن يهدى اليه خير أمانيه .

وعندما رفرف العلم الوطنى لأول مرة على الأبنية الحكومية فى الهند بدلا من العلم البريطانى : « اليونيان جاك » ، فى صباح يوم ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ ــ أغرورقت عيون كثيرة بالدموع ، وهى ترى الصورة التى طالما حلمت بها . وكانت هذه الدموع مظهرا لعلاقة أصحابها « بالمعبودة : الحرية » ، التى ضحوا من أجل الحصول عليها بخير أيام حياتهم .

وهكذا عندما يذهب زعيم وطنى الى ضريح « أبى الوطن» ويضع عليه أكليل الزهور ، ثم يقف أمامه لحظة مطأطئا رأسه ، فهو حينئذ يباشر نفس العمل الذى يقوم به المؤمن أمام معبوده ، حين يركع ويسجد .

وحين يمر شيوعى أمام تمثال « لينين » ويرفع قبعته عن رأسه ويبطىء فى سيره ، يكون هو الآخر ، مثل رجل الدين ، يقدم أحسن تمنياته الى الهه . فكل انسان مجبور على أن يتخذ شيئا ما الها له، ويقدم له قرابين أمانيه الصادقة .

ولكن الانسان اذا قدم هذه القرابين لغير الله ، فهو يشرك بمن يستحق وحده العبادة .. و **« أن الشرك لظلم عظيم »** (١) ، والظلم أن تضع الشيء فى غير موضعه ، فلو كنت تريد أن تتخذ من غطاء الوعاء قبعة فهو « ظلم » ، والانسان عندما يميل الى غير الله لملء

---

(١) لقمان ١٣ .

فراغه النفسى ويتخذ من غير الله ملجأ له ، فهـــو ينحاز عن مكانه الصحيح ، ويتخذ من غريزته أسوأ أسباب الضلال .

ولما كانت هذه الغريزة فطرية ، فانها تظهر دائما فى صورتهـــا الطبيعية متجهة الى الله ، ولكن المجتمع ، وأحوال البيئة ، يعطيان هذه الغريزة اتجاها مغايرا ، فتبدأ الشكوك تساور الانسان فى أول الأمر ، ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه الشكوك ، عمدا أو عفوا ، لأنه يتمتع بحرية أكثر فى الحياة الجديدة ، فيرضى بها ولو ظاهريا.

لقد كان (( **برتراندرسل** )) شديد العلاقة بالدين فى أول حياته، وكان يواظب على حضور صلوات الكنيســـة باهتمام ، وفى يوم من الأيام سأله جده : ما تكون دعواتك المفضلة يا « برتى » ؟

فأسرع الشاب برتراند رسل يقول : «لقد سئمت الحياة، وأنا مدفون تحت وطأة ذنوبى ــ يا الهى ! » وعندما جاوز برتراند الثالثة عشرة من عمره بدأت خواطر التمرد تراود ذهنه ، بفعل البيئة التى أحاطت به ، الى أن تحول ذلك الطفل المواظب على صلوات الكنيسة فأصبح من بعد برتراندرسل الفيلسوف الملحـــد ، الذى لا يؤمن بالحقائق السماوية . وقد أجرت الاذاعة البريطانية حديثا معه عام ١٩٥٩ ، وعندما سأله « فريمان » ــ المعلق السياسى بالاذاعة ــ : « هل وجدت أن هواية الاشـتغال بالرياضيات والفلسفة يمكن ان تحل محل المشاعر الدينية عند الانسان ؟ » ، أجاب « رسل» قائلا: « نعم ، لقد وصلت فى سن الأربعين الى الطمأنينة التى قال عنهـــا « أفلاطون » : انه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات . انها عالم أبدى ، حر ، لا يقاس بزمان ، ولقد حظيت فى هـــذا العالم بسكينة تشبه تلك التى يحصلون عليها فى الدين » .

لقد انكر هذا المفكر البريطانى حقيقة المعبود السماوى ، ولكنه لم يستطع الاستغناء عن ضرورتها القصوى، بسبب الغريزة الفطرية

التى ولد بها الانسان ، فجاء بالرياضيات والفلسفة ، وأجلسهما فى المقعد المخصص لله وحده ، بل اضطر أيضا أن يخلع على الرياضيات والفلسفة نفس الصفات التى ينفرد بها الله سبحانه ، وهى : الأبدية ، والتحرر من أبعاد الزمن ، والسر فى ذلك أنه لايمكن الحصول بدونهما على الطمأنينة التى يبحث عنها الانسان .

« **جواهر لال نهرو فى حالة الركوع !** » لو كانت الصحف قد نشرت هذا الخبر فى يوم من الايام لما صدقها الناس ! ولكن الصورة التى تحملها الصفحة الأخيرة من جريدة « هندوستان تيمس » ، الصادرة فى دلهى يوم ٣ اكتوبر من عام ١٩٦٣ ، تصدق هذا الخبر وقد ظهر فى تلك الصورة رئيس وزراء الهند الاسبق فى حالة ركوع، واقفا أمام ضريح المهاتما غاندى فى ذكرى ميلاده ، وهو يقدم تمنياته الى « أبى القومية الهندية » !

ان مثل هذه الأحداث تقع كل يوم فى كل مكان من العالم ، وآلاف من الناس الذين ينكرون وجود الله يركعون أمام معبوداتهم، تسكينا لغريزتهم التعبدية ، وذلك لأن « الاله » ضرورة فطرية للانسان . وهذه المظاهر كافية لتأييد هذه الغريزة على أنها طبيعية، لأن الانسان يضطر الى الركوع أمام آخرين كثيرين، اذا ما امتنع عن السجود أمام « الله الواحد » ، أى أن فطرته لن تتمكن من ملء الفراغ الذى يخلو عند انكار وجود الله ، والالحاد .

وليست الحقيقة أن يتخذ الانسان آلهة آخرين عند الكفر بالله **فيسكن** غريزته ، بل سوف أقول : ان الذين يتخذون من غير الله الها محرومون من الاستقرار والطمأنينة الحقيقيين ، كالطفل اليتيم الذى يحاول أن يتخذ من مصنوعات البلاستيك « **أما** » له .

وكل ملحد ، مهما بدا له ، أو للاخرين ، انه ناجح ، يتعرض فى حياته لمواجهة لمحات ، يضطر ازاءها ان يفكر فيما اذا كانت الحقيقة التى قبلها ــ مصطنعة وزائفة ؟

وعندما ختم « جواهر لال نهرو » سيرته الذاتية سنة ١٩٣٥، اى قبل اثنى عشر عاما من استقلال الهنـــد ، كتب فى خاتمتها قائلا :

« اننى لأشعر أن فصلا من حياتى قد انتهى ، وان فصلا آخر على وشك البدء ، ترى ماذا سيحوى هذا الفصل ؟ لا يستطيع أحد أن يتنبأ به ، فان أوراق الحياة القادمة مختومة » .

وعندما ظهرت الأوراق الأخرى من حياة نهرو ، وجد **نفســه** رئيسا لوزارة ثالث كبريات دول العالم ، يحكم سدس المعمورة بدون شريك . ولكن « نهرو » لم يقتنع بهذا ، بل ما زال يشعر ، وهو فى أوج بروزه السياسى ، أن هناك فصـــولا أخرى من كتاب حيـــاته **لمـا تفتح** .

لقد كان يعتمل فى قرارة ذهنه **نفس** السؤال الذى يولد معـــه الانسان ، وقد قال نهرو ، وهو يخاطب مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى دلهى فى يناير من عام ١٩٦٤ والذى اشترك فيه ألف ومئتان من الممثلين من جميع أرجاء العالم ، قال :

« اننى سياسى ، ولا أجد وقتا كثيرا للامعان والتفكير . ولكننى **اضطر** فى بعض الاحيان أن أفكر : ما حقيقة هذه الدنيا ؟ ومن نحن؟ وماذا نقوم به ، اننى على يقين كامـــل أن هناك قوى تصـــوغ أقدارنا » (١) .

**وهذا هو الشعور بعدم الطمأنينة الذى يسيطر على ارواح الذين يكفرون بالله معبودا لهم ، ويخيل اليهم فى غمـــرة اللذات المؤقتة والأعمال الدنيوية الشاغلة ــ انهم قد ظفروا بالاستقرار .. ولكنهم لا يلبثون ان يحسوا مرة اخــــرى بانهم محرومون من الطمأنينة والسعادة والاستقرار .**

---

(١) جريدة National Herald عدد ٤ يناير عام ١٩٦٤ .

**وهذه الحالة التى تنعدم فيها الطمانينة والاستقرار لدى القلوب المحرومة من رحمة الله ليست مسالة ايام هــــذه الحياة المؤقتة وسنيها . وانما هى اهم من ذلك بكثير .**

**انها مسالة ازلية وابدية، تتمثل فيها آثار الحياة المعتمة الحالكة التى يقف على حافتها هؤلاء الأصحاب .**

**انها البادرة الأولى لحياة الخنق الابدية ، التى سوف يواجهونها بعد موتهم دون شك .**

**انها اجراس التنبيه الأولى فى حياتهم ، تنذرهم بالأحــوال الرهيبة والظروف المروعة التى سوف تمر بها ارواحهم .**

**وهى دخان من الجحيم الذى لابد لهم ان يخلدوا فيه .**

ولو أن النيران شبت فى منزل احدهم ، فقــد ينبهه الدخان الذى سيدخل فى انفه الى الخطر الوشيك ، وهو يستطيع أن ينقذ نفسه لو استيقظ فى الوقت المناسب ، ولكن حين تمســك السنة النيران بسريره فســيكون الأوان قد فات . ولات حين مناص ، بل هو الهلاك الذى يحيط به من كل جانب ، فقد قدر له أن يحترق فى النيران ، لبلادة حسه ، وجهالته من أمره .

ترى ، هل يستيقظ الناس فى ابان النجاة ؟ فان اليقظة النافعة هى التى تكون قبل فوات الأوان ، واليقظة عند الهلاك والدمار لاتمنح صاحبها غير القرار فى قاع البوار .

كتب البروفيسور« **مايكل بريتشر** » ترجمة لحياة جواهر لال نهرو ــ وقد سال المؤلف نهرو فى لقاء له معه بنيودلهى فى ١٣ يونية من عام ١٩٥٦ :

« ما المقومات اللازمة لبيئة صالحة ــ طبقا لفلسفتكم الاساسية فى الحياة ؟ » .

واجاب رئيس الوزراء الأسبق قائلا :

« اننى أومن ببعض المعايير ، قل : انها ( المعايير الاخلاقية ) ، ولا بد لكل فرد وبيئة من التمسك بها ، وعند القضاء على هـــذه المعايير لايمكنك الوصول الى نتائج مفيدة ، رغم احراز التقدم المادى الهائل ، وأما ( سبل ) اقامة هذه المعايير والاحتفاظ بها فى المجتمع فاننى لا أعرفها ، وهناك نظرة دينية لاقامة هذه المعايير ، ولكنهــا تبدو لى ضيقة جدا مع كل طقوسها وطرقها ، فأنا أهتم اهتمــاما كبيرا بالقيم الاخلاقية الروحية ، بعيدا عن الدين ، ولكننى لا اعرف كيف يمكن الحفاظ على هـــذه القيم فى الحياة الجديدة انهـــا لمشكلة » (١) .

وهذا السؤال وجوابه يبينان بوضوح الفراغ الذى يواجهـــه الانسان بشدة فى حياته ، فان اقامة القيم والمعايير الاخلاقية من أهم ضرورات كل مجتمع ، حتى يتاح له حق الاستقرار لمواصلة مسيرة الحضارة . ولكن الانسان بعد أن خذل الاله ، أخــذ يخبط خبط عشواء بحثا عن هذه المعايير ، وسبل اقامتها فى حياة افراد المجتمع .. ولا يزال الانســان ، رغم مئــات السنين التى مضت ، فى أولى مراحل بحثه عن هذه المعايير المجردة عن الدين .

انهم يحتفلون ، مثلا بأســبوع الكرم Courtes week لاذابة الحواجز بين الشعب والحكام ، ولكن العقلية البيروقراطية لاتذوب عند المسئولين ، رغم كل الجهود التى تبذل فى هذه المناسبات باسم « الأخلاق » .

ويعلقون على المحطات وداخل عربات القطارات لافتات كبيرة تقول : « ان السفر بدون تذكرة جريمة اجتماعية » ـــ ولكن نسبة السفر بدون التذاكر لا تقل ، بل تزداد يوما بعد يوم . وذلك يثبت

---

(١) Nehru - A political Biography, pp. 607 - 8.

ان عبارة « جريمة اجتماعية » غير كافية لتحريك ضـمير الفرد ، والحفاظ على النظام (١) .

انهم يبذلون جهودا ضخمة للتنفير من الجرائم ، عن طـريق الصحافة ، قائلين مثلا « الجريمة لا تفيد » Crime does not pay لكن النسبة المرتفعة للجرائم ، يوما بعد آخر ، دليل على أن «عواقب الجريمة » فى الدنيا ليست رادعة ، حتى تمنع المجرمين من القيام بجرائمهم .

وكثيرا ما طبعوا على جدران المكاتب عبارات تقول : « ان تقديم الرشوة ، وقبولها ذنب » ، ولكن المرء ، عندما يشاهد أن جـرائم الرشوة تمضى فى طريقها على قدم وساق ، بمشهد من هذهالعبارات نفسها ، يضطر الى أن يعترف بأن الدعاية الحكومية لن تستطيع ان تمنع هذه الجريمة الاجتماعية القبيحة .

انهم يكتبون فى كل عربة من عربات القطار : « ان القطاراتملك للشعب ، والحاق اى ضرر بها جريمة ضـــــد الشعب » . ولكن المسافرينفى نفس هذه العربات يسرقون لمباتها الكهربائية الرخيصة، ويحطمون زجاجها ، وربما يثورون فيشعلون النيران وهو دليل على ان فائدة الشعب ليست بأقوى من فائدة الفرد .

ان كبار الزعماء والسياسيين يعلنون فى خطبهم : ان استغلال الوسائل الحكومية لصالح الاغراض الفردية خيانة فى حق الشعب والدولة » . ولكن المشروعات الكبرى تفشل فى تحقيق أهدافها ،لأن

---

(١) كل ما يقدمه المؤلف من امثلة للتدليل على افلاس الفلسـفات المادية الالحادية ، غربية وشرقية ، موجود بوفرة فى بلاد شرقنا العربى ، وتوحى شواهد الواقع أن الامور تزداد كل يوم سوءا ، نتيجة سيطرة المنحلين والملاحدة على أجهزة التوجيه من جانب ، وقعود رجال الدين عن اداء رسالتهم من جانب آخر ، ولا حل للمشكلة الا بعودة الامة الى الله مرة أخرى ــ ( المراجع ) .

النسبة الكبرى من الميزانيات المقررة تأخذ طريقها الى جيـــــوب المسئولين القائمين بأمر هذه المشروعات ، بدلا من انفاقها فى مكانها الصحيح . وهكذا اختفت المعايير والقيم من الحياة القومية ، رغم كل الجهود التى بذلت من جانبى المصلحين والزعماء ، وباءت كل الوسائل التى استخدموها بالفشل الذريع (١) .

هذه الظواهر هى فى الواقع دلائل على أن الحضارة الالحادية قد انتهت بركب البشرية الى الوحل ، وقد ضللتها عن طريقها ، التى لم يكن منها بد لمواصلة المسيرة ، ولا حل لهذه الأزمة الا بالرجوع الى الله ، والتسليم بأهمية الدين للحياة ، فهو الاساس الوحيد الذى يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه ، وليست هناك من اسس أخرى .

كتب البروفيسور تشستر باولز (٢) ، السفير الأمريكى الأسبق لدى الهند ، يقول :

« ان الدول النامية تواجه مشكلات من نوعين ، فى طريق نهضتها الصناعية . والنوعان معقدان غاية التعقيد . **فاما اولهما :** فهو مشكلات الحصول على راس المال ، والمواد الخام ، والخبرة الفنية

---

(١) ان الامثلة التى ذكرها المؤلف هنا — من أسبوع الكرم الى التلاعب فى أموال الدولة — أمور عادية جدا فى الهند ، وهى تحدث على مسمع ومشهد من الجمهور والمسئولين ، وترتب على ذلك أن الحالة الاخلاقية للشعب الهندى آخذة فى التدهور بشكل يخيف السياسيين من عواقبها على المدى البعيد ، وهؤلاء ( الوثنيون منهم أو الملحدون ) لا يعرفون كيف يسدون هذا السيل الخطر ، فغالبيتهم العظمى تجرى وراء مصالحها الذاتية ، ولذلك قد تفشى الفساد وعمت الرشوة وسادت اعتبارات المحسوبية فى كل وسط ، من أدناه الى أرقاه — وهى حال تدمى قلوب الساسة الوطنيين المخلصين ، ولكنهم مغلوبون على امرهم .

(٢) Chester Bowles. هو من اشهر الخبراء الاقتصاديين فى الولايات المتحدة الامريكية . المعرب .

وطرق استخدامها أفضل استخدام . **واما النوع الثاني** من هذه المشكلات فيتعلق بالشعب والادارة الحكومية . فعلينا قبل المضي فى ثورتنا الصناعية أن نتيقن من أن هذه الصناعة لن تخلق مشكلات أكثر مما تقضي عليه ( من المشكلات ) فعلا . ومن كلمات المهاتما غاندى : أن المعلومات العلمية والكشوف سوف تزيد من شراهة الانسان ، على حين أن الانسان هو الشيء الأهم من كل الأشياء»(١)

فالشعب مجتمع يخضع للبرامج التقدمية ، ولكن عناصر التقدم ، وهي رأس المال والخبرة الفنية ، لا تجدى نفعا فى مجتمع يسوده الفراغ السياسى والحضارى (٢) .

ما الطريق الى سد هذا الفراغ لبناء مجتمع يضطلع فيه الشعب والحكام ، كل بواجبه ، لرفع شأن البلاد ؟

أنه سؤال بدون جواب لدى المفكرين المحدثين ، والحق أن الانسان لن يستطيع الوصول الى جوابه فى ظل المجتمع الالحادى فكل مشروع تقدمي يصاب بتناقض مثير ، يتجلى فى أن العقائد الشخصية لدى أفراده تخالف العقيدة الاجتماعية . فبرنامج التقدم الاجتماعى مثلا يهدف الى اقامة مجتمع رفاهى يتمتع بالأمن والسلام ، ثم يقول المفكرون : « ان هدف الانسان الأساسى هو الحصول على السعادة المادية ! » فهم بذلك ينكرون المبدأ الأول لبرنامجهم . لأنهم يحرضون الافراد على عمل هو عكس ما يحتاج اليه المجتمع .

ويرجع هذا التناقض الى أن برنامجا من هذا النوع لم يحقق أهدافه الى يوم الناس هذا ، وفشلت جميع الفلسفات المادية للنهوض بالحياة الاجتماعية .

---

(١) The Makings of a Just Society, Delhi 1963, pp. 68-69

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١ .

ان معنى الحصول على السعادة المادية هو أن يسعى الانسان بكل قواه الى تحقيق كل ما تصبو اليه أمانيه ، ولكن تحقيق الأهداف الشخصية ، فى هذا العالم المحدود ، لا طريق اليه دون التأثير على الآخرين . ولذلك ، فعندما يسعى الفرد الى تحقيق مطالبه يتحول الى رزء بالنسبة للآخرين .. فأمنية الفرد تدمر امانى المجتمع . وحين يجد فرد ، يتقاضى مرتبا بسيطا ، أن موارده لا تكفى لتحقيق سعادته الشخصية فانه يسعى الى تحقيق ذلك بكل الصور الممكنة ، حتى ليقدم على السرقات . والرشاوى والغش ، والتزوير ، والاستيلاء على حقوق الغير بالقوة .. وعندئذ يبدأ المجتمع فى أن يعانى نفس المشكلات التى كان يعانى منها أحد افراده .

ان العالم الحديث يعانى من مشكلة ، لم يجربها الانسان طوال تاريخه هى مشكلة « **جرائم الأطفال** » ، التى أصبحت جزءا من المجتمع الحديث ! من أين يأتى هؤلاء المجرمون الصغار ؟ انهم ضحايا « السعادة المادية » .. فكثير من الفتيان والفتيات يسأمون حياة الزواج بعد وقت قليل ، وحينئذ يبدأون فى البحث عن وجوه واجساد جديدة ، ويحصلون على الطلاق ، بيد أن المجتمع هو الذى يدفع ثمن الطلاق ، حين يلملم فى رحابه « اطفالا يتامى فى حياة آبائهم وأمهاتهم » ، وما دام المجتمع المنحل هو الآخر لا يستطيع أن يهيىء لهؤلاء الأطفال الطعام واللباس والمأوى ، فهم أحرار من كل قيد ، وهم ثائرون على المجتمع الذى انجبهم . وتبدأ هذه الحال بالصعلكة ، ثم تنتهى الى الجرائم القذرة التى كانوا ثمرتها .

ولقد صدق السير الفريدديننج فى مقاله : « ان اكثرية الأطفال غير البالغين تخرج من انقاض « اسر محطمة » (١) .

---

(١) The Changing Law, p. 111.

هذا التناقض بين الفلسفة الاجتماعية وأهداف الأفراد هو أصل كل المشكلات الاجتماعية . فجميع الحوادث التى نسميها فى قواميسنا « جريمة وذنبا » هى محاولة قوم للحصول على أمانيهم الذاتية فى الحياة ، بعد أن أخفقوا فى تحقيقهـا لسبب أو آخر . وهذه الحوادث تظهر فى أغلب الأحيان فى صور : الاغتيال ، والخطف والتدليس ، والتزوير ، والقرصنة ، والحروب ، والزنا ، وما الى ذلك من الجرائم التى تعانى منها الانسانية .

وهذا التناقض يبين بجلاء ان هدف الحياة الأســاسى هو الحصول على رضا الله فى الاخرة ، لا غير . انه هو الهدف الوحيد الذى يمكنه انقاذ المجتمع والفرد من التناقض الكبير ، والســير بهما فى طريق الرخاء والسعادة المتبادلة ، لأن الفرد فى هذا الهدف لا يصادم أمانى المجتمع ، بل يشترك فى كفاحه بطريقة ايجابيــة فعالة ..

فميزة نظرية ( الآخرة ) تأكيدها على أنها هى الأساس الوحيد لنجاح المشروعات الاجتماعية فى حين تبين فى نفس الوقت ، أنها هى الهدف الوحيد للانسان الفرد ايضا ، لأن اى شىء لا علاقة له بالواقع لا يمكنه أن يصبح بهذا القدر العجيب من الأهمية ، والموافقة لاهداف البشرية .

لقد تقدم الطب الحديث والجراحة الى أقصى حـدودهما فى هذا القرن ، وبدأ الاطباء يقولون : « أن العلم يستطيع القضاء على كل مرض ، غير المـوت والشـيخوخة » !! ولكن الأمراض تكثـر وتتشعب ، وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » التى هى نتـائج أعراض التناقض الشـديد الذى يمر به الفـرد والمجتمع .

لقد حاول العلم الحديث ان يغذى كل الجوانب المادية فى الجسم الانسانى ، ولكنه فشل فى تغذية الشعور ، والأمانى ، والارادة ،

وكانت حصيلة ذلك جسما طويل القامة ممتلىء النواحى ، ولكن الجانب الآخر من الجسم ، وهو أصل الانسان ، أصبح يعانى من ازمات لا حد لها .

لقد اكدت **احصائية** : ان ثمانين فى المائة من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضا ناتجة عن الأعصاب ، من ناحية أو اخرى . ويقول علماء النفس الحديث : أن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية . الكراهية ، والحقد ، والجريمة ، والخوف ، والارهاق ، واليأس ، والترقب ، والشك ، والأثرة ، والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الايمان بالله .

ان هذا الايمان بالله يمنح الانسان يقينا جبارا ، حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد فى سبيل هدف سام اعلى ، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة .

ان الايمان بالله يعطى الانسان محركا هو أساس كل الأخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة ، العقيدة التى عبر عنها « السير وليام أوسلر » William Osler بقوله : « **انها قوة محركة عظيمة ، لا توزن باى ميزان ، ولا يمكن تجربتها فى المعامل** » .

أن هذه **العقيدة** هى سر مخزن الصحة النفسية الموفورة ، التى يتمتع بها اصحابها ، واية نفسية محرومة من هذه **العقيدة** لن تنتهى الا بالامراض ، أقساها وأعتاها .

ومن شقوة الانسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود فى الكشف عن امراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم فى نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول الى علاج هذه الأمراض ، وهذه الظاهرة تثير شعورا كئيبا بأن هؤلاء العلماء قد اخفقوا فى

الميدان الاخير ، ولذلك أكبوا على الميدان الثانى ، يسترون خيبتهم ، ويظهرون بطولتهم أمام العالم !

والى ذلك اشار احد العلماء المسيحيين قائلا : « ان علماء الطب النفسى يبذلون كل جهودهم فى كشف اسرار القفل الدقيقة الذى سوف يغلق علينا كل أبواب الصحة ! » .

المجتمع الجديد يسير فى اتجاهين فى وقت واحد . فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكماليات المادية ، على حين يتسبب – لتركه الدين – فى خلق أحوال تجعل من الحياة جحيما . انه يعطيك دواء الشفاء من الفم . ويحقنك السم فى العضل !

وسوف ننقل هنا شهادة لهذه الظاهرة رواها الدكتور بول ارنست أدولف ، يقول :

« تعرفت أثناء دراستى بالكلية الطبية على التغييرات التى تطرأ على أنسجة الجسم بعد الاصابة بالجراح ، وشاهدت أثناء التجارب بالمنظار المكبر أن اعراضا محددة تطرأ على هذه الانسجة ، مما يؤدى الى اندمال الجروح وشفائها ، وعندما اصبحت طبيبا بعد اتمام دراستى كنت جد مقتنع بكفاءتى وانى أستطيع ان احقق نتيجة موفقة بالتأكيد ، باستعمال الوسائل الطبية اللازمة ، ولكن سرعان ما اصبت بصدمة كبيرة ، حيث فرضت على الظروف أن اشعر اننى أعرضت عن أهم عنصر فى علم الطب ، الا وهو : الله » .

« كانت بين المرضى الذين كنت مشرفا على علاجهم فى المستشفى عجوز فى السبعين من عمرها ، أصيب أعلى فخذها بصدام ، وأكدت صور الأشعة ان انسجة جسمها تلتئم بسرعة ، فقدمت لها تهنئاتى لسرعة شفائها ، واشار لى كبير الجراحين : ان اطلب منها العودة الى بيتها بعداربع وعشرين ساعة ، لأنها استطاعت ان تمشى دون أن تستند الى شىء » .

« وكان ذلك يوم أحد ، حين جاءت ابنتها تزورها على عادتها الاسبوعية ، فقلت لها : أن والدتك تتمتع بصحة جيدة الآن ، وعليك أن تحضري غدا لترافقيها الى البيت . ولم تلفظ الفتاة بشيء أمامي بل توجهت الى أمها ، وقالت لها : انه تقرر بعد مشورة زوجها أنهما لن يستطيعا تدبير عودتها ( الأم ) الى بيتهما ، وخيرلها الآن ان تنظم لها سكنى باحدى « دور العجزة » .

وبعد بضع ساعات مررت بسرير العجوز ، فشاهدت أن انهيارا سريعا يطرأ على جسمها ، ولم تمض أربع وعشرين ساعة حتى ماتت العجوز ، **لا بسبب فخذ مكسور ، بل جراء قلب كسير .**

« وقد حاولت أن أقوم بجميع الاسعافات اللازمة لانقاذها ، ولكن حالتها لم تتحسن . كانت عظام فخذها المكسور ، قد تحسنت كثيرا ، ولكنني لم أجد علاجا لقلبها الكسير .. أعطيتها كل ما عندي من الفيتامينات ، والمعادن ، ووسائل التئام العظم المكسور ، ولكن العجوز لم تستطع أن تنهض مرة أخرى ، لقد انجبرت عظامها دون شك ، وكانت تملك فخذا قوية ، ولكنها لم تقوى على الحياة ، لأن الزم عنصر لحياتها لم يكن الفيتامينات ، والمعادن ، ولا انجبار العظم ، وانما كان ( الامل ) ، الامل فى أن تعيش على نحو معين ، فمتى ذهب الأمل فى الحياة ، ذهبت معه الصحة » .

« وكان لهذا الحادث تأثير عميق فى نفسي ، لاحساسى بأن هذا الحادث كان من المستحيل وقوعه ، ولو كانت هذه العجوز تعرف « اله الأمل » ، الذى أومن به لكونى مسيحيا » (١) .

هذا المثال يعطينا صورة من التناقض الذى يعانى منه العالم فى كل جانب من جوانب حياته ، فالعالم يحاول اليوم بكل قوة أن

---

(١) The Evidence of God, pp. 212-14.

تمحى الأحاسيس والمشاعر الدينية من قلوب الناس ، وهو فى هذه المحاولة يسعى الى نهضة الانسان ، متجاهلا ( الروح ) ، عنصره الأصلى .

ومن نتائج هذه المحاولة ان الطب يستطيع أن يجبر عظام فخذ مكسورة ، ولكن حرمان الانسان من العقيدة الالهية يفضى به الى الموت ، رغم كون جسمه فى صحة جيدة .

لقد دمر هذا التناقض الانسانية تدميرا ، فالأجسام تحت الاثواب البراقة أحوج ما تكون الى الهدوء والسعادة الحقيقيين ، والأبنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة ، والمدن المتلألئة ببريق الحضارة هى بؤر الجرائم ، ومصانع المصائب ، والحكومات الجبارة مصابة بالدسائس الداخلية وعدم الثقة ، والمشروعات الضخمة تبوء بالفشل نتيجة لخيانة القائمين بها .. لقد أصبحت الحياة غير مرغوب فيها رغم التقدم المادى الهائل ، وكل هذا وذاك يرجع الى حرمان الانسان من نعمة الايمان بالله ، لقد حرمنا أنفسنا من المنبع والأساس الذى هيأه لنا خالقنا ومالكنا .

ان سبب الأمراض النفسية، التى أشرت اليها ، حقيقة واضحة جلية اعترف بها علماء النفس ، وقد لخص عالم النفس الشهير البروفيسور يانج C.G. Jung تجاربه عنها فى الكلمات التالية :

« طلب منى أناس كثيرون ، من جميع الدول المتحضرة ، مشورة لأمراضهم النفسية ، فى السنوات الثلاثين الأخيرة . ولم تكن مشكلة احد هؤلاء المرضى ـ الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم ، وهو ما بعد ٣٥ سنة ـ الا الحرمان من العقيدة الدينية . ويمكن ان يقال : أن مرضهم لم يكن الا أنهم فقدوا الشىء الذى

تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها فى كل عصر ، ولم يشف احد من هؤلاء المرضى الا عندما استرجع فكرته الدينية (١) .

وانها لكلمات جلية : « **لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد** » (٢) .

ولو أردنا المزيد من الايضاح ، فلسوف أقتبس من الاستاذ (أ. كريسى موريسون ) رئيس اكاديمية نيويورك ( سابقا ) ، قوله :

« ان الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الاخلاق ، والقيم والمشاعر السامية ، وكل ما يمكن اعتباره « نفحات الهية » ــ لا يمكن الحصول عليها من طريق الالحاد » .

**« فالالحاد نوع من الانانية ، حيث يجلس الانسان على كرسى الله**
**« لسوف تقضى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين .**
**« سوف يتحول النظام الى فوضى .**
**« سوف ينعدم التوازن ، وضبط النفس ، والتمسك .**
**« سوف يتفشى الشر فى كل مكان .**
**« انها لحاجة ملحة ان نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله » (٣) .**

**( انتهى )**

* * *

(١) Quoted by C.A. Coalson, Science & Christian Belief p. 110.
(٢) : ق ٣٧ .
(٣) Man Does not Stand Alone, p. 123.

صفحة

## الباب الخامس



## الباب السادس

## الباب السابع



## الباب الثامن



## الباب التاسع

مطابع المختار الاســلامى
دار الســلام

الكتاب والدار

ما أندر الأقلام التى تنبض بالصدق وهى تكتب دفاعا عن مستقبل الحياة كما يتصوره الاسلام .. متحملة فى ذلك ضغط الفساد وسلطانه ، ومتحدية فى المجتمع مراكز استيراد الأفكار ، وعناصر اللامبالاة ..

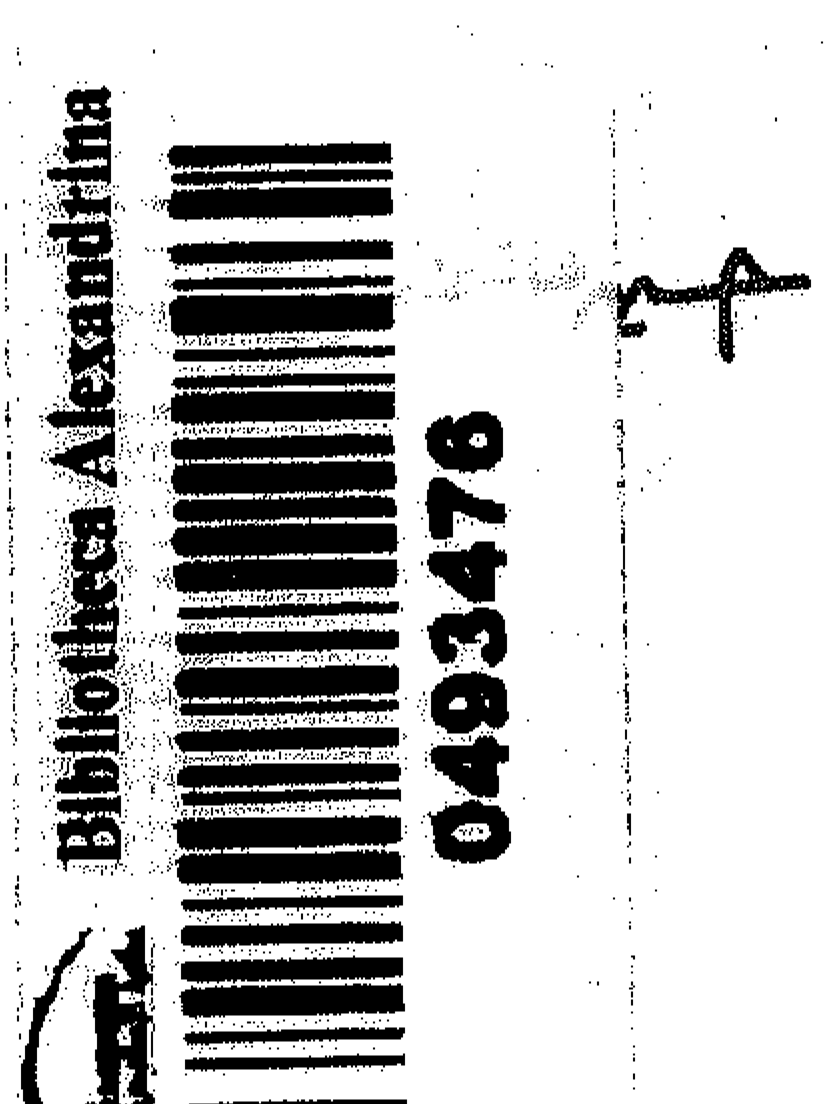
صحيح أن هذه الأقلام قلة ، لكن أرض الله تعالى لا تخلو منهم ، يكتبون بكل لغة ، ويحاربون فى كل معركة ، ايمانا منهم بوحدة المقاتلين أمام الخطر الزاحف .

من هؤلاء القلة وحيد الدين خان .. المسلم الهندى العالم والمفكر الانسانى الحر .. وهو يقدم فى كتابه هذا (( الاسلام يتحدى )) عرضا لأحدث آراء المفكرين الأوربيين ويرد عليها ، وهو يمضى بأسلوبه المقنع الهادىء فينتقد قضية المعارضين للدين ، ويثبت أنها متهاوية ولا تقف على أرض صلبة .

وبين يدى القارىء الطبعة السابعة بعد أن نفدت الطبعة السادسة خلال أيام من صدورها ..

ولقد آثرت دار المختار الاسلامى أن يكون هذا الكتاب أول عمل تقدمه لقرائها ، واذا كانت الدار تدقق كثيرا فى اختيار ما تنشره ، فانما تهدف الى الدفاع عن الاسلام وبيان حقيقته من خلال أكثر الكتابات احتراما ووعيا ..

ذلك أن دار المختار الاسلامى تؤمن أن الاسلام فى جوهره هو السبيل الوحيد لانقاذ الانسانية .. غير أن أسلوب الاتصال بهذا الجوهر النقى هو الذى يحتاج الى طريقة عرض جديدة .. ويحتاج الى لغة معاصرة تجعله قريبا من العقل قريبا من القلب .




المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ١٧٠٧ — القاهرة
هاتف ٩٣٦٤٩٦